رواية

الحفار

صالح مرسي

الحفار

أصبحت الحرب الخفية بعد ١٩٦٧ ضربًا من الجنون أو الخيال، وراحت الأحداث تتسابق لتلقي فوق النار المتأججة مزيدًا من الوقود، ومع قيام حرب الاستنزاف، وعبور الفدائيين إلى سيناء لتدمير المنشآت الإسرائيلية وأسر الجنود ونسف المواقع... وصلت الحرب الخفية في المنطقة إلى ذروة مخيفة حقًا.

ووسط هذا الجو الملتهب، أعلنت إسرائيل عن عزمها على التنقيب عن البترول في سيناء، شفعت هذا الإعلان بإعلان أكثر استفزازًا يقول إنها بالفعل استأجرت حفارًا لهذا الغرض. وبدا واضحًا للقيادة المصرية أن الغرض الرئيسي من استئجار هذا الحفار لم يكن اقتصاديًا،... وإنما كان هو إذلال مصر عالميًّا، وإظهارها أمام الأصدقاء والأعداء بمظهر العاجز، لا عن حماية أرضه فقط، بل وموارده الطبيعية فيها.

كانت مصر تحاول أن توقف وصول هذا الحفار، ولقد قالت بوضوح أنها لن تسكت حتى ولو أدى الأمر إلى ضرب الحفار بالطيران المصري في البحر الأحمر وقبل وصوله خليج العقبة».

وهكذا، وجدت المخابرات العامة المصرية نفسها تسابق الزمن وهي كمن تبحث عن إبرة في جبل من القش، فقد يكون الحفار على شواطئ أستراليا، أو آسيا، أو أوربا، أو إفريقيا، أو أمريكا الشمالية أو الجنوبية... كان مطلوبًا منها أن تتعامل مع الحفار قبل أن يعبر مضيق باب المندب، مهما كانت النتائج.

وبدأت واحدة من أغرب وأعظم الجولات، وسجلت المخابرات المصرية انتصارها في عملية تعتبر واحدة من أهم العمليات السرية، ولقد اشتهرت هذه العملية في العالم كله باسم: «عملية الحفار».


6 221102 026383

دار الشروق
www.shorouk.com

الحـــــــــفار

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٤٦٤٠/ ٢٠٠٩
ISBN 978-977-09-2749-2

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

صالح مرسي

الحفار

رواية

دار الشروق

المحتويات

إلى مصر

صالح مرسي

كلمة قبل بدء الحديث

«.........كان موقف جمال عبد الناصر داخل بلاده قويًا وثابتًا، ولقد بدا واضحًا كل الوضوح، لكل أجهزة المخابرات في الغرب، أن لا سبيل إلى إزاحته، إلا عن طريق هزيمة عسكرية تطيح به».

«ريتشارد ديكون»

في كتاب: «الخدمة السرية لإسرائيل»

في بداية الستينيات من هذا القرن، وصلت حرب العقول ـ أي حرب المخابرات كما نسميها في العالم العربي ـ إلى ذروة لم يعرفها العالم من قبل، كان دخول «العلم» إلى هذا المجال قد اتسع بشكل أصبح يهدد أعظم الأسرار، وكانت الأساليب قد تطورت، والصراع قد احتدم مع وصول الحرب الباردة إلى ذروتها في عهد الرئيس الأمريكي «دوايت أيزنهاور»، ووزير خارجيته «جون فوستر دالاس».

وكانت منطقة الشرق الأوسط، مع تزايد نفوذ مصر وتواجدها وقيادتها للعالم الثالث وقضاياه، واحدة من تلك المناطق التي احتدمت فيها الصراعات الخفية وتعقدت، وبصرف النظر عن الصراع المخيف الذي نشب بين المخابرات العامة المصرية من ناحية. والمخابرات الإسرائيلية ـ الموساد ـ من ناحية أخرى؛ فلقد كانت للدول العظمى مصالح في هذه المنطقة، وإذا كان الاتحاد السوفيتي استطاع أن يبني مع مصر وعدد من الدول العربية علاقات متطورة في ذلك الوقت، فإن العالم الغربي، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، كان لا بد له وأن يتواجد ـ بكل الثقل ـ في المنطقة... ليس فقط من أجل الحد من وجود الاتحاد السوفيتي ولكن من أجل هدف آخر، بدا لبعض الوقت، وكأنه الهدف الأسمى لأجهزة المخابرات في الغرب، هذا الهدف هو التخلص من «جمال عبد الناصر».

وفي كتاب «الخدمة السرية لإسرائيل» الذي وضعه الكاتب الإنجليزي «ريتشارد ديكون»[1]، والذي يورد فيه المؤلف ـ بتحيز صارخ ـ عددًا من القضايا الهامة والعمليات الخطيرة التي قام بها جهاز المخابرات الإسرائيلية، في هذا الكتاب فصل بعنوان: «حرب الأيام الستة»، وضع المؤلف في مقدمته تصريحًا لـ«موشي ديان»، وزير الدفاع الإسرائيلي في تلك الأيام يقول فيه: «كل ما أستطيع أن أقوله، هو أن دور المخابرات الإسرائيلية في هذه الحرب، لا يقل عن دور سلاح الطيران، أو سلاح المدرعات».

كان معنى هذا ببساطة، أن حرب الأيام الستة كانت ـ في المقام الأول ـ لعبة ذكاء، مارستها كل الدول المعنية على رقعة الشرق الأوسط بنعومة أحيانًا، وبخشونة فائقة في أحيان أخرى.

فهل كان التصريح الذي أدلى به «موشي ديان» صحيحًا؟

في هذا الفصل يورد المؤلف محاولات إسرائيل للتعاون مع أجهزة المخابرات في الغرب... ولقد بدأت هذه المحاولات بشكل مبكر

---

(١) اسمه الحقيقي «رونالد ماك كورميك».. ولد بمقاطعة ويلز بغرب إنجلترا. أثناء الحرب العالمية الثانية، خدم في الأسطول البريطاني... بعد الحرب أصبح صحفيًا، عمل في البداية كمندوب متجول، ثم عمل مندوبًا لدى دول الكومنولث... وأصبح أخيرًا مديرًا للقسم الخارجي في جريدة «صنداي تايمز». تحت اسم «ريتشارد ديكون»، وتحت اسمه الحقيقي أيضًا، كتب العديد من الأعمال التسجيلية، التي تعتمد على سرد الحقائق، دون تدخل الخيال القصصي كما فعل رئيسه في المخابرات الإنجليزية «إيان فليمنج» صاحب شخصية «جيمس بوند» الخيالية.

من أهم أعمال مستر «ديكون» كتاب: «الحرب الصامتة»، و«تاريخ المخابرات البحرية»، و«تواريخ الروس»، و«الخدمة السرية بين بريطانيا والصين».. ثم: «منهو من في قصة جاسوسية». هو الآن يعيش في مقاطعة كنت.

مع المخابرات الإنجليزية، حتى اكتشفت قضية «فليبي» الشهيرة، فبدأت المخابرات الإسرائيلية في تحجيم هذا التعاون خوفًا من تسلل المعلومات إلى الاتحاد السوفيتي عن طريق عملائه في المخابرات الإنجليزية، وبالتالي إلى مصر.

ويؤكد المؤلف ـ بالأدلة والأسماء ـ أن المخابرات الإسرائيلية قد استطاعت أن توجد نوعًا من التعاون «غير الرسمي» مع المخابرات الفرنسية رغم موقف «ديجول» الذي كان متعاطفًا في ذلك الوقت مع القضايا العربية.

أما عن التعاون مع المخابرات المركزية الأمريكية ـ سي. آي. إيه ـ فلم يكن تعاونًا بالمعنى المعروف، بل كان شبه اندماج كامل.

وفيما يختص بحرب ١٩٦٧ بالذات، يقول «ريتشارد ديكون» في صفحة ١٨٢ من هذا الكتاب: «غير أن المساعدات الرئيسية التي حصلت عليها إسرائيل في مجال التخابر، فلقد كانت من الأمريكيين والفرنسيين».

ثم يقول عن تطور العلاقات بين المخابرات الإسرائيلية والأمريكية: «باختصار: إن هذا يعني أن الأمر وصل إلى حد أن المخابرات المركزية الأمريكية لم يكن لها مكتب، ولا حتى مجرد محطة في تل أبيب، ليس هذا فقط بل إن رجال المخابرات الذين يشغلون وظائف رسمية في السفارات عادة، كانوا يتعاونون مع الموساد بشكل سافر ومباشر»... وبعدها يؤكد مستر ديكون أن ثمة اتفاقًا قد عقد بين الموساد وبين الـ «سي. آي. إيه» كان فرسانه هم: «إيسار هاريل»، و«إفرايم إيفرون» الذي أصبح فيما بعد سفيرًا لإسرائيل في الولايات المتحدة، ثم «جيمس إنجلتون» رئيس شعبة مقاومة التجسس في المخابرات المركزية الأمريكية، وأن «إنجلتون» بالذات، كان يرى أن تصرف الولايات المتحدة إبان عملية السويس في عام

١٩٥٦ كان أحمق، وأنه لا سبيل إلى إيقاف النفوذ السوفيتي في المنطقة، إلا بمزيد من التعاون بين الـ «سي. آي. إيه» وبين «الموساد»، حتى إذا جاء عام ١٩٦٥. كان الضغط داخل المخابرات المركزية الأمريكية قد تزايد للتخلص من جمال عبد الناصر، وفي ذلك يقول «ديكون» بالحرف الواحد: «كان موقف جمال عبد الناصر داخل بلاده قويًا وثابتًا، ولقد بدا واضحًا كل الوضوح أنه لا سبيل إلى إزاحته، إلا عن طريق هزيمة عسكرية تطيح به».

هكذا كانت الصورة تبدو من الداخل، وكان معنى هذا أن:

أولًا: حرب ١٩٦٧ لم تكن وليدة ظروف صنعتها الساعة كما تخيل البعض، ولكنها كانت وليدة تخطيط دقيق ودءوب استمر لسنوات قبل اندلاع هذه الحرب.

ثانيًا: كل هذا لم يكن يخفى ـ وهو أمر طبيعي للغاية ـ على المخابرات المصرية.. وكان ـ في نفس الوقت ـ يلقي عليها عبئًا ثقيلًا.

ثالثًا: تعاون الموساد مع أجهزة المخابرات الغربية، كان بالضرورة، وبحساب القوى العالمية، يزيد من التهاب المنطقة يومًا بعد يوم، والتهاب الحرب الخفية فيها بالتالي.

هذه بعض الحقائق التي تعطينا صورة لمدى «ضراوة» هذه الحرب الخفية قبل حرب ١٩٦٧، ولقد قامت الحرب، ونفذت العملية كما خططوا لها بالضبط.. غير أن المفاجأة التي قلبت كل الحسابات، هي أن «العملية» نجحت كعملية، لكنها لم تحقق الهدف منها.

ذلك أن الشعب المصري أصر على بقاء جمال عبد الناصر في مكانه، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا هي ازدياد حدة الحرب الخفية، وازدياد العبء ثقلًا على كاهل المخابرات المصرية، خاصة بعد الأزمة

التي نشبت في أعقاب هذه الحرب بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، والتي اشترك فيها صلاح نصر مدير جهاز المخابرات المصري في ذلك الوقت. ومع الضجة التي أثيرت حول جهاز المخابرات المصري، ظهرت أسئلة عديدة كانت في حاجة إلى أجوبة.. غير أن سؤالًا واحدًا من هذه الأسئلة كان يبدو أهم من كل ما عداه، هذا السؤال هو: «ألم تعلم المخابرات المصرية بما كانت تنتويه إسرائيل قبل حرب عام ١٩٦٧؟».

ولقد قيل الكثير، وكتب الكثير حول هذا الموضوع، لكن الحقيقة ظلت غامضة لفترة طويلة ـ ربما كان من أسباب ذلك أن جهاز المخابرات المصري يتبع تلك المدرسة التي تؤمن بالصمت والترفع عن الدفاع ـ غير أنه، وبعد ثمانية عشر عامًا، تبدو الحقيقة الآن مؤكدة وثابتة... هذه الحقيقة التي تقول: إن المخابرات العامة المصرية، قد نبهت القيادة السياسية قبل يونيو ببضعة أشهر إلى أن كل الظواهر، وكل المعلومات التي تجمعت لديها تقول بأن ظروف إسرائيل الداخلية، وعلاقاتها، وتحركاتها الخفية والظاهرة، توحي بأنها تستعد لجولة جديدة مع مصر... وتؤكد بعض المصادر الموثوق بها، أن ثمة تقريرًا وضع على مكتب رئيس الجمهورية بكل هذا مشفوعًا بمصادره التي كانت على مستوى عال، ولا يرقى الشك إلى معلوماتها، وكان تحليل المخابرات المصرية يقول: إن إسرائيل لا بد وأن تنتهز فرصة التقاء رغباتها مع رغبات القيادة في الولايات المتحدة، وبالتحديد مع مخطط الرئيس الأمريكي «ليندون جونسون».

ولكن الظروف السياسية، والحركة الدبلوماسية العنيفة التي تمت قبل الحرب، التي أسماها الرئيس عبد الناصر في إحدى خُطبه بأنها كانت «خديعة دبلوماسية»، وضعت القيادة المصرية في وضع من كان ينتظر أن يبدأ الآخرون بالضربة الأولى.

ولهذا أصبحت الحرب الخفية بعد ١٩٦٧ ضربًا من الجنون أو الخيال، وراحت الأحداث تتسابق لتلقي فوق النار المتأججة مزيدًا

من الوقود، ومع إعادة بناء الجيش المصري، وتصدي مصر لبعض الاستفزازات العسكرية الإسرائيلية ـ رأس العش، والمدمرة إيلات على سبيل المثال ـ ثم قيام حرب الاستنزاف، وعبور الفدائيين إلى سيناء لتدمير المنشآت الإسرائيلية وأسر الجنود ونسف المواقع... وصلت الحرب الخفية في المنطقة إلى ذروة مخيفة حقًا.

ووسط هذا الجو الملتهب، أعلنت إسرائيل عن عزمها على التنقيب عن البترول في سيناء، شفعت هذا الإعلان بإعلان أكثر استفزازًا يقول إنها بالفعل استأجرت حفارًا لهذا الغرض. وأحاطت الدعاية الإسرائيلية هذا الحفار بضجة إعلامية شملت العالم كله... وبدا واضحًا للقيادة المصرية أن الغرض الرئيسي من شراء هذا الحفار لم يكن اقتصاديًا، رغم حاجة إسرائيل في تلك الأيام إلى البترول فعلًا، ولم يكن سياسيًا رغم أن وجود الحفار سيدعم خطتها بإنشاء مستوطنات تصبح مع الأيام منشآت ثابتة تكرس بقاءها في الأرض... وإنما كان الغرض الرئيسي هو إذلال مصر عالميًا، وإظهارها أمام الأصدقاء والأعداء بمظهر العاجز، لا عن حماية أرضه فقط، بل وموارده الطبيعية فيها.

وهكذا تحركت القيادة السياسية في مصر بسرعة، شملت حركتها جميع أركان الكرة الأرضية، وجرت اتصالات على مستوى عال مع «تيتو» و«أنديرا غاندي» ـ قطبي عدم الانحياز ـ كما جرت اتصالات أخرى مع بعض الدول الغربية، ومنها ـ بالتأكيد ـ الولايات المتحدة الأمريكية، كانت مصر تحاول أن توقف وصول هذا الحفار، ولقد قالت بوضوح في رسائلها: «إن المنطقة ملتهبة ولا تحتاج إلى المزيد من الوقود؛ لأن مصر لن تسكت حتى ولو أدى الأمر إلى ضرب الحفار بالطيران المصري في البحر الأحمر وقبل وصوله خليج العقبة».

كانت مصر جادة في عزمها، وكان معنى ضرب الحفار بالطيران المصري أن تندلع الحرب من جديد في المنطقة... وجاءت كل الردود، وبلا استثناء،

بأن المساعي الدبلوماسية ـ رغم ضغطها وكثافتها ـ لم تأت بأي نتيجة، وأن إسرائيل مصممة على استئجار الحفار، بل لقد استأجرته فعلًا.

ولقد ظل هذا الحفار، ولأسابيع طويلة، ولا أحد يعرف مكانه على الإطلاق... كانت كل المعلومات التي حصل عليها المصريون في تحركهم العنيف والسريع الذي شمل مناطق شاسعة من بحار العالم وموانيه، تؤكد شيئًا واحدًا؛ أن الحفار موجود بالفعل.

ولكن أين؟!

وهذا ما كان على الرجال أن يعرفوه، أن يمزقوا هذا الستار الكثيف من السرية التي أحاطت به إسرائيل حفارها... وكان الوقت يمضي، ويصبح للدقيقة الواحدة ثمن باهظ.

وهكذا، وجدت المخابرات العامة المصرية نفسها تسابق الزمن وهي كمن تبحث عن إبرة في جبل من القش، فقد يكون الحفار على شواطئ أستراليا، أو آسيا، أو أوربا، أو إفريقيا، أو أمريكا الشمالية أو الجنوبية... كان مطلوبًا منها أن تتعامل مع الحفار قبل أن يعبر مضيق باب المندب، فالحقيقة المؤكدة كانت تقول: إن مصر ستضرب الحفار لو أنه دخل إلى مياه البحر الأحمر مهما كانت النتائج، كانت مصر ستفعل ذلك رغم أنها لم تستكمل بعد استعدادها للجولة التي كانت محتمة مع إسرائيل نتيجة لهذا.

وبدأت واحدة من أغرب وأعظم الجولات، وسجلت المخابرات المصرية انتصارها في عملية تعتبر في هذا العالم الخفي، واحدة من أهم العمليات السرية، ولقد اشتهرت هذه العملية في العالم كله باسم: «عملية الحفار».

صالح مرسي

الفصل الأول
التعامل مع مجهول

معكم عواطفنا... قصائدنا... جنودًا في القتال
يا حارسين الشمس من أصفاد أشباه الرجال
ما فرقتنا الريح، إن نضال أمتكم... نضالي
إن خرَّ منكم فارس، شدت على عنقي حبالي

للشاعر: محمود درويش

من قصيدته: «كردستان»

كان الشتاء في مصر عام ١٩٧٠ قارسًا، انخفضت فيه درجة الحرارة إلى معدل ذكرت الصحف اليومية أنه لم يحدث منذ ثلاثين عامًا... وفي يوم من الأيام الأولى لشهر فبراير من ذلك العام، وقبل منتصف الليل بقليل، كانت شوارع العاصمة المصرية تكاد تخلو من المارة، حتى في تلك المناطق الشعبية التي تعود الناس أن يسهروا فيها حتى أذان الفجر صيفًا وشتاءً... أما في الضواحي، فلقد كانت الشوارع شبه خالية... وفي ضاحية كوبري القبة بالذات ـ التي تتوسط فيما بين القاهرة ومصر الجديدة ـ بدا الشارع المجاور للسور الغربي لقصر القبة في تلك الليلة موحشًا أكثر من غيره من الشوارع، ليس فقط لضآلة الإضاءة فيه، ولا لخلوه من المارة والسيارات تمامًا، ولا حتى لصفير الرياح التي راحت تهب عنيفة باردة من الحقول المترامية في تلك المنطقة... ولكن لأن الشارع لم يكن به مساكن على الإطلاق... لم يكن به سوى هذا المبنى الهائل المحاط بأسوار شددت عليها الحراسة ليلًا ونهارًا، وكان هذا المبنى يبدو من خلف الأسوار كالشبح الجاثم في صمت، يحيط به الظلام كثيفًا، إلا من أضواء خافتة كانت تحاول النفاذ من بضع نوافذ متناثرة هنا وهناك، يخفيها خلف الزجاج ذلك اللون الأزرق الذي طلي به منذ حرب يونيو عام ١٩٦٧، أي منذ ما يقرب من ثلاث سنوات... كان هذا المبنى هو مبنى المخابرات العامة المصرية.

وفي قلب المبنى، كانت ثمة غرفة تشغي بالحركة، وكأنها خلية نحل

شديدة النشاط، رغم أن حركة الرجال فيها كانت نادرة... ذلك أن أجهزة اللاسلكي المتناثرة في المكان على حسب نظام معين، كانت تعمل بلا توقف، وكان الرجال الجالسون أمام هذه الأجهزة صامتين تمامًا... قد يحرك أحدهم مؤشرًا، أو يضبط موجة، أو يستمع في استغراق إلى ذلك الصفير المتقطع المنبعث من الأجهزة، والذي يكون في النهاية رسالة ما.. وبين الحين والحين، كان واحد من الرجال يرفع رأسه نحو الحائط الذي يتصدر المكان، وقد علق عليه عدد كبير من الساعات التي تبين كل ساعة منها التوقيت المحلي في عاصمة من عواصم العالم شرقًا وغربًا.

ولدقائق مرت، كان الأمر يبدو عاديًا للغاية، لولا أن تنبه واحد من هؤلاء الرجال فجأة وكأن تيارًا كهربائيًا قد سرى في جسده، أمسك القلم بيده استعدادًا، وضغط بيسراه على السماعة التي تحيط برأسه وتغطي أذنيه.

كان النداء قد بدأ.

ومع بداية النداء، اختطفت عيناه نظرة من ساعة تبين التوقيت المحلي في الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، كانت الساعة تشير إلى أن التوقيت هناك هو الرابعة والنصف بعد الظهر... وبشكل تلقائي، انحدرت عيناه إلى ساعة يده ـ وهي من نوع مركب وخاص ـ وكانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف مساء بتوقيت القاهرة.

انتهى النداء... وبدأت الرسالة.

كان الرجل يعلم أن هناك من ينتظرها ـ في مكان آخر من الجهاز ـ على أحر من الجمر، ليس لأنها مهمة، فكل الرسائل هنا مهمة وخطيرة، ولكن خبرته الطويلة مع الغموض، كونت لديه حاسة غريبة جعلته قادرًا على أن يفرق بين ما هو هام، وما هو أهم، وما هو أشد أهمية.. وإذا كانت كل الرسائل التي يتلقاها بالشفرة، وإذا كانت كلماتها من نوع «جففنا

البسطرمة وقشرنا البطاطس»، إلا أنها ربما كانت تعني أن رجلًا مات، أو منشأة دمرت، أو وثيقة خطيرة تم الحصول عليها، أو... أو أن إنسانًا قد صعد إلى القمر سرًا.

بعد ثلاث دقائق وعشرين ثانية بالضبط ـ هكذا سجل الرجل في الورقة ذات الطابع الخاص التي يكتب فيها ـ انتهت الرسالة، وكان مرسلها الذي وقع باسم «موريس» قد بدأ يعيدها حتى يؤكد كل كلمة فيها.. وما أن انتهت المراجعة، حتى رفع الرجل السماعة عن أذنيه، وأطفأ الجهاز، وغادر المكان وهو يحمل البرقية في حرص... وكان يبدو في عجلة من أمره.

لم يكن هذا التصرف طبيعيًا في الأحوال العادية، ولكن، ومنذ حوالي شهر، صدرت إليه الأوامر، بأنه بالنسبة لبرقيات بعينها ألا يتحدث في التليفون، وألا يرسل البرقية مع أحد، وأن يسلمها يدًا بيد.



بعد حوالي خمس وعشرين دقيقة، وكانت الساعة تقترب حثيثًا من منتصف الليل، دق جرس التليفون في مكتب أمين هويدي مدير المخابرات العامة المصرية في ذلك الوقت، فامتدت يده بسرعة ليرفع السماعة، كان هو الآخر، رغم استغراقه في العمل، وانكبابه على بعض الأوراق يبدو متوترًا كمن ينتظر خبرًا هامًّا.

«آلو».

قالها في اختصار، فسرت إلى أذنه بضع كلمات عبر السماعة عرف صوت صاحبها فورًا، وبدا وكأن كل حواسه قد تنبهت فجأة، هم بالسؤال في لهفة، غير أنه هتف:

«أنا في انتظارك».

هكذا كان الاتفاق بينه وبين «طاهر رسمي»، ألا يتم بينهما حوار حول «الموضوع» عبر التليفون، حتى ولو كان التليفون الداخلي للجهاز نفسه، كانت السرية المطلقة مطلوبة إلى أقصى حد، ذلك أن العملية تبدو شديدة التعقيد، ومنذ أن ظهرت إلى حيز الوجود، وكانت تحتاج إلى قدر هائل من الكتمان... وحتى الكلمات التي كانا يتبادلانها في التليفون ـ بخصوص العملية ـ كانت شفرية، ولذلك، فلقد كانت الكلمات التي سمعها المدير تقول: «الوقت اتأخر يا فندم، وسيادتك لسه في المكتب، وأنا عندي لك فنجان قهوة فرنساوي سخنة». وكان هذا يعني أنه يريد أن يراه قبل أن يغادر الجهاز، وأنه يحمل له خبرًا ساخنًا، أي هامًّا.

أعاد أمين هويدي السماعة، ونهض من مكانه في نشاط مفاجئ، خطا نحو باب غرفته، وكأنه يتعجل وصول الرجل، ولأنه يعلم يقينًا أن طاهر سوف يغادر المبنى الذي يقيم فيه، ثم يعبر تلك الحديقة الخلفية، ويدور حول المبنى الرئيسي، ثم يصعد على السلم، ولن يستعمل المصعد، وأن هذا كله سوف يستغرق من ثماني إلى عشر دقائق... لأنه يعلم هذا، فلقد توقف في منتصف الغرفة وسط مقاعد الصالون الجلدي الفاخر الذي أثث به مكتب مدير المخابرات المصرية... ورغم التدفئة الموجودة في المكتب؛ فلقد أحس بقشعريرة تسري في جسده وهو يرفع عينيه إلى خريطة للكرة الأرضية ويثبتهما فوق نقطة بذاتها على الشاطئ الشرقي لشمال أمريكا الشمالية.

تسمَّر في مكانه، وثبت عينيه على تلك النقطة في تركيز من يريد اختراق المكان والزمان معًا، وأن ينظر بعين الواقع إلى تلك النقطة بالتحديد... وكانت التقاء نهر سانت لورنس بالمحيط الأطلنطي في شرق كندا.

* * *

كان أمين هويدي واحدًا من الضباط الأحرار عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومنذ شبابه المبكر كان معروفًا عنه وسط زملائه، أنه شاب ممتلئ بالحماس، شديد المثالية، عاشق للقراءة، شديد الحب والثقة والإيمان بجمال عبد الناصر.

ولم يكن عمله في المخابرات جديدًا عليه، فلقد كان ذات يوم رجلًا من رجالها، ترقى في سلمها حتى وصل إلى واحد من مناصبها شديدة الأهمية... ثم ترك الجهاز إلى مهام أخرى أسندت إليه، منها أنه كان وزيرًا للإعلام في فترة، وفي فترة أخرى ـ بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ـ كان وزيرًا للحربية، وفي نفس الوقت مشرفًا على جهاز المخابرات المصري.

لذلك، فعندما عاد إلى الجهاز كمدير له، كان التعامل بينه وبين الرجال سلسًا.. كان كالتعامل بين فريق متجانس الأفكار، يفهم كل فرد فيه ما يريده الآخرون دون كثير من جدل أو حوار... كانوا يعرفونه كما كان يعرفهم، بل إن بعضهم كان رفيق أيام وليال وسنوات طويلة من العمل الدائب والشاق في بناء هذا الجهاز.

مضت الدقائق بطيئة، لكن المدير سمع ـ أخيرًا ـ دقتين خافتتين على الباب فالتفت، وفتح الباب وظهر فيه «طاهر رسمي».

كان طاهر يبدو طويلًا نحيلًا كشجرة السنط السامقة التي تحدد ملامح القرية التي ولد فيها، ورغم أنه يدخن بشراهة، ويشعل السيجارة من الأخرى خاصة إذا كان مستغرقًا في عمل ما، فإن جسده كان رياضيًا... كانت ملامحه متسقة، وصوته خافتًا، وعلى شفتيه ابتسامة من يخطو في طريق يعرف كل شبر فيه.

اندفع هويدي ليلتقي بطاهر متسائلًا:

ـ إيه الأخبار يا طاهر؟

ـ الحفار عدى على بورت ألفريد، وبعدها سان سيمون في شمال كندا... وزمانه دلوقت بمعدل السرعة اللي كان ماشي بيها، طلع المحيط.

ـ إمتى الكلام ده؟

ـ النهارده الساعة عشرة الصبح.

ـ إنت متأكد يا طاهر؟

ابتسم طاهر رسمي، فلقد كان يعرف أن هذا هو أسلوب المدير في المناقشة... ومن أين له أن يتأكد إلا من خلال برقية أو رسالة وصلت إليه عبر آلاف الأميال، لوح بالبرقية التي كانت شفرتها قد حُلت منذ دقائق، وقال:

ـ التعليمات اللي عند موريس، إنه يتابع الحفار ثانية بثانية لحد ما يطلع المحيط قدام عينه.

استدار أمين عائدًا إلى مكتبه وقد بدا متفجرًا بالحماس وهو يغمغم:

ـ وحاتعمل إيه في الوقت؟

ـ حاسبقه.

مال هويدي فوق المكتب هاتفًا:

ـ لازم تسبقه يا طاهر، لازم تسبقه.

قال هذا وهو يستدير نحو جهاز تليفون ذي لون خاص، ورفع السماعة... أومأ طاهر نحو التليفون متسائلًا:

ـ حاتكلم الراجل؟

ـ ضروري.

ـ إحنا بقينا نص الليل.

ـ هو اللي عاوز كده.

ـ طب عن إذنك.

في حرارة هتف هويدي:

ـ ربنا معاك يا طاهر... ربنا معاكم كلكم.

* * *

غادر طاهر رسمي الغرفة فساد الصمت، وظلت السماعة معلقة في يد المدير وقد سرح ببصره وبدا وكأنه غرق في محيط بلا نهاية من الأفكار... كان المدير ـ بالطبع ـ يعلم معنى هذه البرقية التي وصلت منذ نصف ساعة على الأكثر، ولقد كان وصولها يعني شيئًا واحدًا، أن كل الجهود السياسية والدبلوماسية التي بذلتها مصر ـ طوال ثلاثة أشهر مضت ـ قد باءت جميعها بالفشل الذريع، وأن الحركة سوف تبدأ الآن محمومة سريعة، وأن الرجال ـ منذ هذه اللحظة ـ سوف يبدؤون سباقًا مروعًا مع الزمن، وأن ثمة جيشًا صغيرًا من الرجال والنساء والشباب والفتيات من جميع الأعمار، ومن جنسيات شتى ولا يعرف أحدهم الآخر، سوف يتحركون من الآن حركة سريعة ونشطة وشديدة الدقة والخطر.

* * *

ومنذ ثلاثة أشهر ـ قبل هذا اليوم ـ لم تكن هناك في حياة مدير المخابرات المصرية، ولا في الحياة الجهاز كله... مشكلة اسمها «الحفار».

ولقد حدث في الأيام الأولى من شهر نوفمبر عام ١٩٦٩، أن طيرت

وكالات الأنباء خبرًا عن عزم إسرائيل على التنقيب عن البترول في خليج السويس... كانت حرب الاستنزاف قد وصلت إلى ذروة خطيرة حقًا، وسببت دوريات الفدائيين التي كانت تتسلل إلى سيناء عبر قناة السويس إزعاجًا شديدًا للإسرائيليين... وظن البعض في البداية أن الخبر من الممكن أن يكون نوعًا من بالونات الاختبار أو حرب الأعصاب... لولا أن وكالات الأنباء عادت ـ في الأسبوع نفسه ـ تطير خبرًا آخر يقول: «إن إسرائيل استأجرت من أجل التنقيب عن البترول في سيناء حفارًا سيبدأ عمله في القريب».

تلقت القاهرة الخبر، وبدأت ـ على الفور ـ حركة سريعة في كل اتجاه.

كان واضحًا أشد ما يكون الوضوح، أن إسرائيل تريد أن تفرغ حرب الاستنزاف من محتواها، كانت تريد أن تقول للعالم: إن الأوضاع في سيناء مستقرة، وإنها إذا كانت قد استأجرت حفارًا، فمعنى هذا أنها ستنقب عن البترول عند الشواطئ، وإذا كان الشاطئ الوحيد الصالح لهذا النوع من التنقيب هو شاطئ سيناء في خليج السويس، فإن معنى هذا ـ بصرف النظر عن المشاكل السياسية أو الاقتصادية ـ أن التنقيب سيتم أمام أعين المصريين دون أن يستطيعوا التعرض للحفار... كان الهدف الرئيسي هو إذلال مصر أمام العالم أجمع.

ولم يكن ممكنًا أن تسكت مصر... كان لا بد لها أن تفعل شيئًا.

ولكن، ما الذي يمكنها أن تفعله ـ عدا الاتصالات الدبلوماسية ـ والحفار بعيد عنها؟ بل هو غير موجود، فلا أحد يعرف عنه شيئًا، ولم يكن لدى مصر أي معلومات عنه، حتى اسمه... فأين هو هذا الحفار؟ في أي مياه يرسو؟ ما حجمه؟ ما الشركة التي صنعته؟ والشركة التي تملكه؟ والشركة التي استأجرته؟ أين بني؟ ما هي قوة احتماله؟ وفي أي الأجواء يمكنه العمل؟

وعلى أي عمق يستطيع التنقيب؟ وعمق المياه التي يعمل بها؟ وكم يومًا يستطيع أن يبقى بعيدًا عن اليابسة؟ كم عدد رجاله؟ ما هي جنسياتهم؟ و...و... ثم إن لكل حفارة قاطرة ـ سفينة صغيرة لكنها قوية ـ تسحبه من ميناء إلى ميناء أو من شاطئ إلى شاطئ، فأين هي القاطرة التي ستسحبه إلى البحر الأحمر؟ ما جنسيتها وقوتها وحجم خزانات وقودها وعدد رجالها وقائدها ومهندسها...و... و... وعشرات الأسئلة التي طرحت نفسها على الساحة بغتة... ولم يكن هناك سوى الظلام الدامس.

* * *

مع الحركة الدبلوماسية المصرية التي نشطت لتشمل جزءًا كبيرًا من العالم المؤثر في الأحداث في تلك الأيام، فلقد كانت هناك حركة أخرى خفية، حركة بدأت منذ طيرت وكالات الأنباء خبرها الأول... وكان مطلوبًا ـ بالقطع ـ ألا يشعر أحد بهذه الحركة على الإطلاق.

باختصار... كان مطلوبًا من الرجال، في جهاز المخابرات المصري أن يعثروا على الحفار... ليس فقط لإمكانية السيطرة على الموقف بشكل ما، ولكن... لتدعيم الحركة الدبلوماسية نفسها...فلقد كان الأمر يبدو مضحكًا ومصر تتحدث عن حفار لا وجود له.

ثم... كان مطلوبًا منهم ـ إذا ما فشلت الجهود الدبلوماسية ـ أن يتعاملوا معه قبل أن يدخل البحر الأحمر، أي... أن يدمروه، أو على الأقل، يجعلوا منه شيئًا غير صالح للعمل نهائيًا.

تلك كانت الأيام...

طرحت مصر على الساحة العالمية سؤالًا:

«إن الموقف في الشرق الأوسط متفجر، واستجلاب إسرائيل للحفار

سوف يزيد الأمر اشتعالًا... ذلك أن مصر لن تسكت، بل ستضرب الحفار بالطيران... فهل العالم على استعداد لمواجهة موقف كهذا، وما قد يترتب عليه من أحداث أو ردود أفعال؟».

وراحت الأيام تمضي بلا نتائج.

كانت إسرائيل قد أسدلت ستارًا شديد الكثافة على مكان الحفار، أو أية معلومات قد تؤدي إليه... وفي تلك الأيام الأولى التي بدأت فيها تلك الحرب الخفية، لم تكن هناك سوى معلومة واحدة فقط، استطاع الرجال أن يحصلوا عليها، وأن يضعوها على مكتب الرئيس، في أقل من ثمان وأربعين ساعة... هذه المعلومة هي: إن إسرائيل جادة في الأمر ومصممة عليه.

وبدأت الأسئلة تطرح نفسها فيما يسمى بـ «تقدير الموقف».

وكان السؤال الأول الذي طرح نفسه هو: إذا كانت إسرائيل قد أعلنت عن استئجارها لهذا الحفار، وأحاطت هذا الإعلان بضجة إعلامية كبيرة شملت العالم كله... فلماذا تخفيه إذن؟!

إذا جاء الرد بأنها تخفيه خوفًا من الاعتداء عليه، فكيف ستخفيه إذا ما دخل إلى مياه البحر الأحمر؟!... ثم إنها تستطيع أن تحيطه بالحماية وأن تشدد عليه ومن حوله الحراسة.

ثم...

لقد أعلنت مصر ـ وكانت إسرائيل تعرف أنها جادة في إعلانها هذا ـ أنها سوف تضرب الحفار بسلاح الطيران.. ألا يصبح منطقيًا إذن، أن تخفي الحفار، وتسدل عليه ومن حوله كل هذه السرية، حتى يظهر فجأة في مياه البحر الأحمر؟!

وإذا كان هذا صحيحًا... فما الذي تبتغيه إسرائيل من وراء ذلك؟!

هل كانت إسرائيل تريد أن يضرب الحفار بالطيران المصري، بالفعل، في البحر الأحمر؟!

ولماذا؟!

كانت هناك تساؤلات عديدة وشتى... لكن الإجابة عن أي من هذه الأسئلة كان يستلزم العثور على الحفار أولًا، ومعرفة كل شيء عنه.

إن المعرفة ـ في هذا العالم الخفي ـ هي السلاح المضمون الفعالية، ورب ملاحظة قد تبدو للإنسان العادي بسيطة ولا تستحق الانتباه، تكون هي مفتاح الحل كله عند هؤلاء الرجال.

بعد بضعة أيام أصبح واضحًا أمام الرجال في المخابرات المصرية أن إسرائيل تخفي الحفار في مكان غريب، مكان لا يخطر لأحد على بال... وهكذا شهدت الساحة العالمية تحركًا شمل الكرة الأرضية من أقصى الشرق وحتى أقصى الغرب، وراح الرجال يكثفون البحث في تلك الأماكن التي لا تخطر ببال أحد... كان هذا البحث سريًا بالطبع، وكانت الحركة قد اندفعت إلى كل موانئ الدنيا، مهما صغر شأن الميناء، تبحث عن «حفار ما» تريد إسرائيل أن تستأجره للبحث عن البترول في خليج السويس وكان لا بد ـ قبل هذا ـ أن تُسند «العملية» برمتها إلى رجل ذي مواصفات خاصة، رجل تكون لديه المقدرة على السير في الشوط حتى نهايته مهما كانت هذه النهاية تبدو مخيفة... وعندما وقع الاختيار على «طاهر رسمي» هذا الرجل الذي حمل إلى المدير خبر خروج الحفار إلى المحيط ـ كان عليه بدوره أن يختار اثنين لمعاونته... واحدًا للمعلومات، والثاني للتنفيذ، ولم يكن أمام طاهر رسمي سوى: «عزت بلال» و«نديم هاشم».

كان عزت صديقا لطاهر، وكان مشهورًا بين زملائه باسم «الكمبيوتر»... ذلك أنه من المستحيل أن تمر عليه كلمة أو حادثة أو

معلومة أو وجه، وينساه أو ينساها... بل إن البعض كان يقول مازحًا: إنه لا يستطيع أن ينسى حتى ولو أراد... وأصبح عزت مسؤولًا عن المعلومات.

أما «نديم هاشم»، أو نديم قلب الأسد كما كانوا ينادونه، فلقد كان هو الرجل المطلوب لمثل هذه المخاطرة الخيالية، وإذا ما تأزمت هذه الأمور، ووصل الأمر إلى ذروته، فلسوف يصبح الجهاز في حاجة إلى «قلب الأسد» فعلًا، رجل شديد الشجاعة، بارد الأعصاب في أشد الأوقات حرجًا وكان هذا الرجل هو «نديم هاشم».

وخلال الأسبوع الأول من بداية الحركة، كان أمام الرجال الثلاثة كشف بعدد هائل من الحفارات المتناثرة في جميع بقاع الأرض، ولم يكن من بينها حفار استأجرته إسرائيل، أو حتى الشبهات ولو من بعيد حول أن إسرائيل تريد استئجاره.

ووسط أكوام البرقيات التي وصلت من كل الدنيا، كانت ثمة برقية موقعة باسم «موريس»، وكانت البرقية آتية من كندا.

وكان نديم هاشم بالذات قد التقى من قبل بموريس في رحلة من رحلاته السرية التي كانت تأخذه ـ دائمًا ـ بعيدًا عن بيته وولديه، التقى نديم بموريس لساعات قليلة، كانت كافية لأن يصدر عليه حكمًا بأنه رجل دقيق وصادق، وأنه يعتبر ثروة.

أمسك الرجال الثلاثة بالبرقية وراحوا يتبادلونها فيما بينهم، لم يكن فيها شيء غريب أو يثير الانتباه أو حتى الفضول... كان موريس، هذا اللبناني الأصل الذي ولد في كندا وأصبح مليونيرًا يملك القصور والشركات، وأسطولًا من السيارات الفاخرة، والذي يؤمن بالقومية العربية إلى حد الهوس، إلى حد تعريض نفسه ـ أحيانًا ـ لأخطار حقيقية، كان موريس هذا قد أرسل معلومات عن حفار اسمه «كينتنج» .

كانت المعلومات الموجودة عن «كينتنج» معلومات عادية، مثل عشرات المعلومات التي كانت تحت أيدي الرجال الآن، والمرسلة من كل أنحاء الدنيا، عن عشرات الحفارات التي تعمل هنا وهناك... كانت هناك معلومات عن حجمه وقوته وصواريه وخزاناته وبريمته وقدراته وقوة آلاته وارتفاعه وطوله وعرضه، وعمق غاطسه تحت الماء، وعدد الرجال عليه، وكان الحفار يرسو في بحيرة اسمها «إيري»... و... والأهم من هذا كله، كانت الرسالة تقول: إن موريس استطاع تصوير الحفار، وإن الصور في طريقها الآن إلى مصر.

لم يكن هناك ما يشير من بعيد أو قريب، إلى أن إسرائيل سوف تستأجر هذا الحفار، بل على العكس تمامًا، كان الحفار «كينتنج» قد أنتج لحساب قسم «ليفيننج» للمياه الساحلية بشركة «بتروليا» ـ وهي شركة كندية ـ وكان الغرض الأساسي من إنتاجه، هو العمل على سواحل كندا... وكان الحفار يرسو على شاطئ كندي.

فما هو الشيء الغريب الذي استوقف الرجال إذن عند هذا الحفار بالذات؟!

لا شيء... لا شيء على الإطلاق سوى هذا الإحساس الغامض الذي ينتاب المحترفين في مهنة ما، بأن ثمة شيئا غامضًا في موضوع يبدو شديد الوضوح.

سأل أحد الرجال فجأة: «فين بحيرة إيري دي؟».

لم يكن أحدهم يعرف موقعها وامتدت يد «طاهر رسمي» إلى «أطلس» وراح يقلب صفحاته ثم توقف أمام خريطة لأمريكا الشمالية... فماذا وجد؟

* * *

يتكون الجزء الشرقي من الحدود الأمريكية الكندية من خمس

بحيرات، هي من الغرب إلى الشرق: بحيرة «سوبيريور» وبحيرة «ميتشيجان» وبحيرة «هورن»، ثم بحيرة صغيرة ملتوية من الجنوب إلى الشمال هي بحيرة «إيري» وتأتي في شمالها البحيرة الخامسة وهي بحيرة «أونتاريو» الشهيرة، والتي تشكل شلالات نياجرا ذات الشهرة العالمية، حدا فاصلًا بين الدولتين: الولايات المتحدة الأمريكية في الجنوب، وكندا في الشمال.

كان الحفار الذي تحدث عنه «موريس» في بحيرة «إيري»... وبدت بحيرة «إيري» أمام الرجال ذات طابع خاص، فهي محاطة بولاية كندية واحدة شمالًا، وأربع ولايات أمريكية جنوبًا وشرقًا وغربًا... هذه الولايات الأربع هي من الشرق إلى الغرب: ولاية نيويورك، ثم ولاية بنسلفانيا، وبعدها ولاية أوهايو، ثم ولاية ميتشيجان.

بدت البحيرة الصغيرة شبه محاصرة، وكان لا بد ـ على الفور ـ من استبعاد هذا الحفار، فإن طريقه للخروج من بحيرة «إيري» طريق صعب، ولكي يخرج إلى المحيط، كان عليه أن يمر بقناة تصل بحيرة «إيري» ببحيرة أونتاريو، ثم يعبر بحيرة أونتاريو من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، ليدخل بعد ذلك فيما يسمى بالـ «سي واي» أي طريق البحر، وهو قناة صناعية شديدة الضيق والخطر، في منتصفها هويس ينقل السفن من مستوى بحيرة أونتاريو المنخفض إلى مستوى نهر سانت لورانس مارا بمونتريال وكيوبيك سيتي حتى أقصى شمال النهر، عند التقائه.

برغم كل هذه الصعوبات، التي تبدو غير منطقية، ظل الرجال يفكرون في هذا الحفار كينتنج حتى إذا ما سأل سائل منهم: «إحنا مش قلنا إسرائيل مخبياه في حته ما تخطرش على بال حد؟ مين يخطر على باله بحيرة «إيري» دي، ومين يعرفها؟».. لم يرد أحد من الرجلين على السائل، فلكي يقطع «طاهر رسمي» الشك باليقين، أرسل في اليوم نفسه،

برقية قطعت أجواز الفضاء إلى رجل يعيش في إحدى الولايات المحيطة ببحيرة «إيري»، في ولاية ميتشيجان بالذات، بل إنه يعيش في عاصمتها «ديترويت» بالتحديد، تلك المدينة التي اشتهرت بصناعة السيارات.

وكان مطلوبًا من الرجل، أن يبحث في بحيرة «إيري» عن حفار اسمه «كينتنج»، وأن يعرف كل شيء عن «حركة» الحفار في الأيام والأسابيع القادمة.

وهكذا بدأت واحدة من المغامرات الغريبة في هذا العالم الخفي.

* * *

في بداية الأسبوع الثاني من شهر نوفمبر عام ١٩٦٩، وصل إلى مدينة «بافلو» الأمريكية والشديدة القرب من شلالات نياجرا، شاب وفتاة.

كان الشاب يبدو رياضي الجسد، أسمر اللون تلك السمرة البرونزية التي تفتن عادة الفتيات الأمريكيات، وكان وسيمًا أنيقًا، وبدا لكل من رآه أنه ثري، وأن ثراءه فاحش. أما لهجته، فكانت توحي بأنه مكسيكي أو واحد من أبناء أمريكا الجنوبية، برغم أوراقه التي تقول إنه أمريكي الجنسية.

في دفتر الفندق، سجل الفتى اسمه «ألفريد باهر».

وسجلت الفتاة اسمها «مسز باهر».

وأيقن الجميع أنهما عروسان يقضيان أيامًا من شهر العسل، لذلك، فلقد احتفى بهما موظفو الفندق، كما احتفت بهما إدارته...أما النزلاء فلقد صفقوا تحية للعروسين، عندما نزلا لأول مرة ـ ليلة وصولهما ـ إلى حلبة الرقص، وظلا يرقصان حتى مطلع النهار.

وأصبح مستر ومسز باهر «فاسوخة» الفندق، وكان واضحًا أن هذا قد أسعدهما للغاية.. ولقد كانا في شوق إلى الحياة، ففي الصباح كانا يغادران الفندق، ولا يعودان إليه إلا مع الغروب، ولقد شوهدا ذات مرة يستأجران لنشا ويندفعان به بأقصى سرعة، نحو جنوب البحيرة، وشوهدا مرة ثانية وهما يبحران باللنش نحو الشمال حيث مساقط مياه شلالات نياجرا، والمناظر الخلابة هناك خاصة على الجانب الكندي. ثم وقع حادث غريب. حادث لفت أنظار الجميع بلا استثناء وأصابهم بالدهشة البالغة.

ذلك أن الفتى، فجأة وقع في حب سيدة تكبره سنًا... ليس هذا فقط، بل إنها كانت زوجة لرجل آخر؛ هو قبطان «ڤان كيرك» قائد القاطرة الهولندية التي ترسو في الميناء منذ أسابيع.

ولقد تعود القبطان «ڤان كيرك» منذ وصوله إلى «بافلو» أن يقضي المساء في هذا الفندق، يشرب بشراهة رجال البحر إذا ما واجهوا عاصفة عاتية، كان يظل طوال الليل يشرب، ويراقص أية فتاة وأية سيدة في المكان، دون أن يطلب زوجته مرة للرقص.

وكانت مسز كيرك زوجة القبطان، تجلس دائمًا في صمت، تبدو شديدة الحزن، شديدة الإحساس بالوحدة، ترشف من كأسها بين الحين والحين دون أن تشربه، وتتلفت حولها، إذا ما تصرف زوجها تصرفًا لا يليق، وهي تواجه الجميع بابتسامة اعتذار رقيقة.

ولقد شهد العروسان «باهر» هذا الذي يحدث شأنهما شأن كل النزلاء.. وكان يبدو عليهما الإشفاق على زوجة القبطان المسكينة، وبين الحين والحين كانا يومئان لها إيماءة خفيفة مشجعة... ولقد قال بعض شهود الحادث فيما بعد إنهم واثقون من أن مسز «باهر» ـ العروس ـ هي التي دفعت زوجها دفعًا كي يراقص «مسز كيرك»، وكان طبيعيًا أن تتهلل السيدة المسكينة عندما طلبها هذا الشاب الوسيم الذي يصغرها

على الأقل بخمسة أعوام للرقص، لكنها قبل أن تنهض، أمسكت بكأسها ودفعته مرة واحدة إلى جوفها... وعندما توسطا الحلبة، كانت «مسز باهر» تبدو سعيدة كل السعادة، لأنها زوجة لرجل أدخل السعادة على قلب سيدة بائسة.

لكن سعادة العروسة لم تدم، ذلك أن الرقصة أصبحت رقصتين وثلاثًا، وأن الرقص كانت تتخلله همسات وضحكات راحت تزغرد في المكان عالية معلنة عن نفسها، كانت مسز كيرك تبدو في ذروة السعادة، وكان «مستر باهر» يبدو مفتونًا.

ولمح الحاضرون بوادر أزمة في الطريق، فلقد دعا مستر باهر السيدة كيرك والقبطان إلى مائدته، وبدا الانزعاج واضحًا تمامًا على وجه «مسز باهر»، بل إن التعبير على وجهها كان يوحي بالغضب، وكان يكفي أن يضع «مستر باهر» أمام القبطان زجاجة كاملة من خمر فاخر، كي ينسى الرجل كل شيء في الدنيا حتى زوجته.

انفجرت الأزمة عندما نهضت العروس غاضبة، اختطفت حقيبة يدها في عنف، وغادرت المكان في خطوات تشي بالغضب الجامح، تركت القبطان وحده على المائدة، فلقد كان زوجها قد عاد يراقص مسز كيرك من جديد... وظن البعض أن الشاب سوف يندفع خلف زوجته، لكنه لم يفعل... بل بدا وكأن الأمر كله لا يعنيه.

في الصباح الباكر، شاهد موظفو الفندق السيدة باهر وهي تطلب سيارة أجرة، ثم تنصرف وقد أخذت معها حقيبة صغيرة... ولكن بالرغم من أنها كانت ترتدي نظارة شمسية داكنة اللون، فإن الكثيرين شاهدوا دموعها تنهمر من تحت زجاج النظارة.

وليومين آخرين... شوهد «مستر باهر» مع مسز كيرك في كل مكان، كانا يخرجان معًا ويعودان معًا...وكان القبطان يشرب ما حلا له من خمر، ثم يوقع لحساب «مستر باهر».

❊ ❊ ❊

بعد ثلاثة أيام تسلم الرجال في القاهرة رسالة من رجل ميتشيجان تقول:

«إن الحفار «كينتنج» يرسو الآن في مياه أمريكية، وإن أحدًا لا يعرف متى سيرحل بالضبط، لكن المؤكد أن القاطرة الهولندية «ڇاكوب ڤان هيمو كيراك» التي يقودها القبطان «ڤان كيرك» هي التي ستسحب الحفار من بحيرة «إيري»، إلى ميناء ما في غرب إفريقيا. القبطان لا يعرف موعد الإبحار. ولا يعرف شيئا آخر... الحفار صُمم فعلًا من أجل العمل والتنقيب في المياه الكندية، ولكن بعد أن تمت صناعته اكتشفوا أنه لا يصلح للعمل في هذه المياه بالذات».

أضافت البرقية ـ دون شك ـ الكثير من الضوء على هذا الحفار الغريب «كينتنج»، ولقد مضت أيام قليلة بعد ذلك.بدا وكأن الساحة قد هدأت نسبيًا، غير أن هذا كان هو الهدوء الذي يسبق الحركة السريعة المتلاحقة.

ففي يوم ١٣ نوفمبر عام ١٩٦٩ ـ بعد عشرة أيام تقريبًا من إذاعة أول خبر عن الحفار ـ أذاعت الكويت، نقلًا عن وكالة «الأسوشييتدبرس» خبرًا يقول:

«إن الولايات المتحدة الأمريكية حاولت إقناع إسرائيل بالتخلي عن خططها للتنقيب عن البترول في خليج السويس، غير أن المساعي الأمريكية توقفت بعد أن طلبت إسرائيل من الولايات المتحدة ذلك».

هل كان هذا خبرًا أم رسالة؟

كان الخبر يعني ـ في المقام الأول ـ أنه بالرغم من العلاقات الدبلوماسية المقطوعة بين مصر والولايات المتحدة، فإن «اتصالًا» ما قد تم بين الدولتين.. وكانت الرسالة تقول: إن الولايات المتحدة لن تصنع شيئًا.

هكذا بوضوح ودون لف أو دوران.

ولزمت مصر الصمت أمام هذا التصريح.

لزمت الصمت لأن الخيوط كانت قد بدأت تتجمع في أيدي الرجال، ولا أحد يستطيع أن يعرف ما الذي كان يدور في مكتب «طاهر رسمي» الجديد، في أحد مباني جهاز المخابرات المصري، والذي لم يدخله أحد سوى عزت ونديم، ولا أحد يستطيع أن يعرف كيف تجمعت الخيوط في النهاية كاملة، وأصبح للمعلومات قوة ضغط خفية.

لزمت مصر الصمت، فلزم الآخرون الصمت لستة أيام تالية.

ففي يوم ١٩ نوفمبر ١٩٦٩، كتبت جريدة «ديلي إكسبريس» اللندنية تقول:

«إن هناك أزمة تهدد مصالح بريطانيا في الشرق الأوسط، وإن سبب الأزمة هو اتفاق إحدى الشركات التي مقرها لندن مع إسرائيل للتنقيب عن البترول في سيناء... وإن العرب يشعرون أن قبول بريطانيا لذلك معناه قبولها لاحتلال إسرائيل للأراضي العربية».

برغم أننا لا نستطيع أن نجزم بما حدث بالضبط فإن هذا الخبر يؤكد أمرين:

الأول: أن الاتصالات الدبلوماسية المصرية بدأت تجني بعض

الثمار، فأن تنشر جريدة كـ«الديلي إكسبريس» أن هناك أزمة تهدد المصالح البريطانية في الشرق الأوسط، فلقد كان هذا يعني أن «العرب» لن يسكتوا، وليس مصر وحدها.

أما الأمر الثاني فهو: أن «الآخرين» قد أيقنوا الآن أن المصريين قد توصلوا إلي «شيء ما» عن الحفار، بدليل أن الخبر حدد مقر الشركة التي ستستغل الحفار وهو: لندن أو على الأقل، أصبحت الشركة معروفة لدى الجميع.

وإذا كان المصريون حريصين على أن تظل حركتهم وما يصلهم من معلومات في سرية كاملة... فمن الذي سرب إلى «الآخرين» معلومة أن المصريين قد عرفوا شيئًا؟!

هل هي المخابرات المصرية نفسها؟!

وإذا كان الأمر كذلك... فلماذا فعلت ذلك؟!

أم أنه عميل مزدوج؟!

ومن هو هذا العميل؟!

أسئلة تطرح نفسها ـ بالضرورة ـ حتى ولو لم نجد لها جوابًا.

لكن الغريب في الأمر، أنه بالرغم مما نشرته ديلي إكسبريس، فلقد لزمت مصر الصمت، أيضًا.. لم يعلق مسؤول مصري على الخبر، ولم تكتب عنه الجريدة، ولم يذكره أحد وكأنه لم يكن، وساد الصمت هذه المرة لخمسة أيام أخرى... ثم حدثت مفاجأة.

ففي يوم ٢٤ نوفمبر صدرت ثلاثة تصريحات من ثلاث جهات مختلفة...

كان التصريح الأول للمتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية الكندية.

وكان التصريح الثاني للمتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية البريطانية.

أما التصريح الثالث فلقد أذاعته وكالة «الأسوشييتدبرس» على لسان المستر «چون كينج».

فمن هو المستر چون كينج هذا؟

المستر «چون كينج» هو رئيس شركة «كينج ريسورس» الأمريكية.

وما علاقة هذا بالحفار؟

إذن، فلنقرأ التصريح:

«إن إسرائيل مهتمة بموارد البترول والغاز مثل أي دولة في الشرق الأوسط. وإن شركته ـ شركة مستر كينج الأمريكي ـ قد قصرت نشاطها في إسرائيل على الدراسات الجيولوجية عن طريق أحد فروعها في لندن، وهي شركة «ميدبار»، أما عمليات التنقيب نفسها، فلسوف تقوم بها شركة كينج ليمتد الكبرى».

خرج الآن إلى الضوء ما كان خافيًا طوال أسابيع، وطرح علانية اسم الشركة الإنجليزية التي ستقوم بالتنقيب، وهي شركة «ميدبار» كما طرح اسم الشركة «الأم» وهي شركة «كينج ريسورس» الأمريكية.

كانت النقاط توضع فوق الحروف لتوضح الهيكل الذكي للعملية برمتها... وقد نستطيع أن نستنتج من تصريح مستر كينج، أنه لم يعد هناك ما يحرص على إخفائه، وكان معنى هذا أن المصريين كانوا يعرفون كل شيء.

ولكن.. لماذا أدلى مستر «چون كينج» بهذا التصريح أصلًا، ما الذي دفعه إلى هذا؟!... إنه بالقطع لم يكن متطوعًا بطرح المعلومات

التي حرصت إسرائيل ـ ومعها شركته ـ على إبقائها طي الكتمان طوال الأسابيع الماضية.

غير أننا من الممكن أن نخمن الدافع إذا ما قرأنا تصريح المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية الكندية... والذي قال فيه:

«إن مصر لم تتحدث مع كندا بشأن اشتراكها مع إسرائيل في التنقيب عن البترول، ولكن كندا تدرك أن إحدى شركاتها، وهي شركة «كينتنج»، قد قامت بتأجير معدات حفر لشركة «ميدبار» البريطانية، لاستغلالها للتنقيب عن البترول في أماكن مختلفة من العالم».

كانت كندا تبرر موقفها. كانت تتنصل من أي تَبِعَة.

لكن المصريين ظلوا صامتين.

أما التصريح الثالث الذي أدلى به المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية البريطانية، فلقد أذاعته محطة الـ«بي. بي.سي» ... قال المتحدث:

«أثبت التحقيق مع شركة «ميدبار» أنها تتبع شركة أمريكية، وهناك تحريات لمعرفة أصل هذه الشركة وماضيها».

هكذا اكتملت الصورة، وأصبح اللعب «على المكشوف» كما يقولون.. ولقد قالت الخارجية البريطانية إنها لا تزال تتحرى، بينما مصر كانت قد انتهت من تحرياتها، وأصبحت كل الحقائق في يدها..

فماذا وجدت مصر؟

ما الذي عثر عليه الرجال؟

ما الذي اكتشفوه؟

* * *

لقد اكتشف الرجال أنهم أمام أخطبوط...

اكتشفوا أن إسرائيل لعبت اللعبة ببراعة وذكاء لا بد من الاعتراف بهما.

اكتشفوا أن على مصر ـ إذا أرادت التعرض للحفار ـ أن تواجه خمس دول مرة واحدة، اكتشفوا أن الحفار: كندي. إنجليزي. أمريكي. هولندي... و... إسرائيلي.

فكيف؟

كان الحفار إنجليزيًّا، لأن شركة «ميدبار» التي ستقوم باستغلال الحفار، مقرها لندن.

وكان أمريكيا لأن «ميدبار» لم تكن سوى فرع من فروع شركة «كينج ريسورس» وهي شركة أمريكية مقرها مدينة «دنفر» بولاية كولورادو.

وكان الحفار أيضًا كنديًّا بالجنسية، فلقد قامت ببنائه شركة «ديفن» لبناء السفن، وهو مصمم للحفر على عمق عشرة آلاف قدم في مياه عمقها ١٥٠ قدمًا، وقد صنع الحفار لحساب قسم«ليفيننج» للمياه الساحلية بشركة «بتروليا» الكندية كما ذكرنا.

وكان الحفار في النهاية هولنديًا، لأن القاطرة التي استؤجرت لسحبه، والتي كان يتولى قيادتها كابتن «ڤان كيرك» كانت هولندية، واسمها: «چاكوب ڤان هيمو كيراك».

ولا بد أن يكون الحفار إسرائيليًا لأن إسرائيل هي التي استأجرته للتنقيب عن البترول في أرض تحتلها بالقوة ولا تملكها.

كان مطلوبًا إذن أن يظل الحفار شبحًا لا وجود له حتى يظهر فجأة في مياه البحر الأحمر، ولا تجد مصر أمامها سوى طريقين لا ثالث لهما: إما أن تنفذ تهديدها فتضرب الحفار وتواجه هذه الدول الخمس...أو... أو أن تتراجع فيتم إذلالها بالتنقيب عن البترول في أرضها، وأمام عيون شعبها.

بعد هذا اليوم الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٩... ساد الصمت تمامًا.

كان كل من يعنيه الأمر قد تحدث، إلا مصر.

لكن مصر صمتت طوال اثنين وأربعين يومًا كاملة... فلم صمتت؟!... هل كانت في انتظار تصريحات أخرى، أو أنها أرادت أن تقول كلمتها أخيرًا؟!

على كلٍّ... فبعد اثنين وأربعين يومًا، وبالتحديد، في اليوم الخامس من يناير عام ١٩٧٠. أدلى المتحدث الرسمي المصري، السيد عصمت عبد المجيد، لصحيفة «جلوبو» الإيطالية بتصريح غريب قال فيه: «إن شركة «ميدبار» بدأت البحث عن البترول في سيناء، وإن مصر لن تتوانى عن التصرف إذا ما قررت إسرائيل استغلال المصادر البترولية في سيناء».

بدا التصريح وكأن مصر تلقي بالقفاز في وجه الجميع، كانت شركة «ميدبار» قد بدأت فعلًا ـ كما يقول التصريح ـ في التنقيب عن البترول في سيناء، وكانت مصر بتصريحها هذا، تستفز إسرائيل وتتحداها أن تكمل مشروعها. ولكي يكتمل المشروع، فلا بد من وصول الحفار.

و... و... و...

وها هو الحفار يخرج من مكمنه، ليواجه في المحيط العريض الواسع قدره المتربص به... لقد جاء تصريح مصر بالنتيجة التي كانت مطلوبة منه، فها هو شهر واحد لم يمض، لتبدأ مرحلة أخرى، جديدة وخطيرة.

فهل يستطيع الرجال؟!

❋ ❋ ❋

ربما همس أمين هويدي ـ مدير جهاز المخابرات المصري في ذلك

الوقت ـ لنفسه بهذا السؤال. أفاق من استغراقه عندما أصدرت سماعة التليفون صفارة ثاقبة تعلن أنها رفعت منذ وقت طويل دون أن يطلب رقمًا... كان الرجل يعرف أن عبئًا قد أزيح، وأن على الرجال أن يحملوا من اليوم عبئًا أشد ثقلًا، كان عليهم أن يدمروا الحفار قبل أن يصل إلى مضيق باب المندب.

وكان هذا هو الحل الوحيد.

مال الرجل على قرص التليفون وراح يطلب رقم الرئيس... اشتد عمق الصمت في الغرفة فسرى صوت جرس التليفون على الطرف الآخر عبر السماعة، انقطع الجرس فاعتدل الرجل هاتفًا:

«مساء الخير يا سيادة الريِّس».

ولم يدم الحديث طويلًا بين جمال عبد الناصر ومدير مخابراته، كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل، وكان المدير يطلب مقابلة الرئيس الآن... ولا بد أن عبد الناصر قد أدراك أن الأمر خطير، ولا بد أنه خمن أنه يخص الحفار... فدعاه إلى مكتبه فورًا.

الفصل الثاني
الغرفة العجيبة

أنا شاب لكن عمري ولا ألف عام
وحيد ولكن بين ضلوعي زحام
خايف، ولكن خوفي مني أنا
أخرس، ولكن قلبي مليان كلام
عجبي

رباعية لـ «صلاح جاهين»

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما غادر أمين هويدي مكتبه في المخابرات العامة، كانت هناك أوراق يريد المدير عرضها على الرئيس ضمتها حقيبته السوداء، كما ضمت ملفًا ذا لون هادئ يحوي كل المعلومات التي من الممكن أن يطلبها الرجل عن عملية «الحفار».

الطريق ما بين جهاز المخابرات في كوبري القبة وبين بيت عبد الناصر في منشية البكري، لا يستغرق، في مثل هذا الوقت من الليل، سوى دقائق قليلة... ولقد غادر المدير المبنى ودلف إلى السيارة المرسيدس التي كانت تقف في انتظاره فلفحت الرياح الباردة وجهه، وأحس وهو يجلس في مقعده، وبرغم المعطف الأسود السميك الذي كان يرتديه، بقشعريرة تسري في جسده، فأيقن أنه مقبل على نوبة برد حادة، وقرر أن يقاومها بكل ما يستطيع من أدوية.. فليس هذا وقت المرض.

انسابت السيارة لتعبر باب المبنى الخارجي، أدى حارسان التحية للمدير، فردها عليهما بأسلوب من لم ينس أنه رجل عسكري، تابع الحارسان السيارة حتى انحرفت إلى اليمين مختفية في الشارع الموصل إلى ميدان قصر القبة، فدلف أحدهما إلى الغرفة الدافئة، وسجل في دفتر كبير خاص: إن سيارة المدير قد غادرت المبنى الساعة الثانية عشرة وست عشرة دقيقة بالضبط.

بعد بضع مئات من الأمتار في الشارع نصف المظلم، انحرفت

السيارة يسارًا لتواجه ميدان القبة الذي كان يبدو ـ بإضاءته الخافتة وخلوه من الناس، وحفيف الرياح فيه ـ قفرًا موحشًا... ولا بد أن الرجل تذكر هذا الميدان نفسه، قبل الحرب، بأضوائه وناسه وسياراته وباعته وحركة الحياة فيه، ولا بد أن صدره قد جاش بذكريات مريرة راحت تتصاعد إلى وعيه في سرعة وتدفق وتدافع، عما حدث إبان تلك المعركة الخاسرة مع إسرائيل. ما حدث قبلها، وما حدث في أثنائها وما حدث بعدها، والأسباب التي أدت إليها، وآراؤه الصريحة التي كان يعلنها دائمًا... ولا بد أنه كان يفكر بعقلية الرجل الذي يعرف أكثر من غيره، ففوق أنه كان ـ في الأصل ـ ضابطًا بالمخابرات، وفوق أنه الآن مدير للجهاز كله... فإنه دائمًا هناك، في تلك الساحة المحيطة بقمة السلطة، يرى الحقيقة ويسمعها كاملة... وعندما عبرت به السيارة الكوبري الصغير الذي يعلو نفق مترو مصر الجديدة في تلك المنطقة، هدأ السائق من سرعتها استعدادًا للانحراف إلى اليسار، ومد هويدي يده إلى جواره وأمسك بمقبض حقيبته، فلقد اندفعت السيارة بعد ذلك، وبسرعة، وفي خط مستقيم... نحو بيت الرئيس الذي بدت بوابته الخارجية على بعد.

* * *

كل الذين التقوا بعبد الناصر في تلك الأيام قالوا: إن الرجل ـ بعكس ما كان يبدو عليه في صوره وهو يعقد الاجتماعات أو يخطب في الجماهير ـ كان مريضًا ومتعبًا، لكنهم أجمعوا على أن روحه، تلك التي ينبئ بها بريق عينيه، لم تَخْبُ فيها جذوة الحياة أبدًا.

كان عبد الناصر قد قام منذ ما يقرب من شهر ـ أي في يناير ١٩٧٠ ـ بجولات في بعض الدول العربية، ففي الرباط كان هناك اجتماع القمة الخامس، وفي طرابلس الغرب ـ في ليبيا ـ كانت المحادثات الثلاثية بينه وبين الرئيسين معمر القذافي وجعفر نميري، ثم زيارته للسودان التي

استُقبل فيها استقبالًا حافلًا، وخطبته الشهيرة في الخرطوم التي قال فيها: «نحن لا نريد الحرب للحرب، ولكننا نريدها للتحرير».

كانت المنطقة تمور بالأحداث الجسام، والأحداث كانت سريعة ومتلاحقة ودامية، فلقد أعلن قبل شهر عن تكوين الجيش الشعبي الفلسطيني، والاشتباكات بين مصر وإسرائيل لم تكف يومًا واحدًا، اشتباكات عنيفة، دوريات مصرية تعبر القناة إلى سيناء لتدمر المواقع وتقتل الجنود وتعود بالأسرى، إبادة مجموعة كاملة من الضفادع البشرية الإسرائيلية كانت تحاول عبور قناة السويس، قوات السعودية والأردن والمقاومة تدخل معركة لمدة ٢١ ساعة مع قوات العدو، إسرائيل تشن هجومًا على جزيرة شدوان الصخرية عند مدخل خليج السويس، الهجوم يفشل، ويفقد الإسرائيليون ثلاثين قتيلا وعشرات الجرحى، شدوان تتحول إلى ملحمة بطولة يتحدث عنها العالم، الفلسطينيون يفجرون ثمانية أطنان من المتفجرات في ميناء إيلات الحربي، مقتل عشرين وإصابة عشرات آخرين... بعدها بأيام نسفت الضفادع البشرية المصرية سفينتين حربيتين إسرائيليتين في إيلات أيضا، السفينتان كانتا محملتين بالدبابات والمصفحات والذخيرة، وكانتا تستعدان لمغامرة حربية على الشواطئ المصرية... كانت الأحداث سريعة ومتلاحقة ويومية ولاهثة في نفس الوقت.

وكان لا بد أن يدور الحديث بين الرئيس ومدير مخابراته عن أشياء عديدة، كان لا بد من طرح الأفكار، والبدائل، والأفعال، وردود الأفعال... ولم تكن قصة الحفار منذ بدايتها إلا جزءًا من هذه الكرة الملتهبة من الأحداث... ورغم أن المناقشة بين الرجلين ـ بعد طرح كل الحقائق والحسابات ـ كانت تؤدي إلى طريق واحد، هو ضرورة تدمير الحفار قبل دخوله مضيق باب المندب، برغم هذا فلقد قال عبد

الناصر: إنهم سيستمرون في بذل المحاولات الدبلوماسية لإثناء إسرائيل عن عزمها... ثم تحدث عبد الناصر عن المؤتمر الصحفي الذي عقده حاييم بارليف قبل محاولة غزو شدوان، وكيف أنه قال: إن الغرض من الغزو هو إضعاف الروح المعنوية عند المصريين... صمت الرجل قليلًا ثم قال:

«هو ده اللي هم عاوزينه، عاوزين يضعفوا روحنا المعنوية، وعاوزين يقولوا للعالم إنهم مستقرين في سيناء وإنها بقت بتاعتهم».

بعدها... أخذ المدير يدلي للرئيس بما يحمله من معلومات حول الموضوع، لقد غادر الحفار المياه الكندية وهو الآن في عرض المحيط... إن هناك أربع خطط جاهزة للتنفيذ قد وضعت لتدميره، أو على الأقل، لإتلافه حتى لا يمكنه العودة إلى العمل مرة أخرى، الخطة الرابعة هي الموكولة إلى القوات المسلحة، إنها الخطة الأخيرة، والتي سيضرب بها الحفار بالطيران المصري لو فشلت الخطط الثلاث الأولى.

لا أحد حتى الآن يعرف إلى أين سيتجه الحفار، ومتى وأين سيتوقف للتزود بالوقود والمياه والطعام، السرعة التي تسير بها القاطرة «ﭼاكوب ڤان هيمو كيراك» التي تسحبه، من الممكن أن توصله إلى ميناء في غرب إفريقيا بعد أسبوعين تقريبًا، لكنه قد يمر على جزر الأزورس التابعة للبرتغال في منتصف الطريق... هناك احتمالات موضوعة، لكن الواقع أن الرجال يعملون في ساحة شبه مظلمة ومكتظة باحتمالات أخرى كثيرة، وفوق هذا وذاك فالظروف نفسها صعبة، إن الرجال يخططون لحفار لا يعرفونه إلا على الورق فقط... إن أحدًا منهم لم يره... ولم يشاهده ولو من بعيد... وهم ينتظرون ـ في غضون أيام ـ وصول بعض الصور التي أخذت للحفار في كندا، وهي صور ستوضح دون شك الكثير من التفاصيل، وستسهل بعض الخطوات، لكنها بالتأكيد ليست

كافية... خبراء الهندسة البحرية وخبراء الملاحة أيضا وضعوا كل إمكانياتهم الفنية في خدمة العملية، إنهم يدرسون الآن كل الاحتمالات، سواء بالنسبة لجسم الحفار، أو بالنسبة لمساره.

أما بالنسبة لجسم الحفار وإمكانية تدميره، فليس أمام الرجال إلا التخيل أو الدراسة على حفار مشابه. المشكلة التي تواجهنا الآن، هي أن الحفار بني خصيصًا للتنقيب عن البترول في مناطق معينة في السواحل الكندية، كما أنه بني خصيصًا لشركة معينة، وقد يكون هناك تشابه في التصميم العام، ولكن، لظروف قد لا نعرفها، قد يختلف التصميم بعض الشيء، لكننا نضع تخطيطنا الآن للتغلب على هذه العقبات.

وبالنسبة للمسار، فإنه لا يعنينا أن يتوقف الحفار في جزر الأزورس أم لا، كل ما يعنينا في هذا الموضوع، هو عامل الزمن، وحساب وصول الحفار إلى أحد موانئ غرب إفريقيا... ولو توقف في جزر الأزورس، التابعة للبرتغال، فلن يصبح من السهل أن نقوم بالعملية هناك، فالجزر صغيرة، أكبرها جزيرة «سان ميجيل»، بها ميناء اسمه «بونتا دلجادا»، والسكان قليلون والغرباء من الممكن أن يعرفوا بسهولة، وأعداد السائحين محدودة للغاية... غير أن هناك ثلاث محطات لا بد وأن يقف الحفار فيها أو ـ على الأقل ـ في اثنتين منها ـ هكذا قرر خبراء الملاحة البحرية ـ هذه المحطات هي «دكار» في السنغال، ثم «أبيدچان» في ساحل العاج، وبعدها «لاجوس» في نيجيريا، ونحن الآن على استعداد لاستقباله.

المشكلة الأساسية، أو الصعوبة التي يواجهها الرجال في المقام الأول هي أنهم سوف يعملون في أرض غريبة، حقًا إننا نملك وسائل المعرفة التي بناء عليها نضع خططنا، ولكن هذا بالقطع لا يغني عن الواقع، الواقع هو سيد أية خطة، وهو الذي لا يحدد معالمها... وهذا سوف يتطلب من الرجال جهدًا غير عادي.

صمت رئيس المخابرات المصرية لثوان وهو ينظر إلى الرئيس الذي كان يستمع إليه، وساد الغرفة هدوء شديد، عاد بعدها الرجل يؤكد: إنه بالرغم من كل هذا فإنه فقط، يضع أمام الرئيس وبين يديه صورة صادقة للواقع الذي يتعاملون معه... لكن الخطط التي وضعت، ستجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، على الحفار أن يفلت.

كان معروفًا عن عبد الناصر أنه مستمع جيد، ولا بد أن الرجل قد استمع إلى مدير مخابراته في تلك الليلة بانتباه بالغ، حتى إذا انتهى من عرضه بدأ عبد الناصر الحديث، ليطرح عليه الأبعاد السياسية للمشكلة كما يراها هو.

لابد أنه قال: إن المسألة - على المستوى السياسي - تبدو مركبة للغاية، ويكفي مصر ما لديها من مشاكل في الوقت الراهن... ولسوف يصبح الأمر صعبًا للغاية، لو أننا تورطنا في مزيد من هذه المشاكل المحيطة بنا، مع دول نحن في حاجة إلى تأييدها أو حتى تحييدها وتحسين علاقاتنا بها... ولسوف يصبح من أشد الأمور أهمية، ألا يشعر أحد، أو يعرف - بأي نوع من أنواع الأدلة مهما كان هذا الدليل تافهًا - أن مصر هي التي قامت بالعملية... إنهم بالقطع سيعرفون، بل سيكونون على يقين من أننا دمرنا الحفار، لكن المعرفة الاستنتاجية شيء، ووجود دليل على ما حدث شيء آخر... إن إسرائيل تعلم أننا لن نسكت على وصول الحفار، ولذلك فلسوف تكون الحراسة عليه مشددة إلى أقصى درجة.

وهذا كله سيحتاج من الرجال إلى جهد شديد، وربما إلى معجزة في زمن اختفت فيه المعجزات وبقيت قدرات البشر... ولكن، هذا هو السبيل الوحيد أمام مصر.

ساد الصمت بين الرجلين لثوان، وعاد عبد الناصر إلى الحديث وقد برقت عيناه، قال: إن العالم كله لا بد أن يعرف أننا - رغم الهزيمة - نرفض

الإذلال: «مش الإسرائيليين بس يا أمين، العالم كله لازم يعرف كده، وده مهم قوي بالنسبة لنا في المرحلة دي».

وبالقطع، فلقد وصلت الرسالة إلى الرجل الذي كان يستمع بانتباه شديد إلى الرئيس. كان يعلم أن الرجل مريض، وأن مرضه خطير، وأنهم يخفون أنباء هذا المرض بمشقة بالغة، وأن الأطباء منعوه من العمل المنهك ولكن... ها هي الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحًا، والرجل في مكتبه يعمل ويناقش ويحلل... وعندما حان وقت الرحيل، مد الرئيس يده مصافحًا أمين هويدي وهو يقول: «كل اللي أقدر أقوله إن كرامة البلد في إيديكم».

تمتم مدير المخابرات بكلمات يطمئن بها الرجل، صافحه واستدار منصرفًا، غير أن يده ما كادت تصل إلى مقبض الباب، حتى هتف عبد الناصر باسمه، توقف مستديرًا:

ـ أفندم.

كان الرجل يقف في منتصف الغرفة، وكان رأسه مشرعًا إلى الأمام كالسهم عندما قال:

ـ قول للرجالة كده، قول لهم إن كرامة البلد في إيديهم.

وكانت هذه هي الجملة الوحيدة التي نقلها أمين هويدي، مدير جهاز المخابرات المصري، فيما بعد، إلى «طاهر رسمي».

* * *

ولقد كان طاهر رسمي في هذا الوقت يركع على الأرض وسط غرفة مكتبه وهو يقلب في بعض الأشياء الغريبة التي اكتظت بها الغرفة وتناثرت في كل مكان، فوق المكتب وعلى الأرض والمقاعد والموائد، سيجارته بين شفتيه ترسل دخانها بلا توقف، ويداه مشغولتان دائمًا، كان يفحص شيئًا ثم يضعه جانبًا ليفحص شيئًا آخر... ومنذ أن ترك مكتبه الأصلي إلى هذه الغرفة، لم يعد يشعر بفرق بين ليل ونهار، قال لنفسه

ذات مرة: إن الإنسان لديه قدرات لا تخطر ببال، وهو يستطيع أن يكيف نفسه وجسده على كل الظروف... أمسك شيئًا بيده وغمغم بكلمات تنبئ أنه غير راض. في ركن من الغرفة كان يقف «عزت بلال» صديقه القديم وزميله، رجل المعلومات الذي لم يفارقه منذ أن بدأ هذا العمل... لم يذهب إلى بيته مرة، ولم يخرج مرة، كان ينام كيفما اتفق وفي أي مكان، وهو دائمًا على استعداد للإجابة عن أي سؤال... عزت بلال، الكومبيوتر ذو القدرة الفذة على حفظ المعلومات والتذكر، الهادئ الأعصاب، الذي يشبه نجوم السينما ولا يتحدث إلا نادرًا، وإذا ما تحدث جاء حديثه مركزًا في كلمات جد قليلة.

كان عزت يقف الآن أمام مائدة متوسطة الحجم بجوار باب في الناحية اليسرى من الغرفة يؤدي إلى حمام جُهز بكل ما يحتاج إليه إنسان يعيش في هذه الغرفة ليل نهار، ولا يغادرها أبدًا... فوق المائدة كانت هناك معدات كهربية لصنع الشاي والقهوة، في طرفها الأيمن وضعت خراطيش سجائر مصرية، وصناديق للبسكويت، وفي ركن من المائدة كان ثمة طبق به بقايا طعام لم يؤكل.

مرة أخرى عاد طاهر يغمغم غير راض، التفت عزت نحوه وابتسم، كان مشغولًا بصنع فنجان من القهوة الفرنسية التي يعشقها، فكر في أن يسأل طاهر إن كان يريد كوبًا من الشاي، لكنه خشي - إن سأله - أن يقطع عليه استغراقه، لذلك فقد عاد إلى المائدة، وبدأ في صنع كوب من الشاي دون سؤال.

كانت الغرفة غريبة في كل شيء... في الصدر يقوم مكتب طاهر رسمي، وقد تكدست من فوقه ومن حوله أشياء تبدو وكأن لا رباط بينها، فوق المكتب كانت هناك بعض الصناديق المعدنية الرقيقة من تلك التي تستعمل في حفظ الكربون الذي يولد الأوكسچين للغطاسين،

في ركن من المكتب صف من الكتب الضخمة، أعلاها كان ثمة دليل بحري عن كل السفن التي تسبح في بحار العالم، كل السفن والقاطرات واليخوت... بجوار الكتب عدد من أحجار البطاريات من مختلف الأحجام ومن ماركات متعددة، على الطرف كانت هناك بطارية ـ مما يستعمله الغواصون ـ وكانت مضاءة، وبجوارها ساعة من نوع خاص تحسب الزمن مرتبطًا بضوء البطارية وقوته... على سطح المكتب كانت هناك مجموعة من أقلام التفجير، تلك الأقلام التي تضبط الزمن وقت التفجير، كانت هناك أقلام لثلاث ساعات، وست ساعات، وأربع وعشرين ساعة... على الأرض، بجوار المكتب تمامًا صندوق خشبي صغير رسمت عليه جمجمة، وكان واضحًا أن هذا الصندوق من النوع الذي تحفظ فيه المتفجرات... ثم عينات من حبال وزعانف مطاطية وأنابيب أوكسجين، حمالات ونشرات لبعض السفارات، وكمية هائلة من تذاكر السفر على مختلف الخطوط الجوية... أما الحوائط، فلقد امتلأت بالخرائط من مساحات مختلفة كانت تبين بدقة شديدة بعض المواقع على الساحل الغربي لإفريقيا. بعض منها كان لخرائط وموانئ بعينها، مداخلها ومخارجها وأرصفتها وعمق مياهها.

على حائط آخر خريطة كبيرة للمحيط الأطلنطي رسمت عليها خطوط متقاطعة وممتدة ومنحنية؛ وكانت هذه الخطوط تبين الطرق التي تسلكها السفن في هذا المحيط المترامي فيما بين القارتين الأمريكية والإفريقية... بجوارها خريطة أخرى لأوربا وإفريقيا بالذات، وقد امتلأت بشبكة شديدة التعقيد من الخطوط الملونة، والتي تبدأ جميعها وتنتهي عند القاهرة... كانت هذه خريطة تفصيلية لخطوط الطيران التي تصل القاهرة ببعض العواصم الإفريقية عن طريق أوربا أو إفريقيا أو آسيا.

في مواجهة المكتب، كان الحائط مشغولًا بعدد لا بأس به من الساعات

التي تبين التوقيت المحلي في بعض العواصم الأوربية، وموانئ غرب إفريقيا... بجوار المكتب، من ناحية اليسار، مائدة رصت عليها مجموعة من التليفونات المجهولة الأرقام، والتي لا يعرف أرقامها سوى عدد قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة... فيما يلي مائدة التليفونات، فيما بين المكتب والحائط، كان هناك سرير سفري صغير، تحت وسادته بيچاما لم تستعمل، برغم وجودها في هذا المكان منذ ما يزيد على ثلاثة أسابيع.

ومنذ ثلاثة أسابيع مضت، وعندما بدا واضحًا أن لا مفر من خوض تلك المعركة الخفية صدرت الأوامر بتجهيز غرفة مكتب أخرى للسيد طاهر رسمي، كان مطلوبًا منه أن يتفرغ تفرغًا كاملًا، وألا يشغل نفسه بشيء، وألا يشغله أحد بشيء، وألا يعرف مخلوق مكانه... يومها ودع الرجل زوجته وأولاده زاعمًا أنه مسافر في مهمة تستغرق شهرًا أو بعض شهر، ولقد كانت عائلة طاهر تعودت على هذا النمط من الحياة، فاستقبل الجميع الأمر بشكل طبيعي... ووقع الاختيار على هذه الغرفة التي تقع في مبنى آخر يبعد بحوالي خمسمائة متر عن المبنى الذي يقع فيه مكتبه الأصلي، وخلال أربع وعشرين ساعة، كان هذا المكتب قد جهز تمامًا بكل ما يحتاج إليه إنسان كي يعيش فيه ليل نهار، وألا يغادره إلا للضرورة القصوى.

عندما انتهى عزت بلال من صنع كوب الشاي، وحمله إلى طاهر الذي كان يقف الآن خلف مكتبه، وكان في يده صندوق من تلك الصناديق المعدنية الصغيرة، ويضغط على الصندوق بعنف محاولًا تحطيمه بكفيه... راح عزت يرقب صديقه في صمت، ويبدو أن «طاهر» لم يعجبه شيء ما، فلقد ألقى بالصندوق المعدني الصغير على الأرض وراح يسحقه بضربات متتالية ومحكمة من قدمه... وتهشم الصندوق.

التفت طاهر نحو عزت مشيرًا إلى الصندوق قائلًا:

ـ العلب دي لازم تتغير... لازم نشوف لها حل... النوع ده ما ينفعناش.

ظل عزت صامتًا يرقب زميله وهو ينظر إلى الصندوق المعدني المهشم، لكنه ما لبث أن هتف:

ـ أنا عارف إن العلب دي مش بتتعرض لصدمات تحت الميه، لكنها حاتتنقل في طيارات وانت عارف شنط العفش بيجرى لها إيه في المطارات خصوصًا في الدول اللي زينا...لو صندوق من دول حصل فيه شرخ، الضفدع اللي لابسه أكيد حايتخنق تحت الميه.

ثم ما لبث أن هتف:

ـ الشنط... الشنط ما وصلتش.

هذه المرة استجاب طاهر لصمت صديقه، كان عزت قد أمسك بفنجان قهوته الفرنسية بكلتا يديه طلبًا للتدفئة برغم جهاز التكييف الدائر ليل نهار، والذي تحول صوته في الغرفة إلى جزء من الصمت فلم يعد الرجلان يشعران به... مد طاهر يده ورشف من كوب الشاي رشفة سرت سخونتها إلى صدره فشعر بقليل من الراحة، أشعل سيجارة وعاد إلى مقعده عندما سأله عزت:

ـ مش حاتكلم نديم؟

وكان هذا الأمر ـ بالتحديد ـ هو الذي يشغل طاهر رسمي منذ أن غادر مكتب المدير، وكان يشغله ويلح عليه أنه لا بد وأن يطلب نديم تليفونيًا ليبدأ عمله، غمغم وكأنه يحذر نفسه:

ـ نديم ولاده الاثنين عيانين.

في استخفاف قال عزت:

ـ دي حصبة مش عيا.

ولم يرد طاهر، فلقد كان يعرف أن الحصبة ـ في مصر ـ مرض ليس بخطير، ولكن... من أين لرجل مثل عزت بلال لم يتزوج حتى الآن ويرفض الزواج أن يعرف إحساس الأب نحوه ولده المريض...ثم، لقد كان يعلم أنه سيطلب نديم سواء أكان ولداه مريضين أم غير مريضين... إن الوقت يجري، وأصبح للدقيقة الآن ثمن باهظ لا يمكن تعويضه، وكان يعلم معنى أن تدور العجلة، التفت نحو عزت وابتسم... هذا الهادئ دائمًا، المنظم دائما الثابت الوجدان دائما، المرتب دائمًا، هذا الكومبيوتر الذي اشتهر منذ صباه بقوة ذاكرته على الاستيعاب والتذكر، كان يكفي ـ أيام الدراسة والسهر حتى الصباح ـ أن تسأله سؤالًا حتى يجيب عليه بلا لحظة تردد، وأن يذكر لك رقم الصفحة التي تحوي الإجابة في الكتاب، وربما ذكر مكان السطر أيضًا.

ـ مش حاتكلم نديم؟

برغم أنه المسؤول، برغم إحساسه الموغل في العمق بالمسؤولية، ردد:

ـ الساعة واحدة وعشرة... زمانه نام.

ولم يرد عزت على صديقه، وهل في مثل هذه المهنة معنى للنوم أو للساعة أكانت ليلًا أو نهارًا؟ اندفعت يد طاهر نحو سماعة واحد من أجهزة التليفونات المجاورة، أدار القرص فساد الصمت حتى رفعت السماعة من الطرف الآخر:

ـ مساء الخير يا نديم.

ـ أهلًا... مساء النور.

ـ إيه أخبار الولاد؟

ـ لسه الحرارة عالية.. إنما الدكتور طمنا والحمد لله.

ضحك طاهر وهو يقول:

ـ عزت بيقول إنها حصبة مش عيا.

وانطلقت من الطرف الآخر ضحكة نديم وهو بيقول:

ـ على العموم كويس إن الاثنين أخذوها سوا علشان نرتاح منها.

كان الحديث يدور بين صديقين قد يكونان موظفين في وزارة الأوقاف، أو في إحدى شركات القطاع العام... كان حديثًا عاديًا للغاية، حتى قطعه نديم متسائلًا:

ـ لكن أنت مقلتليش... إيه أخبار مولانا الشيخ؟

ـ حايحج السنة دي.

في دهشة ممزوجة بفرح صاح نديم:

ـ إيه ده؟ ده خبر حلو جدًا، هو اللي قال لك؟

ـ كلمني من شوية وقال إنه نوى خلاص.

ـ على خيرة الله.

كان الحوار عاديًا حقًا، فيما عدا الجزء الأخير الذي قد يبدو لأي متصنت، أنه حوار عادي تمامًا... إلا إذا كان يعلم أن كلمة «الشيخ» هي الاسم الكودي للحفار، أما كلمة «الحج» فقد كانت رمزًا للعملية كلها.

ولقد فهم نديم هاشم كل شيء، فهم من الحوار أن الحفار قد غادر المياه الكندية إلى المحيط الأطلنطي، وأنه مطلوب فورًا في هذا الوقت، وعلى جناح السرعة.

* * *

عندما أعاد نديم هاشم سماعة التليفون إلى مكانها وهم بالحركة، اصطدم بزوجته التي اكتشف أنها كانت تقف إلى جواره. ولا بد أنها استيقظت على صوت جرس التليفون، فلقد كان النوم يداعب جفونها، كانت الإضاءة في البيت خافتة، لكنها لا تمنع من الإحساس بأن البيت قد أثث بذوق خاص... تبادل معها نظرة سريعة، لكنه هرب من عينيها متسائلًا:

ـ إيه أخبار الولاد؟

كان السؤال بلا معنى، فلقد ظل طوال المساء يضع لهما الكمادات الباردة، ولذلك فهو لم يغير ملابسه، كان لديه ذلك الإحساس الغامض الذي يغزوه كلما كان مقدمًا على عملية من تلك العمليات التي تتسم بالخطورة... ولقد كانت زوجته تعرف معنى هذه المكالمات، لم تكن تدرك بطبيعة الحال ما تنطوي عليه من حقائق أو أخبار، ولكنها بالتجربة والممارسة والإحساس، تعلمت أن مثل هذا الحوار يحمل في طياته شيئًا ما سيأخذ منها زوجها بعيدًا عنها وعن الولدين... كما أنها كانت تعرف أن هذا الرجل ـ الذي يلقبه أصدقاؤه بقلب الأسد ـ شديد الرقة والحنان، يحمل قلبه كمًا هائلًا من الحب... لذلك، فعندما سألها عن الأولاد، جاءه ردها:

ـ الشنطة جاهزة جنب الدولاب.

أشاحت وهي تهم بالحركة عندما امتدت يده لتمسك بذراعها، استجابت ليده وقد اكتسى وجهها بحزن لم تستطع إخفاءه، ومنذ أسابيع مضت، كانت تشعر بأن زوجها مقدم على عمل ما، كان يجلس معهم، يلاعب الأولاد، يضاحكهم، يغازلها، لكنها حتى وهو بين ذراعيها، كانت تشعر أنه غير موجود... كان دائمًا هناك، بعيدًا، حيث الخطر والموت المحتمل في كل لحظة... ولقد سألته ذات يوم منذ سنوات: لم

اختار هذه المهنة؟ فأجابها ببساطة أفحمتها: «علشان أحميكم»... ولقد تعلمت بالتجربة ألا تسأله عن شيء، فهو لن يقول شيئًا، ولن يبوح بشيء مهما حاولت... تزوجته بعد قصة حب تحدثت بها العائلة والأصدقاء، واكتشفت بعد الزواج أنها لا تملك في زوجها كل شيء... في الضوء الخافت جاءها صوته مستسلمًا:

ـ مش حاغيب كتير.

ولم تجد معنى لما قال، فهو دائمًا ما يقول إنه لن يغيب طويلًا، وقد لا يغيب بالفعل سوى يوم أو يومين، لكن غيبته قد تطول إلى أسابيع لا يعلم عددها إلا الله... همست وقد صعد الدمع إلى عينيها:

ـ خلي بالك من نفسك يا نديم.

اختنق صوتها بالدمع فأصابته الدهشة وهمس مستنكرًا:

ـ إيه ده بقى؟

لم تكن هذه هي المرة الأولى، ولقد عودته ألا تظهر مشاعرها قبل الرحيل إذا ما كان هناك رحيل، انزلقت الدموع من عينيها وهمست:

ـ الولاد حايسألوا عليك.

لم يرد عليها، كان يعلم أن الحوار في مثل هذه المواقف لا يعني شيئًا، ضمها إلى صدره في حنان فجَّر الدمع من عينيها، دفعها إلى بعيد ونظر إليها باسمًا وهو يقول:

ـ قولي لهم: بابا مسافر.

وضحكت.

ولم يكن يريد سوى هذه الضحكة... وضع يده في يدها، ودخلا معًا غرفة النوم، ارتدى الچاكيت وهو يطلب منها أن تأتيه بالمعطف

الثقيل، غص حلقه، فلقد كان يعرف أنها لا بد أن تخمن أنه مسافر إلى الشمال حيث الصقيع والبرد والثلج، وكان يعلم أنه لن يكون في حاجة إلى معطف أصلًا حيث هو ذاهب، ولكن، وفي مثل مهنته، فالسرية تسري حتى على أقرب الناس إليه... وضع المعطف على ذراعه وانحنى واختطف الحقيبة التي تعود أن يأخذها كلما كان في مهمة، ولم ينس وهو في طريقه إلى الباب أن يمر بغرفة الولدين، وأن يلقي عليهما نظرة من بعيد.

كانا مستغرقين في النوم وقد ملأت البقع الحمراء وجهيهما، تمنى لو أنه استطاع أن يقبلهما، لكنه خشي أن يستيقظ أحدهما، فاندفع مغادرًا البيت، ولكن صورتهما لم تغادر مخيلته طوال رحلته الطويلة مع الخطر.

* * *

من التاسعة ـ من صباح اليوم التالي، أو نفس اليوم على وجه التدقيق ـ وحتى الثانية عشرة ظهرًا بالضبط، دخل إلى مطار القاهرة الدولي ثلاثة أشخاص، لم يكن أحدهم يعرف الآخر، وكان كل منهم مسافرًا على خطوط جوية تختلف عن الآخرين... غير أن الثلاثة كان لهم نفس الهدف.

* * *

في التاسعة وعشر دقائق، أخذ ضابط الجوازات الشاب يقلب في الجواز الذي قدمه له أحد المواطنين، كان اسم المواطن المدون في الجواز هو: إبراهيم سيد فرج الله، والوظيفة: مدرس... نظر الضابط في الصورة ثم رفع رأسه نحو إبراهيم، وكان هذا أسمر الوجه، بسيط الملابس، طيب الملامح، وكان يبدو في وقفته أمام الضابط، وكأنه ريفي

يغادر قريته لأول مرة... لم يكن هناك ما يبعث على الشك، وكانت التأشيرات كلها صحيحة، فهذه تأشيرة إلى سويسرا، وأخرى إلى فرنسا، ثم تأشيرة ثالثة إلى السنغال... انتاب الضابط إحساس غامض تجاه هذا المواطن، فسأله:

ـ على فين يا أخ إبراهيم؟

ـ دكار بإذن الله.

ـ وواخد تأشيرات لفرنسا وسويسرا ليه؟

لم يكن من حق الضابط أن يسأل، وكان إبراهيم ـ يقينًا ـ يعرف ذلك، لكنه أجاب في تسليم كامل:

ـ أصل انا لا مؤاخذة لي ابن عم بيشتغل في الأمم المتحدة في جنيف، ولما عرف إني مسافر دكار بعت لي وقال لي إني لازم حاعدي على باريس، وسفرية بسفرية، قال لي ما تعدي عليَّ يومين أفرجك على سويسرا، قلت أروح أتفرج من ـ نفْسي، آهي عزومة ومش هاغرم فيها حاجة... وإذا كنت حافضل في باريس ١٢ ساعة، ليه ما خليهمش ٢٤ واتفسح لي يوم ولّا اتنين حسب التساهيل... محدش ضامن الحكاية دي تتكرر تاني ولّا لأ.

كانت لهجة المواطن إبراهيم سيد فرج الله ـ فوق تدفق الحديث من بين شفتيه في سلاسة مَن فكر في الأمر طويلًا ـ صادقة بحيث دفعت الضابط إلى وضع الختم فوق الجواز وإعادته إلى صاحبه... وكأي ريفي يغادر بلده لأول مرة، دخل إبراهيم إلى صالة المطار، وسأل عن البوابة المخصصة لركاب الخطوط الجوية السويسرية، واختار مقعدًا في قاعة الانتظار، وظل جالسًا عليه حتى نودي على طائرة «السويس إير» في تمام الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة.

حتى عندما صعد إبراهيم إلى الطائرة وقادته المضيفة الحسناء إلى مقعده، كان يبدو غشيمًا إلى درجة أن المضيفة عادت إليه كي تربط حزام المقعد، وقد تخضب وجهه بحمرة الخجل عندما انحنت عليه الغادة السويسرية التي بدت له شديدة الحسن، وكان يشعر بعيون الركاب القلائل الذين صعدوا إلى الطائرة، وهم ينظرون إليه بإشفاق أو سخرية... ولم يكن هذا في واقع الأمر يعنيه في كثير أو قليل، فلقد كان يشغل ذهنه إلى أقصى درجة، تلك المهمة التي أوكلت إليه، وكان عليه القيام بها في دكار... كان عليه أن يغطي مساحة تمتد من دكار شمالًا إلى أكرا في الجنوب، حتى لا يفلت منه حفار اسمه «كينتنج».

* * *

في الوقت الذي أغلقت فيه أبواب طائرة «السويس إير» المتجهة إلى چنيف، كان ضابط الجوازات الشاب يفحص جوازًا لرجل بدا له متأنقًا، كان أبيض الوجه تخضبت بشرته بحمرة من يعيش في بحبوحة، تفوح منه رائحة عطر فرنسي اشتهر في مصر في تلك الأيام... كان اسم الرجل: عمر محمد السيد، وكانت المهنة: رجل أعمال، وأمام الضابط في الجواز تأشيرة إلى المملكة المتحدة [إنجلترا] وأخرى إلى غانا... ورغم أن الجواز كان قبل ذلك مليئًا بتأشيرات دخول وخروج إلى عدد من دول أوربا وإفريقيا، مما يوحي بأن الرجل كثير السفر، إلا أن الضابط أراد أن يسأله ـ دون أن يدري هو نفسه لماذا ـ عن سبب سفره، لكنه ما كاد يرفع عينيه إلى الرجل لتطالعه ابتسامته الواسعة الواثقة، حتى سمع من خلفه صوت أحد رؤسائه يهتف:

ـ عمر بيه... أهلًا وسهلًا.

رحب الضابط الكبير بعمر بك هذا ترحيب من يعرف الرجل ويعرف قدره، فما كان من الضابط الشاب إلا أن أمسك بالختم وأنهى الإجراءات،

وسلم الجواز لصاحبه الذي كان يثرثر مع الضابط الكبير ثرثرة من يعرفه معرفة قديمة... وعندما دلف عمر بك إلى صالة المطار، كان أول شيء فعله أن اتجه إلى البار وطلب كأسًا، ورغم أن الوقت كان مبكرًا، فإنه كان يعلم أنه لا بد وأن يبدو سكيرًا مقبلًا على ملذات الحياة بنهم من هبطت عليه النعمة على غير توقع... وقبل أن يبدأ النداء على الخطوط الجوية البريطانية بدقائق، نهض إلى السوق الحرة، واشترى عددًا من زجاجات العطر وعددًا آخر من الكرافتات وولاعتين ثمينتين، وثلاثة أجهزة راديو صغيرة الحجم... ودفع الثمن بالإسترليني.

عندما استقر عمر في مقعده بالطائرة، وربط حزام المقعد، وأسند رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه، راح يفكر فيمن يمكن الاعتماد عليهم في تسقط الأنباء دون أن يشعروا بما يريد... لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها إلى أكرا، وكان له أصدقاء عديدون هناك، ولم يكن هذا يقلقه ... كان ما يقلقه ـ إذا ما كان عليه أن يرسل كل ثلاث ساعات رسالة إلى القاهرة ـ أنه لن ينام حتى يصل هذا الحفار «كينتنج» إلى دكار أو أبيدچان أو لاجوس في نيجيريا... لكنه عندما تذكر، وسط زحام أفكاره أنه سيقضي في لندن أربعًا وعشرين ساعة، ابتسم، فبرغم كراهيته الشديدة للإنجليز ـ استشهد جده لأمه برصاصة إنجليزية في ثورة ١٩١٩ ـ إلا أنه كان يعشق بلادهم.

* * *

في الثانية عشرة ظهرًا، كان ضابط الجوازات الشاب يستعد لتسليم نوبته إلى أحد زملائه، لذلك... فعندما تسلم جواز المواطن أحمد زين العابدين محمود، الذي كان ذاهبًا لأداء العمرة، ختم الجواز بسرعة دون أن يكلف نفسه مشقة النظر إلى وجهه.

وكان المواطن أحمد زين العابدين في طريقه لأداء العمرة فعلًا...

وكان سعيدًا سعادة خفية، برغم أنه يعلم أنه لن يستطيع زيارة مسجد الرسول، فلقد كان عليه أن يطير من جدة إلى مقديشو في الصومال بعد ثمان وأربعين ساعة، وكان عليه أن يغطي الشاطئ الشرقي لإفريقيا كله في انتظار حفار قد يصل بعد أسابيع طويلة، أو لا يصل... وكانت مهنته التي لم يلق لها ضابط الجوازات اعتبارًا هي: صاحب مصنع جلود في المغربلين.

* * *

في الوقت الذي دخل فيه أحمد زين العابدين محمود إلى صالة المطار، كانت ثمة سيارة صغيرة ذات موديل يرجع إلى أكثر من عشر سنوات مضت، تنهب الطريق الصحراوي فيما بين القاهرة والإسكندرية بسرعة تفوق سرعتها حتى وهي جديدة... ويبدو أن سائق السيارة كان مستغرقًا في التفكير إلى الحد الذي أنساه قدرة سيارته على احتمال تلك السرعة... وكان لا بد لصاحبنا من أن يرتب أفكاره، فهو مقدم ـ وسط جو ملتهب بالعواصف والنار والدم ـ على ما سوف يزيد النار اشتعالًا... والذي كان يشغل باله، أنه يريد رجالًا من نوع خاص... إنه شخصيًا لم يذهب إلى دكار أو أبيدچان أو لاجوس من قبل، وهذا لا يعنيه كثيرًا وإن كان يشكل واحدة من الصعوبات التي يجب أن يتغلب عليها... لكن الصعوبة الحقيقية التي كانت في هؤلاء الرجال الذين سيصبح عليهم أن يستعدوا ـ منذ الغد ـ للسفر إلى عاصمة لن يعرفوها إلا والواحد منهم في المطار يتسلم جواز سفره، ثم هم سيذهبون إلى بلد لم يروه من قبل، ولا يعرفون لغة سكانه... والأكثر أن أحدهم لن يعرف المهمة التي سيقوم بها إلا قبل أن يقوم بها بساعة على الأكثر... ثم سيصبح عليه أن يسبح في قلب مياه لم يسبح فيها، وأن يدمر حفارًا لا يعرف عنه شيئًا.

ومنذ أيام قليلة، بالتحديد في يوم الجمعة ٦ فبراير من عام ١٩٧٠،

سمع عن بعض هؤلاء الرجال الذين هزوا الدنيا بعمليتهم الجريئة التي دمروا فيها سفينتين إسرائيليتين في ميناء إيلات، تحدث العالم كله عن هذه العملية... وهي لم تكن عملية، بل كانت ضربًا من الجنون... وضرب من الجنون أن تطلب منهم الآن، ولم يكتمل أسبوع على ما قاموا به، أن يقطعوا آلاف الأميال، بعيدًا بعيدًا عن الوطن، ليعيدوا الكرَّة من جديد... ولكنه ـ أيضًا ـ ضرب من الجنون، ألا يستعين بهم مهما كانت المخاطر.

نظر في ساعة يده وأيقن أن «طاهر رسمي» يجلس الآن في مكتب نائب رئيس المخابرات الحربية، وقدر أنه سيصل إلى الإسكندرية في خلال ساعتين، ويكفي نصف ساعة أخرى ليصل إلى مقر القوات البحرية في رأس التين... وهو وقت كاف لأن تكون المقابلة قد تمت، والتعليمات قد صدرت باستقباله.



ولم يستغرق اللقاء بين «طاهر رسمي» واللواء محرز نائب رئيس المخابرات الحربية أكثر من نصف ساعة، كانت هناك تعليمات من رئاسة الجمهورية بتسهيل المهمة بأقصى سرعة وبأي تكاليف، كان الحديث بين الرجلين وديًا للغاية، وبرغم هذا لم يسأل اللواء محرز عن طبيعة هذه المهمة التي تتطلب هذا العدد الهائل من الضفادع البشرية الذي يطلبه «طاهر رسمي».

ـ العدد اللي انت طالبه كبير قوي يا طاهر.

ـ ماهي العملية كمان كبيرة.

ـ إنت عاوز ستاشر ضفدع، أجيبهم لك منين؟

غير أنه كان يعلم، كما كان طاهر يعلم، أنه سيوافق... فرفع سماعة

التليفون وتحدث إلى مدير مخابرات القوات البحرية، وطلب منه أن يسهل مهمة السيد «صبري غنيم» الذي سيصل الإسكندرية بين ساعة وأخرى، وأن يلبي كل طلباته.

وانتهت المكالمة.

لكن مدير المخابرات البحرية كان يتساءل وهو يعيد السماعة إلى مكانها: أية مهمة هذه، وأية طلبات تلك التي سيطلبها السيد «صبري غنيم»؟

ولم يكن «صبري غنيم» هذا، سوى «نديم هاشم» بعينه.

الفصل الثالث

العَرِّيف.. والمتدين.. والملازم.. والقرش

«......... لكنه الآن أمام هدف يسير. يسير بلا توقف، هدف دائم الحركة. هدف لن يتوقف إلا في قلب الحماية وخلف أسوارها المنيعة... وإذا ما توقف في أثناء المسير، فليوم أو ليومين كي يتزود بما يحتاج إليه، ثم يعاود الحركة من جديد... وفرصته الوحيدة، في هذا التوقف المؤقت.

فكيف؟».

عبثًا حاول طاهر رسمي أن ينام، كان يعلم أن جسمه في حاجة إلى النوم، والنوم العميق، وأن ذهنه في حاجة إلى الراحة... وبرغم هذا، مضت ساعتان وهو يتقلب في الفراش دون أن يغمض له جفن... نهض جالسًا وألقى ببصره إلى حيث كان «عزت بلال» قد تمدد غير بعيد على مقعدين متقابلين، حاول أن يرسله إلى بيته، أو إلى غرفة مكتبه المجهزة هي الأخرى بكل وسائل الإقامة، دون جدوى... كان عزت يعلم أن مكالمة قد تأتي عبر البحار، أو رسالة أو برقية تحتاج منه إلى معلومة، مهما صغرت، فلا بد إذن أن يكون موجودًا، فليس هناك وقت يضيع في الحديث التليفوني، أو مشوار من مكتب إلى مكتب حتى ولو كان يستغرق دقيقة واحدة... ليس هناك وقت، لأن الوقت يجري بسرعة مذهلة، والحفار يخب في المحيط متحركًا بلا توقف نحو هدفه... وها هو الليل يمضي والسكون يجثم على كل شيء إلا من صوت جهاز التكييف وحفيف الرياح على الشجر في الخارج.

نظر طاهر في ساعة يده على الضوء الخافت لمصباح مكتبه القريب من الفراش، وكانت الساعة تقترب من الثالثة صباحا، أشعل سيجارة ونهض متثاقلًا إلى حيث النافذة، سار على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ صديقه النائم، راح يراقب المشهد من خلف الزجاج، وعلى ضوء المصابيح الزرقاء في الخارج كان رذاذ المطر يلتمع دون صوت، ولا شيء سوى ساحة صغيرة تتوسطها رقعة خضراء، ثم جهامة المباني المحيطة بالمكان، ولا بد له من أن يعيد ترتيب أفكاره.

أفلا يمل من إعادة ترتيب أفكاره؟

ترى... أين يكون الحفار الآن؟ في أي بقعة من المحيط المترامي يخب وراء قاطرته الهولندية؟

ماذا لوهبت عاصفة عاتية وابتلعته؟

هل يفرح أم يحزن؟

سيحزن بالتأكيد لأن غرق الحفار سيحرمه من متعة تقديم شيء لهذا الوطن... الوطن كلمة تبدو مبهمة لهؤلاء الذين لا يمارسون معرفة الحقيقة، لكنها لمن مثله تحمل في طيات حروفها شحنات رهيبة من الحب والإجلال والعزة وغريزة البقاء مرفوع الرأس.

أتاح له عمله أن يعرف مصر على حقيقتها، بلا رتوش ولا زواق ولا حماس.

ها هي... مصر اللحم والدم والنيل والأرض، فكم ثار عليها، وكم عشقها.

ضابط المخابرات كالطيار... يتكلف كثيرًا، ألوف الألوف من الجنيهات يتكلفها حتى يصبح حقًا ضابطًا للمخابرات، ولقد تكلفت مصر كثيرًا كي تعلمه، وعلمته... أفلا يرد لها بعض الدَّيْن؟

* * *

كانت المشكلة الأساسية التي تواجه طاهر رسمي، هي ذلك التناقض الذي فرضته عليه العملية منذ اللحظة الأولى... وأية عملية من هذا النوع لا بد أن يتوافر لها عنصران أساسيان، عنصران يكمل بعضهما البعض في تناسق وتناغم وتماسك وتكامل كلحن موسيقي مركب... ولكن هذين العنصرين ـ في هذه العملية ـ متناقضان.

الأمن... والكفاءة.

قطبا أي نجاح، وسلاحا أي معركة، والطريق الحقيقي لأي انتصار... هكذا تعلم يوم تقرر أن يصبح واحدًا من هؤلاء الرجال الذين اختاروا الظل مكانًا لحياتهم، وهكذا علمته التجارب والسنون والصراع الوحشي من أجل الحفاظ على كيان هذه الأمة.

الأمن يتطلب «سرية مطلقة» كتمانًا شديدًا، وإخفاء كاملًا لتلك الحركة المحسوبة في حقل ترصد فيه كل حركة وكل همسة وكل إيماءة، بل كل نظرة... تسعون في المائة من نجاح هذه العملية يتوقف على عدم إحساس إسرائيل بما هو مقدم عليه... والأمن... يتطلب عددًا قليـلًا من الأفراد... أقل عدد ممكن منهم... وأنت تستطيع أن تحفظ سرًا بين اثنين، ولكنك تضمن إخفاء هذا السر تمامًا إذا لم تبح به لأحد.

وإذا كان الأمن يتطلب عددًا قليلًا، فإن الكفاءة... كفاءة الأداء، وكفاءة الحركة، وكفاءة التخطيط، ثم كفاءة التنفيذ. كلها تتطلب عددًا مناسبًا من الأفراد... والعدد المناسب هنا يصل إلى العشرات، في كل أنحاء العالم، من أقصى الشمال حتى قرب خط الاستواء، وما تحته بآلاف الأميال، ومن أقصى الغرب عند القارة الأمريكية، حتى منتصف الطريق إلى الشرق الأقصى.

فكيف؟

كيف يمكن التوفيق بين عنصر يتطلب عددًا محدودًا، وعنصر يتطلب عددًا كبيرًا؟

كيف يمكن التوفيق بين نقيضين؟

ثم... لم يكن هذا هو اللغز الوحيد الذي أصبح عليه أن يحله. لم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة.. فلقد كانت مشكلة المشاكل أنه يتعامل مع«هدف متحرك»... وإذا ما كان الهدف ثابتًا، فإنك تستطيع أن تعمل بهدوء، أن تراقب وتخطط وترتب وتتعرف على الفجوات والثغرات، ونقاط الضعف، ونقاط القوة، وتختار الرجال كما تختار الوقت المناسب... ثم... ثم تنفذ.

ولكنه الآن أمام هدف يسير بلا توقف، هدف دائم الحركة، هدف لن يتوقف إلا في قلب الحماية وخلف أسوارها المنيعة... وإذا ما توقف في أثناء المسير، فليوم أو يومين كي يتزود بما يحتاج إليه، ثم يعاود الحركة من جديد... وفرصته الوحيدة، في هذا التوقف المؤقت.

فكيف؟

وما الذي يمكن أن يحدث لو أن الحفار توقف في ميناء ما، ورحت تخطط، وترسم، وتدبر، ثم... إذا ما حان وقت التنفيذ، وجدته يتحرك من جديد؟

في أي الموانئ سوف يرسو؟ في أية مياه؟

هناك ثلاث محطات انتهى إليها تقديره للموقف، هي: دكار في السنغال، وأبيدچان في ساحل العاج، ثم لاجوس في نيجيريا.. وفي ضوء كل الاحتمالات التي وضعت، وفي ضوء ما قاله خبراء البحرية من مهندسين وقباطنة، فإنه لا بد للحفار، في أسوأ الظروف، أن يتوقف في اثنتين من هذه الموانئ الثلاث... ولكن لنفرض أن الإسرائيليين وضعوا تخطيطًا آخر، وكما يحاول هو أن يفكر بعقلية الإسرائيليين، فإن الإسرائيليين سيحاولون ـ بالتأكيد ـ أن يفكروا بعقليته.. إن كل

المحاولات التي بذلت لمعرفة الموانئ التي سيتوقف فيها الحفار، باءت بالفشل.. حتى القبطان الهولندي «ڤان كيرك» قائد القاطرة التي تسحب الحفار، لا يعرف أين سيرسو وفي أي ميناء... كل ما يعرفه الرجل أن عليه أن يتجه إلى غرب إفريقيا، وأنه سوف يتلقى وهو في عرض المحيط، رسالة لاسلكية تنبئه بالميناء الذي سيصبح عليه التوقف فيه.

السباق إذن، ليس مع الزمن وحـده... السباق مع كم كثيف من الصعوبات!

السباق الآن بين العقول.

* * *

فجأة، توقف ذهن طاهر رسمي عن الحركة عند النقطة بعينها... خطر له خاطر فاندفع نحو مكتبه على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ عزت بلال الذي بدا مستغرقًا في النوم، جذب خريطة للمحيط الأطلنطي وضعها تحت مصباح مكتبه وركز عينيه فوق بضع نقاط في عرض المحيط، فيما بين أمريكا وأوربا... كانت هذه هي جزر «الأزورس» التابعة للبرتغال، تحتها بقليل.. ـ وأمام الساحل الإفريقي ـ جزر «ماديرا» التي اشتهرت بنبيذها شديد الجودة، وهي أيضًا تابعة للبرتغال، ولكن... ثمة سؤال خطر بباله فتمتم بصوت خافت:

«بقى ده معقول؟ أناناس في منطقة باردة بالشكل ده؟».

كان يحدث نفسه، وكان صوته شديد الخفوت، لكن الإجابة جاءته من عزت بصوت صاح: «طبعًا معقول».

رفع رأسه نحو عزت بلال الذي قفز من مكانه باسمًا وهو يتجه نحو مائدة القهوة.

ـ طب إزاي؟

قال عزت وهو يعد فنجان قهوته:

ـ يرفعوا درجة حرارة الحقول.

ـ برضه إزاي؟

ـ في مزارع مغلقة، مزارع يغطوها بخيمة بلاستيك كبيرة، ويرفعوا درجة حرارتها لحد ما تبقى إستوائية ويزرعوا الأناناس.

ـ طب ما يستوردوه أرخص.

ـ ده لو كانوا حياكلوه.

ـ أمال بيزرعوه ليه؟

ـ علشان يعملوا منه ليكير يضاربوا بيه نبيذ ماديرا.

ـ تعرف إيه اللي قالقني؟

ولم يرد عزت، بل تشاغل في تجهيز فنجان القهوة، كان موقنًا أنه أوصل صديقه الآن إلى بر الحديث... ولذلك فلقد عاد طاهر يقول:

ـ يا ترى فرناندو حايلحق الحفار قبل ما يدخل الأزورس؟

ـ أكيد.

ـ إشمعنى؟

ـ لأن الحفار لو وقف في الأزورس. مفيش قدامه غير ميناء «بونتا دلجادا» اللي في جزيرة «سان ميجيل»، ودي تعتبر الميناء الرئيسي في كل الجزر، وسان ميجيل تبعد عن لشبونة ٧٠٠ ميل بس.

ـ يعني فرناندوا ممكن يوصل في ٤٨ ساعة بالمركب.

ـ ومش ممكن الحفار يوصل بونتا دلجادا قبل الوقت ده.

وهكذا أحس طاهر رسمي بالراحة. فغمغم:

اعمل لي معاك كُباية شاي.

* * *

في عصر اليوم السابق، في نفس الوقت الذي كان فيه نديم هاشم في الإسكندرية ينهي مهمته في اختيار رجال الضفادع البشرية، سعيدًا بأنماط من هؤلاء الرجال الذين كانوا ـ من أجل مصر ـ قد تعرضوا لموت محقق قبل ذلك ببضعة أيام في ميناء إيلات الإسرائيلي، وكانوا على استعداد للبذل من جديد في بساطة من يتناول كوبًا من الشاي... في نفس هذا الوقت مع اختلاف التوقيت ـ كانت حركة الملاحة في ميناء لشبونة ـ عاصمة البرتغال ـ تبدو طبيعية هادئة وبعيدة تمامًا عن كل ما يثير... كانت هناك سفن آتية من المحيط، وسفن مقلعة إليه، وسفن آتية من الشمال متجهة نحو الجنوب، وأخرى آتية من الجنوب متجهة نحو الشمال، لتفرغ بضائعها، أو تتزود بما تحتاج إليه من مياه ووقود أو طعام.

على الشاطئ الشرقي لنهر التاج يقوم منذ سنوات ليست كثيرة تمثال هائل للسيد المسيح، يفرد ذراعيه متجهًا بصدره نحو المحيط، وكأنه يبارك السفن المبحرة، ويرحب بالسفن الآتية... تحت أقدام هذا التمثال كان السواح يتسابقون للصعود إلى قمته في المصعد الذي كان يمتلئ صاعدًا ويمتلئ هابطًا... المطاعم متناثرة هنا وهناك، ومطربو الفادو ـ الغناء الشعبي البرتغالي ـ يستعدون لقدوم الليل بالجيتار والأحزان يطلقونها فنًا مليئًا بالشجن، يشكو ديكتاتورية سالازار وحكمه الصارم، وكانت رائحة السمك تملأ الجو.

في واحد من هذه المطاعم ـ وكان يبدو غريبًا بعض الشيء ـ كانت ثمة سائحة عجوز تثرثر مع زوجها وهي تلتهم طبق السمك الذي وضع

أمامها، ثم ترشف من كأسها بعضًا من نبيذ ماديرا الشهير، ولقد توقفت هذه السيدة للحظات، أطلت فيها على نهر التاج الذي كان يسري في سكون لا تعكره سوى رفاصات السفن السابحة فيه، ثم قالت لزوجها:

ـ أليس المكان ساحرًا ياماك؟!

كان زوجها رجلًا ضخم الجثة مفتول العضلات، توحي هيئته بأنه واحد من عمال السكك الحديدية الذين أحيلوا إلى المعاش... وبرغم برودة الجو الشديدة، وعمر الرجل الذي تجاوز الخامسة والستين، فإنه كان يرتدي قميصًا مليئًا بالرسوم الغريبة، وكانت أزرار القميص مفتوحة حتى منتصف الصدر، بينما عضلات الذراعين تضغط على الأكمام القصيرة... وكان الرجل يبدو متأففًا من شيء مجهول، فتمتم ردًا على زوجته:

ـ تصوري يا «حنة» أن هذا المطعم مكسو كله بالأصداف البحرية؟!

كان تعليقه غريبًا، فلقد كان المطعم بالفعل، مكسوا ـ كله ـ بالأصداف البحرية ذات الألوان التي تخلب اللب. الأرض والجدران والسقف والمقاعد والموائد والدرج...كل شيء، كل شيء مكسو بالأصداف... ولا بد أن زوجته ـ أيًا ما كان غباؤها ـ قد لاحظت هذا... ولقد وصل صوته العريض الأجش إلى رجل آخر كان يجلس على المائدة المجاورة في صمت وسكون، وكأن بلادة الدنيا قد أصابته.

كان هذا الرجل في الخامسة والأربعين من عمره، قوي الجسد، كثيف الشعر أسوده؛ شأنه شأن البرتغاليين، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يستمع فيها إلى مثل هذا الحديث من زبائنه، فما من سائح دخل المطعم أو مر به إلا وتحدث عن هذه الفكرة الغريبة... كان هذا الرجل هو فرناندو بالديرا، وهو نفسه صاحب هذا المطعم، لكنه لم يكن صاحب هذه الفكرة التي كانت تبهر من يراها لأول مرة.

كان صاحب الفكرة هو «مراد» هذا المصري الغريب الأطوار، والذي منذ أن التقى به ذات ليلة في بار«ماركوس الخنزير»، حوَّل حياته من البؤس إلى اليسر والنعمة.

كان هذا منذ سنوات.

وكان فرناندو يحيا شهورًا سوداء بعد أن تعطل عن العمل عندما التقى بمراد هذا... ولقد ظنه في البداية بحارًا من هؤلاء الذين تمتلئ بهم السفن، والذين يرتادون مثل هذا البار لليلة أو ليلتين، ثم يختفون مع سفنهم في عرض المحيط... كان فرناندو في تلك الليلة ثائرًا حزينًا منفعلًا، شرب بقدر ما استطاع أن يدفع، وعندما انتهت نقوده نظر إلى جاره وراح يثرثر معه عن بطالته وزوجته وسالازار وحكمه الحديدي الذي جعل منه مفلسًا دائمًا، ولقد استجاب له مراد، وطلب له كأسًا، وكأي بحار لا شأن له بالموضوع، راح يستمع إليه...و... وانقضت الليلة، لكن الغريب أن فرناندو التقى بمراد مرة أخرى، وقال مراد: إن سفينته بها بعض الأعطال، وإنها ستبقى في لشبونة لأسبوعين أو ثلاثة، ثم دعاه على كأس وأخرى وثالثة و...و... وراح فرناندو يثرثر كعادته مبديًا ضجره وغضبه وضيقه.

وهو لا يدري ـ ولا يعنيه الآن أن يدري ـ متى وبعد كم ليلة قدم له مراد أول مبلغ من المال.

كان هذا في بار ماركوس الخنزير أيضًا، وكانا قد التقيا مرات عديدة حتى أصبحا صديقين، ولقد رحب هو بهذه الصداقة التي أصبحت تعفيه من دفع ثمن الكؤوس التي كان يبتلعها في كل ليلة، ثم... وعندما نقده مراد ذلك المبلغ من المال نظر إليه دهشًا، وسأله عن السبب، فقال مراد: إنه تعود أن يدفع ثمن متعته، وإن حديث فرناندو يمتعه، فلم لا يدفع ثمن هذه المتعة بالذات؟!

ولـم يفكر فرناندو طويلًا في الأمر، كان عاطلاً منذ ستة أشهر، وكان مفلسا وفي حاجة شديدة للمال.. على الأقل، ليسكت زوجته السليطة.

لكن الأمر تطور بعد ذلك، وهو لا يدري كيف تطور ولا يريد أن يفكر في هذا الأمر... كل ما هنالك أن «مراد» أصبح ينقده مبلغًا في كل شهر نظير ثرثرته تلك التي تبدو له في بعض الأحيان بلا معنى على الإطلاق... فما معنى أن تعرف أشياء عن سفن تدخل، وسفن تبحر، وكم ناقلة بترول مرت، وأشياء من هذا القبيل يستطيع أي طفل من هؤلاء الذين يملؤون الميناء أن يعرفها بسهولة.

ولقد مضت سنوات عرف فيها فرناندو طعم الراحة، كان يلتحق بعمل حتى إذا طرد منه لم يعد يخشى من العوز والفاقة وقلة الحيلة، حتى كان يوم عرض فيه مراد على فرناندو أن يشتري مطعمًا يعرضه صاحبه للبيع بعد الخسائر الهائلة التي مني بها، دهش فرناندو وقال: إن المطعم يخسر. فرد عليه مراد يومها بأنه سيكسب إذا ما أدير إدارة صحيحة... قال فرناندو: إنه لا يملك المال اللازم لشراء المحل. وأبدى مراد استعداده لأن يقرضه المبلغ، على أن يرده من الأرباح... ثم بعد أن اشترى المحل أوحى إليه مراد بفكرة تغطية كل شيء في المحل بالأصداف البحرية، وأن يتخصص في طهو السمك على الطرق الشرقية... و... وكانت الفكرة رائعة فها هو المطعم وقد أصبح ملتقى السواح وبعض ذوي اليسار من البرتغاليين الذين يحبون أسلوب الطاهي في صنع السمك.

عاد صوت الأمريكية يصرصع من جديد بجوار أذنه وهي تسأل زوجها في استنكار: لماذا لم يخطر لأحد في الولايات أن يبني مطعمًا مثل هذا مكسوًا كله بالصدف خاصة في سان فرانسيسكو حيث مطاعم السمك بلا حصر؟

نظر فرناندو في ساعته، ونهض متثاقلًا، كان يفكر في تلك المهمة

التي عهدوا بها إليه صباح أمس، عندما طلبوا منه أن يسافر إلى جزيرة سان ميجيل حيث مزرعة الأناناس التي أنشأها هناك، وكانت أيضًا من أفكار مراد، وأن يبقى في بونتا دلجادا ـ الميناء ـ متظاهرًا بالإشراف على المزرعة، منتظرًا دخول حفار اسمه كينتنج، تسحبه قاطرة اسمها «چاكوب ڤان هيمو كيراك».. كان المطلوب منه فقط أن يعرف متى دخل الحفار والقاطرة، ومتى أبحرا.. وأن يرسل في الساعة نفسها برقية بعنوان معين على لشبونة، على أن تكون البرقية بالشفرة... و... و... ولا شيء غير هذا.

وكان عليه الآن، وبعد عشر دقائق فقط، أن يبث لهم برقية ينبئهم فيها بموعد سفره.

ما كاد فرناندو يخطو إلى داخل المطعم حتى لمح «بياترز ألفريدو» مغنية الفادو الشهيرة وهي تصعد السلم الصدفي في حذر، تحيط بها حاشية من خمسة أشخاص.

كان يعشق صوتها القوي كجبل شامخ، عرفها منذ أن عرف طريقه إلى المحلات الراقية، كانت تبدو متغطرسة برغم أنها مُوَلّدة، كان أبوها برتغاليًا.. لكن أمها كانت هندية من مستعمرة «جوا» كسبت بياترز من أمها عينين تمتلئان بسحر الشرق الغامض، وورثت عن أبيها ملامح الوجه الصريحة في تناسقها، وجاء الخليط تحفة لا تتكرر، يتوجها صوت تلهث لشبونة لسماعه.

أراد أن يعود للترحيب بها، لكن الوقت كان يأزف، أسرع إلى غرفة مكتبه التي اختار لها مراد مكانًا خلف المطعم، دلف إليها وأغلق الباب بالمزلاج ثم وقف لثوان يسترق السمع، حتى إذا اطمأن خطا نحو النافذة الصغيرة، وألقى منها نظرة سريعة أصبحت مع الوقت والمراس خبيرة... بعدها أسدل الستار، نظر في الساعة بسرعة، اتجه نحو المكتبة، ضغط

على أحد أرففها بميل فتحرك الرف مفسحًا الطريق إلى تجويف خلف المكتبة، مد فرناندو يده إلى التجويف وأخرج جهازًا دقيقًا أشد ما تكون الدقة... حمل الجهاز إلى مكتبه الصغير، نظر في ساعته، ضبط الموجة، حرك المؤشر قليلًا، وضع على أذنيه سماعة كانت معلقة في الجهاز، حتى إذا اطمأن أن كل شيء على ما يرام عاد ينظر في ساعته، وكان الوقت قد حان.

في مساء ذلك اليوم قال فرناندو لزوجته وهو يدس نفسه في الفراش إلى جوارها، إنه سيسافر إلى «بونتا دلجادا» في الصباح، وإنه حجز مكانًا على إحدى السفن الصغيرة... ولم ترد عليه زوجته، همهمت في غضب وهي تدير وجهها إلى الناحية الأخرى، فلقد كانت موقنة، أشد ما يكون اليقين، أن لزوجها عشيقة في جزيرة «سان ميجل» وما مزرعة الأناناس هذه إلا حجة يتعلل بها للسفر إلى هناك كلما أحرقه الشوق إليها.

ـ قد أغيب أسبوعًا أو أكثر.

ولاذت الزوجة بالصمت هذه المرة أيضًا، وأيقن فرناندو أن لا سبيل إليها، فهز كتفيه ومط شفته في لا مبالاة، استدار هو الآخر معطيًا لها ظهره، وأغمض عينيه، وحاول أن ينام.

* * *

في العاشرة من صباح اليوم التالي ـ بتوقيت القاهرة ـ كان ثمة أتوبيس يتبع إحدى شركات السياحة، وهو يقطع الطريق الصحراوي من الإسكندرية مندفعًا نحو القاهرة بسرعة فاقت التسعين كيلو مترًا في الساعة.

... في داخل الأتوبيس كانت هناك مجموعة صغيرة من رجال الضفادع البشرية التابعين للقوات البحرية، ولأن عددهم كان قليلًا، فلقد

تناثروا في الأتوبيس، كان منهم من تمدد على مقعدين، ومنهم من كان يثرثر مع زميل أو زملاء، ومنهم من أسلم عينيه لصفرة الصحراء... وكان الحديث يدور في الأوتوبيس مرحًا أحيانًا، جادًا أحيانًا أخرى... لكن أحدًا منهم - أبدًا - لم يتحدث عن المهمة التي كانوا من أجلها يركبون هذا الأتوبيس في طريقهم إلى القاهرة، ثم إلى حيث لا يعلمون.

كانوا ثمانية فقط.

ولقد كان الاختيار بالنسبة لصبري غنيم - أو نديم قلب الأسد - في اليوم السابق صعبًا شديد الصعوبة... فمن العسير أن تنتقي من وسط مجموعة من الرجال رجالًا لهم مواصفات خاصة... قد يكون هذا عاديًا بالنسبة لبقية البشر، لكن الأمر بالنسبة لهؤلاء كان صعبًا... ذلك أنهم جميعًا ذوو مواصفات خاصة... وفي مثل هذه الأحوال، يصبح للمقاييس معيار لا يمت إلى البطولة بمعناها الدارج بصلة واضحة، وإن كان يمت إليها بصفات خفية ووثيقة للغاية.



التقى بهم نديم في قاعة من قاعات هذا المبنى الذي تطل نوافذه على الجانب الشرقي من ميناء الإسكندرية الغربي... من خلال نوافذ القاعة كانت السفن تبدو رائحة غادية راسية، والقوارب والفلايك والزوارق... وعندما جلسوا إليه راح يحدثهم عن عملية من أجل الوطن، حقًا إن كل عملية تتم هي من أجل الوطن، لكن هذه العملية بالذات تختلف كثيرًا من حيث العناصر... تحدث نديم لنصف ساعة، ثم بدأ الحوار بينه وبينهم، ولقد كان الجميع على استعداد دون سؤال، لكن الحوار بالنسبة لنديم كان فرصة لشيئين، الأول... هو سبر غور كل واحد منهم ومعرفة النقط الأقوى فيه، أما الثاني... فهو الإيحاء بأنها إحدى العمليات التي

تتم في سيناء الآن، وبالكثير قد تصل إلى الشاطئ الشرقي لشبه الجزيرة المحتلة.

بعد اختيار المجموعة، ظل نديم جزءًا طويلًا من الليل يناقش قائد المجموعة وكان اسمه «خليفة جودت».

كان خليفة نموذجًا نادرًا للفدائي المصري، الفدائية عنده ليست قتلًا ولا تدميرًا ولا جبروتًا أو عبثًا، كانت واجبًا مقدسًا نحو وطن هو في أشد الحاجة إلى قدرات بنيه ولقد كان طبيعيًا أن يقول خليفة كلامًا مثل هذا في وقت كذلك، لكن الشيء غير الطبيعي أن يشعر نديم أن ما يقوله خليفة ليس كلامًا، بل هو إحساس يغمر القلب ويتسلط على الروح، ولذلك فلقد اختارا معًا ثمانية أفراد لا ستة عشر كما كان مفروضًا ـ تتوفر فيهم كل المواصفات المطلوبة لعملية ليست خطيرة فقط، ولكن غير طبيعية أيضًا.

كيف فعل نديم هذا، وكيف اتخذ القرار دون أن يعود إلى طاهر؟

كان نديم واحدًا من هذا النوع من ضباط المخابرات الذين تمرسوا بالمخاطر وتأقلموا معها، ولقد كان هو القائد الميداني، ومن حقه اتخاذ القرار في الميدان، وليس على أرض الوطن؛ حيث وضعت خطة مبنية على حسابات شديدة الدقة... كان يعلم أنه لا بد وأن يعود إلى طاهر قبل أن يتخذ القرار، لكنه، في غمرة العمل، وبإحساسه بالرجال، اتخذ القرار، ورأى أن ثمانية فقط، فيهم الكفاية.

في الصباح الباكر، وكان الرجال قد عادوا بالأمس إلى بيوتهم وودعوا ذويهم لمهمة أو سفرية أو مناورة... كان نديم يقف مع خليفة وراء زجاج نافذة تطل على ساحة في ذلك المكان الذي كان أول مبنى للكلية البحرية في مصر في العصر الحديث... برغم الرياح والبرد القارس، فلقد كانت

الشمس ساطعة، والرجال في ملابس مدنية يقفون في تلك الساحة وفي يد كل منهم أو بجواره، حقيبة صغيرة ليس فيها الكثير من الملابس... سرح خليفة قليلًا ثم أشار إلى أربعة رجال من الثمانية.

كان الأول قصيرًا لافتًا للنظر، لكن جسده القوي كان يبدو مدكوكا متناسقًا وكأنه تمثال برونزي لبطل أوليمبي، كان هذا الرجل برتبة «عريف».. أما الثاني، والذي كان الآن مستغرقًا معه في الحديث، فكان نحيلًا رقيق الوجه متناسق الملامح، لا تنبئ عن صلابته سوى تلك النظرة النافذة التي ما إن يطالعك بها حتى تشعر أن خلف هذا المظهر الرقيق، رجلًا من نوع خاص، وكان صاحبنا ملازمًا لم يتعد الثانية والعشرين من عمره... أما الثالث فكان شابًا أسمر اللون متوسط الطول، قوي البنية بشكل واضح، ذا شارب كثيف، تعلن الزبيبة المتألقة في جبهته عن تدين فياض، وإيمان عميق.. وفي نهاية الممر، فيما بين المبنى والبوابة الخشبية العتيقة، كان الرابع يقف متأملًا لشيء لا يمكنك أن تدركه أو تعرفه... قال خليفة إن زملاءه أطلقوا عليه اسم «القرش» لفرط جرأته وصلابته في لحظة التنفيذ الخطرة.

أضاف خليفة وكأنه يتنبأ بالمستقبل: إن هؤلاء الأربعة: العريف والملازم والمتدين والقرش... هم الذين سيقومون بالعملية.

التفت إليه نديم في دهشة من يريد أن يسأله: كيف خمن؟ لكنه ـ بحنكة رجل المخابرات ـ صمت ولم يرد، فلقد أدرك أن تجربة خليفة قد زودته بحاسة نحو هذا النوع من العمليات، وأن من الأفضل ألا يناقش معه شيئًا، ويكفيه أن خليفة أشار إلى الأربعة الأحسن... والغريب في الأمر، أن هذا ما كان يشغل ذهن نديم طوال ليلة الأمس.

❋ ❋ ❋

مر الأتوبيس السياحي بجوار «الرست هاوس» ولم يتوقف، كانت الأوامر التي صدرت إلى السائق ألا يتوقف إلا عند بداية شارع الهرم، وبعد انتهاء الطريق الصحراوي، سيجد من يقوده إلى حيث سيقيم الرجال... إلى ما لا يعرفونه من أيام أو أحداث.

وكانت سيارة نديم هاشم الآن تنهب الطريق الصحراوي في ثلثه الأخير... كان في الصباح الباكر قد أجرى مكالمة تليفونية سريعة وغامضة من سنترال «محطة الرمل» قال فيها للحاج مندور: إن البضاعة شحنت، وإنها ستصل إلى القاهرة في حدود الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وإن عليه أن ينتظرها.. وعلى الطرف الآخر، جاءه صوت الحاج مندور ـ الذي لم يكن سوى طاهر رسمي بنفسه ـ إنه سيكون في انتظار البضاعة، لكنه أنذره إن لم تكن البضاعة على حسب المواصفات فلن يتسلمها.

* * *

عبر نديم هاشم ذلك القوس الواسع من الطريق الصحراوي الذي يبعد عن القاهرة بحوالي خمسة وثلاثين كيلومترًا، وانحرف إلى اليمين مندفعًا بأقصى سرعة نحو كسارات الأحجار التي عادة ما تملأ جو المنطقة بالأتربة البيضاء في تلك المنطقة من صحراء مصر الغربية، نظر في ساعته، وكانت تشير إلى الحادية عشرة وخمس دقائق.

كان هذا بتوقيت القاهرة، لكنها، في أمستردام بهولندا، كانت الساعة لا تزال في التاسعة وخمس دقائق صباحًا.. وكانت الصحفية الهولندية «لونا بايرن» المحررة بإحدى المجلات الأسبوعية المصورة التي تصدر في العاصمة، تهم بمغادرة بيتها في عجلة من أمرها، فلقد تأخرت عن موعد العمل، ولا بد أنها ستسمع توبيخًا من مدير التحرير... مدت يدها إلى الباب لتفتحه فدق جرس التليفون في الطرف الآخر من القاعة، أيقنت أنه «فريدريك» وأنه يريد ـ كالعادة ـ أن يلقي عليها تحية الصباح

ويبثها غرامه... هي تعرف أنه يحبها ويريد الزواج منها، وهي كانت ذات يوم تميل إليه، أما الآن... الآن تغير كل شيء فلم الإلحاح؟

كادت أن تنصرف دون أن تجيب على التليفون، لكنها، لسبب لا تدريه اندفعت عائدة لتعبر القاعة التي هي كل البيت، رفعت سماعة التليفون في غضب وتذمر:

ـ هالو.

لكن أساريرها سرعان ما انفرجت عن سعادة غريبة، ما إن وصلها الصوت من الطرف الآخر حتى هتفت بشوق:

ـ زاكري.. أين أنت؟

صمتت وراحت تستمع دون أن تفارق الابتسامة شفتيها، بدت عليها السعادة بالرغم عنها، أخيرًا تحولت الابتسامة إلى ضحكة قالت بعدها:

ـ إني دائمًا ما أصدق أكاذيبك أيها الثعلب الفاتن.

صمتت، تضرجت وجنتاها بحمرة أشعلت الجمال في وجهها المليح، همست بصوت مرتجف:

ـ لقد افتقدتك كثيرًا طوال تلك الأسابيع.

هزت رأسها موافقة وهي تقول:

ـ أوكي. تمام الثانية عشرة.

ظلت لونا ساهمة للحظات والسماعة معلقة في يدها، كانت تبدو كطفلة مراهقة انتقلت فجأة إلى عالم الأحلام، غير أن الجدية أخذت طريقها إلى ملامحها تدريجيًا، أدركت ـ بغريزتها ـ أن شيئًا مهمًّا في انتظارها، فهي تعرف «زكريا» ـ أو زاكري كما تعودت أن تناديه ـ جيدًا، إن له أسلوبًا فريدًا في الغزل، أسلوب يأسرها أسرًا... رجل أعمال مصري

هو، يستورد من هولندا الجبن والألبان بملايين الجنيهات في كل عام. شديد السماحة ساحر الحديث، لكنه ـ بين الحين والحين ـ يطلب منها أن تقوم ببعض المهام، كانت قد وقعت في حبه، وعشقت أيامها معه، وتحلم بتلك الليالي التي يمنحها إياها إذا ما كان خاليًا.. طلب منها مرة أن تزور إسرائيل لتزوده ببعض المعلومات التي يحتاج إليها في شركته، ثم أدركت بعد وقت ليس بالقليل أن في الأمر شيئًا غير شركته وأعماله، وعندما واجهته لم ينكر، لم يلف ولم يدر حول الموضوع... بداية قال لها: إنه يحبها. وإن من حقها أن ترفض هذا الحب أو تقبله على علاته... راحت تسأله في انفعال كيف سمح لنفسه أن يستخدمها دون أن تدري؟ فقال: إنه لم يكذب عليها، وأخرج من حقيبته أوراقًا تؤكد أن كل ما قامت به من مهمات كان لصالح الشركة فعلًا ولكن...

راح يحدثها عن «القضية» عن المبادئ الإنسانية، عن حق الشعوب في الحياة، طرح كل شيء أمامها بوضوح أربكها تمامًا، راح يجيب عن أسئلة كانت تتحرك في رأسها استعدادًا للخروج، استمرت المناقشة حتى مطلع النهار، وترك لها الخيار، إما أن تستمر أو تتوقف، وحتى إذا وافقت، فلسوف يكون من حقها أن تتوقف في اللحظة التي تعلنه فيها بذلك.. وترددت «لونا» كثيرًا، وناقشته طويلًا، لكنها في كل مرة، كانت تزداد اقتناعًا بوجهة نظره.. أخيرًا أعلنت اقتناعها، وأسلمته قيادها.

كانت «لونا بايرن» تقود سيارتها الصغيرة في شوارع أمستردام في طريقها إلى المجلة وهي تردد لنفسها: إنها لا بد وأن تتوقف، فلم لم تتوقف؟!

عندما دلفت إلى صالة التحرير بالمجلة طالعتها عينا المدير من خلف نظارته الطبية في تأنيب واضح، شارفت الساعة على التاسعة والنصف وموعد الاجتماع اليومي التاسعة وخمس وأربعين دقيقة، وكان عليها أن

تكون جاهزة لعرض فكرة أو موضوع أو تحقيق، وأن تكون جاهزة أيضا لإسناد أي عمل لها.

تقدمت من مدير التحرير ولم تلق عليه تحية الصباح بل بادرته:

ـ أعلم أنني تأخرت، وأعلم أنني أستحق التأنيب.. لكنني في حالة من الاضطراب لا تسمح لي بسماع تأنيبك اليوم، هل لك أن تؤجله إلى يوم آخر؟

قالت هذا وانصرفت مهرولة إلى مكتبها، ولم تبد الدهشة على مدير التحرير بل راح يتبعها ببصره وهو يهز رأسه عجبًا من هذه الفتاة الموهوبة، التي تبدد موهبتها، وفرصها العديدة في الترقي في مناصب المجلة، والتي عرضت عليها فعلا فرفضت، وفضلت أن تظل صحفية تجوب الشوارع وتجري وراء القضايا والأحداث.

كانت تبدو للجميع وكأنها تحيا في عالم آخر تماما... التحقيقات التي تقوم بها تحمل رائحة خاصة، مغموسة في شخصيتها المتقلبة، هي أقرب إلى الفنانة منها إلى الصحفية.

في الحادية عشرة وخمسين دقيقة، اختفت لونا بايرن من مكتبها، وأيقن الجميع أنها صعدت إلى المطعم كي تلتهم ساندويتشًا وكوبا من اللبن... لكنها في الحقيقة لم تكن هناك، كانت تقود سيارتها نحو أطراف أمستردام بسرعة شديدة، وهي تنظر بين الحين والآخر في مرآة سيارتها لترى إن كان هناك من يتبعها أم لا، هكذا طلب منها «زاكري» في إلحاح، وربما في صرامة... وما أن اطمأنت تمامًا، حتى انحرفت عند أحد المنحنيات، لتدخل إحدى الضواحي، وتدور في شوارعها دورة بعد أخرى.. ثم اندفعت إلى مكان الانتظار، تركت سيارتها هناك وأكملت بقية الطريق على قدميها.

* * *

وفي الثالثة وعشرين دقيقة من ظهر هذا اليوم، استطاعت لونا بايرن أن تدخل إلى «رئيس التحرير» وأن تعرض عليه فكرة التحقيق الجديد الذي جاءت به... كانت تقف أمام الرجل الذي ابيض شعره وبدا الإجهاد في ذلك اللون الداكن فيما حول عينيه، وهي تقول:

ـ أليس الصعود إلى القمر، وارتياد الفضاء، يعتبر ذروة ما توصل إليه الإنسان في مجالات العلم والتحضر والمدنية؟!

لم يرد الرجل ولم تكن لُونا في انتظار رده فلقد مالت نحوه قائلة:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فما الذي يحدث لو التقت ذروة العلم، مع حضيض التخلف؟!

ـ لم لا تدخلي في الموضوع مباشرة يا لُونا؟

ـ الموضوع مباشرة هو: بثت وكالات الأنباء صباح اليوم خبرًا عن زيارة بعض رواد الفضاء الأمريكيين لبعض دول إفريقيا.. هذه الدول، وبعيدًا عن المدن التي تحمل بالضرورة، وبالرغم من كل ما فيها من مظاهر تحضر سطحية، سمات تخلف تبدو أشد ما يكون الوضوح إذا ما توغلنا في داخل الدولة، والتقينا برجال ونساء يعيشون في الغابات نفس المعيشة التي كان يعيشها أجدادهم منذ آلاف السنين.. ما الذي يحدث لو التقى رائد فضاء برجل من رجال الغابة، وكيف يدور بينهما حديث ما؟!

صمتت لُونا وكانت تبدو لاهثة كعادتها كلما تحمست لفكرة أو موضوع، قبل أن يهم الرجل بالنطق كانت لونا قد عرفت أنه اقتنع، فانطلقت تقترح:

ـ هل نستطيع أن ندبر رحلة لرائد فضاء ليجول في أعماق الغابة وسط هذه القبائل؟

همَّ بالاعتراض.. فاعترضت اعتراضه.

ـ أعلم ما سوف تقوله عن الأمن والاستحالة، ولكن لا بأس من المحاولة.

أدرك رئيس التحرير أنها لن تترك له فرصة فقال:

ـ متي تريدين السفر؟

ـ غدًا.

ـ ولكن الأخبار التي بثتها وكالات الأنباء تقول: إن رواد الفضاء سيصلون إلى غرب إفريقيا، إلى أبيدچان في ساحل العاج بالذات، بعد حوالي أسبوعين.

ـ هذا صحيح، ولكن دراسة الأوضاع وتجهيز كل شيء قبل وصول الرواد يستلزم وقتًا.

كان يعلم أنها لن تعدم حيلة أو ردًا، فلوح بذراعه عائدًا إلى أوراقه وهو يقول:

ـ أوكي.

* * *

في مكتبة المجلة بالدور الثالث، كانت لونا تقف أمام الموظفة:

ـ أريد أولا خريطة لغرب إفريقيا. هذا الساحل الذي أطلقوا عليه ذات يوم اسم إفريقيا الفرنسية، وثانيًا بعضًا من أسماء المسؤولين في حكومة أبيدچان الذين يستطيعون مساعدتي في مهمتي... وأما ثالثًا فهو كتاب، وليكن كتابًا واحدًا فقط ـ فليس لدي وقت للقراءة ـ يتحدث عن إفريقيا الاستوائية.

مدت الموظفة يدها إلى أحد الأرفف. ثم قدمت للُونا أطلسًا ضخمًا وهي تقول:

ـ ستجدين هنا كل ما تريدينه عن العالم كله.

وانصرفت الموظفة، وحملت لونا الأطلس إلى إحدى الموائد المعدة للقراءة، قلبت الصفحات حتى عثرت على خريطة كبيرة لإفريقيا، جرت عيناها على الساحل الغربي حتى وضعت إصبعها على ساحل العاج، ثم بحثت عيناها عن «أبيدچان» بالذات، وكانت تتساءل بينها وبين نفسها: «أي حفار هذا الذي يريد المصريون معرفة كل شيء عنه، حتى كمية الطماطم التي يستهلكها أفراده؟!».

وضعت الموظفة أمامها كتابا، وورقة بها أربعة أسماء، وكان الاسم الرابع لموظف في السفارة الهولندية في ساحل العاج، قالت الموظفة إنه يستطيع أن يقدم لها أية مساعدة تحتاج إليها.

لملمت «لُونا بايرن» أشياءها، اتجهت إلى مكتب الموظفة، وقَّعت بالاستلام ومضت تهرول على عجل، فلقد كانت الآن على موعد مع صديق قديم في إحدى شركات الملاحة.. ولقد كانت تكدح ذهنها وهي تقود سيارتها في شوارع أمستردام بحثًا عن أسلوب تتبعه معه كي تصل إلى ما تريد، فلقد كانت تريد أوفى المعلومات عن قاطرة هولندية تابعة لإحدى الشركات في أمستردام، واسمها: «چاكوب ڤان هيمو كيراك».

* * *

ذكرت صحف الصباح القاهرية أن البلاد سوف تتعرض خلال اليومين القادمين لموجة شديدة من البرد، وأن بعض المناطق ستصل درجة الحرارة فيها إلى درجتين فقط، وأن أمطارًا غزيرة سوف تسقط على الساحل الشمالي وشمال الدلتا.. أما في القاهرة، فلسوف يسقط رذاذ يستمر لساعات.. والغريب في الأمر، على عكس ما تعود الناس، صدقت تنبؤات مصلحة الأرصاد الجوية.

كان اليوم مكفهرًا في القاهرة لم تظهر فيه الشمس إلا بعد أن مالت

بشدة نحو الغرب، وأطلت من تحت السحاب المتراكم على المدينة في تلصص أرسل بعض الدفء إلى الناس الذين كانوا يهرولون في الشوارع إلى بيوتهم، هربًا من هذا الصقيع.

في الخامسة والربع عصر ذلك اليوم، أي قبل الغروب بقليل، كانت القاهرة شبه مظلمة، وكان الرذاذ يتساقط منذ ساعات دون توقف، لكن هذا لم يمنع طاهر رسمي من مغادرة مكتبه، والنفاذ من الباب الضيق للمبنى الذي يقيم فيه، ليعبر ـ تحت المطر ـ ذلك الممر وتلك الحديقة الصغيرة إلى الباب المقابل في المبنى الآخر، كان الباب خلفيًا لكن «طاهر» كان بالطبع يعرف طريقه إلى «فؤاد» كي يسأله عما تم في مسألة الفنانة «دلال شوقي»، لكنه لم يستطع أن يخرج تمامًا من تلك المناقشة الحارة، والتي حدثت في غرفته قبل دقائق، مع نديم هاشم.

كانت المشادة فنية... وإذا كانت الخطة الموضوعة تستلزم ستة عشر ضفدعًا بشريا، فكيف نجعلهم نحن ثمانية وبأية خطة؟!

رد نسيم باسمًا:

ـ يا فندم أنا قدرت الموقف بدقة وشايف إن العدد ده كافي.

ـ إنت رحت دكار قبل كده؟

ـ مش لازم أروح.

ـ شفت الحفار اللي إنت رايح تدمره؟

ولم يرد نديم، وكان أكثر ما يضايق طاهر أنه فكر أن يسأل نديم قبل سفره في تقليل عدد الأفراد، لكنه خشي عليه وأراد أن يترك الأمر لتقديره، ولذلك فلقد أعلن طاهر في ضيق: إن نديم مسؤول ـ من الآن، وما دام قد تصرف بنفسه ـ مسؤولية مباشرة عن التنفيذ من خلال الخطة... و...

و... وضحك الرجلان، نديم وعزت، فليس فيما قاله طاهر شيء جديد، ولم يعجب ضحكهما طاهر فاندفع مغادرًا بخطى مسرعة وهو ما زال يدمدم غاضبًا.

.... كانوا يطلقون على تلك الحالة التي تنتاب طاهر رسمي في مثل تلك الأوقات اسم «اللهب المقدس»، فلقد كان هذا أسلوبه إذا ما استغرق في أمر ما، يناقش كل تفصيلة مهما كانت صغيرة.. لكنه لا يتوقف أبدًا عن الاندفاع نحو الهدف بجرأة يحسد عليها.

* * *

دق طاهر رسمي باب الغرفة المغلق، ثم فتحه ودخل دون أن ينتظر الإذن بالدخول، خطا إلى الداخل وأغلق الباب خلفه فهب «فؤاد» من خلف مكتبه مرحبًا به، فإذا بطاهر يسأله دون تحية:

ـ إيه أخبار الولد والبنت بتوع لندن؟

رد فؤاد باسمًا في ثقة:

ـ المفروض إنهم يركبوا المركب بكره الصبح.

ـ حايلحقوا؟

ـ أرجو هذا.

ـ وبعثة التلفزيون الفرنساوي؟

ـ دول ما يقدروش يبدءوا الحركة إلا قبلها بيومين ثلاثة.

ـ ودلال شوقي؟

كان فؤاد يعلم أن دلال هي العنصر الذي يعني طاهر في المقام الأول.. لذلك، فلقد حاول أن يوضح له بعض الأمور، تقدم نحوه برفق وهو يقول:

ـ شوف يا طاهر... دلال شوقي فنانة، ممثلة، مشهورة ومعروفة، لها جمهورها، ومعجبيها، والدولة ـ من وجهة النظر دي ـ بتعتبرها ثروة قومية و........

ـ إنت عاوز تقول إيه؟

ـ الناس اللي من النوع ده...........

عاد طاهر لمقاطعته:

ـ مش مصريين يا فؤاد؟!

ـ مصريين ووطنيين وكل حاجة إنما..........

ـ مفيش سكة تانية؟

ـ بصراحة السيناريو لسه بينكتب.

ـ كل ده. دانتو بقى لكم أسبوعين.

ابتسم فؤاد.. وعاد طاهر يسأل:

ـ هو السيناريو بياخذ قد إيه علشان يخلص؟

ـ من شهر لكذا سنة.

هتف طاهر في جزع:

ـ إيه؟

ضحك فؤاد وهو يقول:

ـ الراجل ما سابش بيتهم من ساعة ما بدأ يكتب.

ـ ولسه ما خلصش؟

ـ طبعًا.

ـ وحايخلص إمتى؟

ـ لما السيناريو يبقى كويس.. ودلال ما تقولش عليه لأ.

ـ يعني فيه احتمال إنها ترفض؟

ـ طبعًا الاحتمال موجود.

ـ يبقى فريد ضابط مخابرات على قده.

هتف فؤاد في استنكار وهو يضحك:

ـ فريد...

أراد طاهر أن يتراجع فقال وهو يندفع نحو الباب:

ـ ما ليش دعوة.. دلال لازم توافق وبس.

عند الباب توقف، استدار نحو فؤاد هاتفًا:

ـ وأنا عاوز يا فؤاد، عاوز رد قبل النهار ما يطلع.

واختفى طاهر خلف الباب، وظل فؤاد وحده لثوان استدار بعدها عائدًا إلى مكتبه وهو يهز رأسه باسمًا.

الفصل الرابع
دلال شوقي ترفض العمل

هاتوا أياديكم،
فمعركة البقاء تريدكم
جندًا...ومعركة الرجوع...
الموت للغرِّ المغامر، والجبان...
والمجد للشعب الذي يتحمل
الصدمات

من قصيدة للشاعر الفلسطيني
«سالم جبران»

عندما غادر طاهر رسمي غرفة «فؤاد» لم يكن يعلم ما يدور في ذهن زميله... لم يكن يعلم أن السيناريو انتهت كتابته منذ أيام، وأنه عرض بالفعل على دلال شوقي، لكنها رفضته بعصبية.

لم يشأ فؤاد أن ينقل لطاهر الأنباء، ويكفيه ما يشغل ذهنه من مشاكل ينوء بحملها الكثيرون.. غير أنه ما كاد يعود إلى مقعده، حتى دق جرس التليفون، وكان المتحدث هو فريد ذهني، هتف فؤاد في لهفة حاول أن يكبح جماحها أمام مرءوسه:

ـ إنت فين يا فريد؟

وما أن جاءه الرد حتى قال:

ـ أنا في انتظارك.

بعد ثلاث دقائق لا تزيد، كان فريد يجلس أمام رئيسه الذي بادره بالسؤال:

ـ إيه أخبار دلال؟

كان رفض دلال شوقي للفيلم الذي قدمه لها المنتج «عزوز جابر» رفضًا عصبيًا ليس مبنيًا على منطق سوى أن المصريين قد أصابتهم في تلك الأيام حمى اسمها الوطنية، لم تكن القصة التي قدمها عزوز إلى دلال من ذلك النوع الذي يستهدف تسلية الناس بأي كلام، وكان السيناريو

محكمًا، والمخرج شابًا حديث التخرج أتم دراسته في الولايات المتحدة الأمريكية وعاد إلى مصر تحدوه الرغبة في تقديم سينما متطورة... أما الأجر المعروض على دلال فكان مغريًا، أوصله عزوز جابر إلى عشرة آلاف جنيه مصري، وهو مبلغ لم تقبضه دلال عن أي فيلم لها من قبل... وبرغم حاجتها الشديدة إلى المال، خاصة بعد أن انفصلت عن زوجها الثاني الذي لم يدم زواجها منه لأكثر من عامين توقفت خلالهما عن العمل تمامًا، فلقد أصرت على الرفض، ولم يفهم عزوز جابر لم رفضت دلال الفيلم، ولم كانت عصبيتها في إعادة السيناريو مع سائقها الخاص، وعندما حاول مناقشتها في الأمر تليفونيًا، صاحت فيه بغضب:

- بقى يوسف شاهين بيعمل فيلم زي الأرض، وانت عاوز تعمل فيلم في الأحراش يا عزوز.

كان فيلم الأرض - المأخوذ عن رواية الكاتب المصري عبد الرحمن الشرقاوي التي تحمل نفس الاسم - قد أحدث ضجة في مصر بعد تقديمه في عرض خاص شاهده فيه جمهور كبير من الفنانين والنقاد والصحفيين والمثقفين المصريين والعرب، لم تكن الضجة بسبب الوجه السينمائي الجديد - وهي مذيعة التلفزيون الجميلة نجوى إبراهيم - الذي قدمه المخرج الشاب يوسف شاهين، ولا بسبب تلك المباراة الفنية الرفيعة التي قدمها نخبة من فناني مصر العظام - مثل محمود المليجي ويحيى شاهين والشاب عزت العلايلي - ولكن وقبل كل شيء، بسبب القصة التي تجري أحداثها في إحدى قرى مصر قبل ثورة يوليو عام ٢٥٩١، والتي تصور حياة الفلاح المصري المطحون تحت ربقة إقطاع شرس لا يرحم ولا يرعى حرمة أو دينًا... كان نجاح الفيلم بمثابة مؤشر لصناعة السينما، يشير إلى أن الحديث عن الناس ومشاكلهم، هو الطريق الصحيح لتقديم فن جيد ورفيع.

وفي الأيام الأولى من السبعينيات، كان الشعور العام في مصر مفعمًا بالتفاؤل بالرغم من كل ما كان يحيط بالبلاد من أخطار.. كان الناس يشعرون كلما عبرت مجموعة من الفدائيين إلى سيناء، أو احتدمت طلقات المدافع على ضفاف القناة، أو سقطت طائرة للعدو، بفيض من الحماس كان يتأجج في جوارحهم... وكانوا، كلما تحول الرأي العام العالمي تجاه القضايا العربية، وكلما اشترك شباب أوربا وآسيا مع شباب العرب في بعض العمليات الفدائية تعبيرًا عن تضامنهم معهم، أحس الناس أن شيئًا ما آت في الطريق، شيئًا سيمسح عنهم عار الهزيمة.

وكان الفنانون ـ بطبيعة الحال ـ هم أكثر الناس إحساسًا بهذا التفاؤل، ليس لأنهم ينتمون إلى هذه الفصيلة الحساسة من البشر، وليس لأنهم جزء من هذا الشعب... بل ـ ربما بالدرجة الأولى ـ لتلك الانفراجة التي كانت واضحة تمامًا في الرقابة على المصنفات الفنية، والتي ـ تحت ضغط جماهير المثقفين والفنانين ـ ظهرت في العديد من الأعمال المسرحية والسينمائية والتلفزيونية والإذاعية، التي كانت تتعرض لسلبيات النظام المصري وتنقده بقسوة.

في عدد الخميس ٣ يناير سنه ١٩٧٠ من جريدة الأهرام، نشر الرسام صلاح جاهين ـ وهو رسام شاعر وممثل وكاتب مصري جامع ـ رسمًا كاريكاتوريًا في بابه اليومي في الجريدة، يمثل شابًا يفتح نافذة بيته على مصراعيها، ويطل منها فاردًا ذراعيه في سعادة غامرة وهو يصيح: «هي دي بقى السبعينيات؟!».

وكانت المقاومة الفلسطينية قد استطاعت أن توصل صوتها إلى العالم، ووجد الشعراء العرب، والفلسطينيون منهم بالذات، متنفسًا

لهم في الصحف والمجلات المصرية.. ففي يوم ٥ يناير نشرت قصيدة للشاعر الفلسطيني «معين بسيسو» يقول فيها عن منظمة فتح:

يا فتح

هذا الخيط من الدم

هذا السلك الذهبي

«تليفون الثورة»

هي ذي السماعة يا فتح

آلو. آلو

العالم يسمعنا الآن

وكان البيت الأخير من القصيدة ـ العالم يسمعنا الآن ـ هو الإحساس الغامر الذي ساد ـ وبشكل واضح ـ المشاعر المصرية عمومًا، لا الفلسطينية فقط.

في تلك الأيام عرض المسرح المصري مسرحية «جان دارك» ـ البطلة الفرنسية التي تحولت إلى قديسة ـ ولعبت بطولتها الممثلة الشابة «مديحة حمدي»... وعرضت إحدى فرق الأقاليم المسرحية، مسرحية «بنك القلق» للكاتب المصري العظيم «توفيق الحكيم» وكانت المسرحية تنقد، وبشكل حاد، النظام المصري نقدًا مرا.. وبدأ الكاتب مصطفى محمود منعطفًا جديدًا في فكره وكتاباته عندما نشر في مجلة «صباح الخير» الأسبوعية مسلسلا بعنوان: «محاولة لتفسير عصري للقرآن»، وكان هناك افتتاح لفرقة جديدة للفنون الشعبية في مدينة طنطا بواسطة دلتا النيل، وحاكم التلفزيون في إحدى التمثيليات المباشرة، شخصية «سرحان البحيري» وهي شخصية الانتهازي في رواية «ميرامار» للروائي

المصري العملاق «نجيب محفوظ»، وقدمت إحدى دور السينما فيلمًا جديدًا للمخرج الفرنسي «ليلوش» بعنوان: «الحياة. الحب. الموت..» لاقى نجاحًا شديدًا بين الجمهور والنقاد على السواء.

وعندما حدثت موقعة «شدوان» ـ وهي جزيرة صخرية مصرية صغيرة في البحر الأحمر، والتي حاول الإسرائيليون غزوها فاندحروا أمام قوة مصرية قليلة العدد ـ انفجرت مشاعر الناس والتهبت حماسًا. وبدلًا من الكاريكاتير اليومي، نشر صلاح جاهين قصيدة يقول فيها:

يا مفتحين العين كلامي يسركم

ويا غفلانين نشـــوا علـى الدبـان

ولا كل من لها خارطة قالت أنا بلد

الـرك علـى المدنيـــة والعمــــران

وعــــمـــــار يـــــا مـــصــر.

عــمـــار بــنــيــلــك. وأمــتــك

عمار بأفراحــك وبالأحزان

آدي الــلــي دم الـجـنـدي

عـــلـــى الــصـــخـــر أثــبــتــه

بحروف من نــار في نهــار شدوان

* * *

في هذا الجو المتأجج بالحماس والأمل، تلقت دلال شوقي سيناريو فيلم بعنوان: «امرأة في الأحراش»! من المنتج عزوز جابر. ورغم أن العنوان بدا لها رخيصًا إلى أقصى حد، إلا أنها قرأت السيناريو، فثارت، ورفضت الفيلم.

كان عزوز جابر قد التقى بها في العرض الخاص لفيلم الأرض بالذات، جلس إلى جوارها وهمس في أذنها أن هناك مفاجأة تنتظرها في الأيام القادمة... وعندما سألته عن هذه المفاجأة، همس لها بأن مخرجًا جديدًا قد وصل حديثًا من الولايات المتحدة بعد أن قضى بها تسع سنوات يتعلم صناعة السينما، وأنه اختارها هي بالذات، كي تلعب بطولة فيلمه الأول الذي سينتهي السيناريو الخاص به في خلال أيام قليلة.. ولقد فرحت دلال حقيقة، كانت تمر بأزمة مالية مزمنة ازدادت بعد طلاقها، وكانت ـ في الوقت نفسه ـ تسعى إلى عمل يشغلها عن أزمتها العاطفية التي أثرت فيها تأثيرًا عميقًا بعد إتمام الطلاق.

وعندما همس عـزوز في أذنها أن «الولد الجديد» ـ يقصد المخرج ـ أحسن من يوسف شاهين، امتلأ قلبها بالغبطة، ومالت عليه ضاحكة وهي تقول:

ـ مفيش مانع يبقى نصه، ومجنون قده مرتين، بس يخرج فيلم زي الأرض.

كان هذا قبل أن يصلها السيناريو، وقبل أن تقرأه فتشعر أن مجرد عرض الفيلم عليها إهانة لن تغفرها لهذا المنتج الذي لا يعنيه سوى الربح فقط، ولم تكتف دلال بما قالته لعزوز في التليفون ـ وهي مشهورة بصراحتها وطول لسانها ـ بل راحت تشنع عليه في مجالسها الخاصة وسهراتها وبين أصدقائها وصديقاتها.. كانت كلما تذكرت الموضوع صاحت في سخرية:

ـ يوسف شاهين بيعمل الأرض، وعزوز جابر عاوز يا خدني في الأحراش.

وتنطلق ضاحكة، ولا يملك الآخرون سوى الضحك معها.

ولقد تلقى عزوز هجمات دلال في صمت.. كانت تصله كل كلمة تقولها عنه فيكتفي بالابتسام، حتى إذا مرت أيام اتصل بها تليفونيًا فصاحت فيه:

ـ عاوز إيه تاني يا عزوز؟

ـ مش عيب يا مدام اللي إنتي بتقوليه عليّ في كل مكان؟

ـ ومش عيب عليك تفكر تنتج فيلم زي ده، والبلد فيها اللي فيها؟

ـ إنتي قريتي السيناريو كويس؟

ـ اسمع يا عزوز...

قاطعها في حدة:

ـ إسمعي إنتي يا دلال.

ودهشت دلال، كانت هذه هي المرة الأولى التي يناديها فيها باسمها مجردًا، كادت تنفجر فيه أو تعيد السماعة إلى مكانها، لكن شيئًا ما جعلها تتراجع فصمتت، وساد الصمت بينهما لثوان جاء بعدها صوت عزوز من الطرف الآخر يسأل:

ـ إنتي معايا ولا قطعتي السكة؟

في تحد بارد ومستعد للانقضاض قالت دلال:

ـ إنت عاوز إيه بالضبط؟

ـ عاوزك تقعدي مع المخرج.

و... و... وامتدت المناقشة بينهما إلى نصف الساعة أو يزيد، وقال عزوز: إن الرواية ليست بالهيافة التي تظنها دلال، وإن فيها إسقاطات سياسية واضحة، وإنها لا تعالج قضية مصر وحدها، بل قضايا العالم الثالث كله.

وذهلت دلال...

كانت القصة التي قرأتها في السيناريو تحكي عن سيدة ذهبت إلى الأحراش لقضاء شهر العسل مع حبيبها الذي كان يهوى الصيد، ثم وقعت الكارثة عندما التهم أحد الأسود حبيبها أمام عينيها... كان هذا الأسد بالذات يشيع الرعب في أهالي الغابة وحيواناتها على السواء، وبرغم هذا فلقد أقسمت على الانتقام، لم تعد إلى بلادها، وظلت تعيش في الأحراش حتى انتقمت، قتلت الأسد، لكنها عندما أرادت العودة اكتشفت أنها ارتبطت بأهل الغابة الفقراء، ففضلت أن تبقى بينهم، تساعدهم في قتل أي أسد يحاول الاعتداء عليهم، أو إشاعة الرعب في حياتهم.

صاحت دلال وقد استفزت تمامًا:

ـ إسقاط إيه اللي انت بتتكلم عنه في قصة زي دي؟

حاول عزوز أن يتحدث فقاطعته:

ـ وإسقاط على إيه؟

ولم ييأس عزوز، ظل حتى وافقت على استقباله مع المخرج الشاب، وكاتب السيناريو، وافقت دلال على مضض حتى تتخلص من إلحاح عزوز جابر، أعادت السماعة إلى مكانها وكانت لا تزال تغلي بالغضب والضيق معًا، راحت تخطو في الغرفة جيئة وذهابًا، ثم توقفت في لحظة وقد تصاعد غضبها، صاحت في استنكار:

ـ أحراش؟!

بدا لها الأمر مضحكًا ومبكيًا في آن، وعادت إلى الصياح:

ـ أسد؟!

ثم فاض بها الأمر، فالتفتت نحو آلة التليفون وهي تصرخ:

أسد يا ابن الـ.......

قالتها بالفصحى ثم استغرقت في ضحك عصبي.

❋ ❋ ❋

انتهى فريد ذهني من حديثه مع رئيسه، وكان فؤاد يستمع مركزًا كل حواسه فيما كان يقال، كانت خبراته في هذا الحقل لا شك فيها. وكان من الممكن أن يضيف لواحد من مرءوسيه إضافة بسيطة للغاية، لكنها تحقق دائمًا نتائج أكيدة... ساد بينهما الصمت لثوان سأل فؤاد بعدها:

ـ وإيه الخطوة الجايه؟

وبدأ فريد يضع بين يدي رئيسه تصوره للخطوة القادمة مع دلال شوقي!

❋ ❋ ❋

برغم أن الإضاءة كانت مباحة نسبيًا في عام ١٩٧٠، فإن الطريق الصاعد إلى قمة جبل المقطم، كان مظلمًا تمامًا... وعندما اقترب «نديم هاشم» من ذلك المنحنى الخطر في أول الطريق، راح يضيء كشافات سيارته ويطفئها كي ينبه أية سيارة قادمة من أعلى الجبل... ورغم هذا، فوجئ نديم بسيارة أوتوبيس تنقض عليه بسرعة أذهلته، وكادت أن تحدث كارثة، لولا أنه استطاع أن يتلافى الاصطدام بالأوتوبيس بما يشبه المعجزة.. ثم مرق من جواره مواصلًا صعوده دون توقف.. كان منذ ثوان قاب قوسين أو أدنى من الموت المحقق، لكنه لم يضطرب ولم يغضب، بل إنه لم يتوقف لالتقاط أنفاسه برغم اضطرابه الداخلي، بل ضحك ـ ربما ليسيطر على الاضطراب ـ وهو يصيح محدثًا نفسه:

ـ يعني ما اموتش إلا في حادثة أتوبيس.

قال هذا وضغط بقدمه على مفتاح البنزين، فانطلقت سيارته تزأر صاعدة الطريق الجبلي بسرعة بدت غير عادية.

* * *

سكان الجبل قليلون، يعرف كل منهم الآخر... وأي غريب يصعد الجبل، لا بد وأن تتناقل الألسنة أنباء حضوره بسرعة البرق، لا بد وأن يتساءلوا عن سبب وجوده ولمن جاء ولماذا؟ انفرج الطريق أمامه بعد المنحنى فأضاء النور المبهر لسيارته كي يمنع أيًا من الهابطين بسياراتهم أو حتى بالأتوبيس، أن يروه... أصبح إحساسه بالأمن كإحساسه بالتنفس، يمارسه كحركة طبيعية في حياته لا تتطلب منه جهدًا أو تفكيرًا... وإذا كان قد أخبر زوجته أنه مسافر، فإن كل من يعرفهم يعلمون أنه الآن بعيد عن مصر.. فماذا لو صادف ورآه واحد من معارفه أو أصدقائه وهو يقود سيارته في الليل... صاعدًا إلى جبل المقطم؟

وصل إلى نهاية الطريق الصاعد واستقرت به السيارة فوق قمة الجبل.. لم ينحرف يمينًا عند الجامع الذي يستقبلك فور وصولك، بل استمر مندفعا بسيارته حتى مر بمركز الإطفاء، وما أن اجتازه ببضعة أمتار حتى هدأ من سرعته، وقبل أن يصل إلى نهاية الطريق المنحني جنوبًا نحو حافة الجبل المطلة على المعادي وحلوان، وأمام بيت رسام مصري بناه بيديه، أوقف السيارة وأطفأ الأنوار، وظل ساكنًا في مكانه.

كانت المنطقة معزولة، تبعد عن المدينة الآهلة بالسكان فوق الجبل بما يزيد قليلًا على الكليو مترين.. هبط من السيارة بعد دقائق كانت كافية لأن يمتحن المكان تمامًا، أغلق الباب وهو يتلفت حوله فلا يجد سوى حجارة الجبل والرياح تزغرد وهي تهب حاملة معها برودة شديدة، ضم

أطراف معطفه وعبر الطريق عدوًا إلى ڤيلًا كانت غارقة في الظلام، دلف إلى حديقة الڤيلًا الصغيرة، وخطا نحو الدرج الذي كان يعرف طريقه إليه جيدًا، صعد درجتين ومد يمناه متحسسًا الحائط المجاور للباب بحثًا عن زرّ الجرس حتى عثر عليه، ضغط الزر مرة، ثم انتظر لثوان وضغطه مرتين متتاليتين، استدار ليلقي نظرة أخيرة على المكان الذي بدا له موحشا تمامًا، سمع من خلف الباب زحف قدمين، وعندما فتح الباب اندفع إلى الدفء في الداخل وهو يهتف:

مساء الخير يا قرش.

كان القرش هو الذي فتح الباب، من خلفه وقف المتدين يجفف المياه عن وجهه ويديه وقدميه بعد أن توضأ استعدادًا لصلاة العشاء... خطا خطوتين في الممر الصغير، ثم انحرف يمينا لينفرج المكان أمامه، وكان الرجال كلهم هناك، منهم من استغرق في لعب الشطرنج، ومنهم من يشاهد التلفزيون، وكان الملازم في ركن بعيد يدفن رأسه في كتاب، وعندما صاح فيهم بتحية المساء، هب الجميع لاستقباله في سعادة، وكان أول من وصل إليه منهم، هو خليفة.

* * *

كان الغرض من زيارة نديم لرجال الضفادع البشرية، هو إشعارهم بأنهم ليسوا معلقين في الهواء.. فها هي الأيام تمضي ولا خبر هنالك عن الحفار، ولا شيء سوى ظلام، يكتنفه ظلام، لم يكن من الممكن أن يبدأ أحد أية حركة قبل أن يعرف إلى أين.. ولذلك، فلقد أمضى نديم مع الرجال ساعة تحدثوا فيها عن كل شيء، تحدثوا في السياسة، في الفن، نقدوا التلفزيون، وعلقوا على الصحف، وقرأ أحدهم قصيدة ألهمته إياها أحداث شدوان، وتبادلوا الضحكات، وآخر ما قيل من نكات.

تحدثوا في كل شيء، إلا المهمة التي كانوا من أجلها يقيمون في هذا المكان الموحش، برغم أنهم لا يعرفون عنها شيئًا، ولا يصنعون سوى الانتظار.

* * *

كانت مشكلة الحفار تزداد غموضًا يومًا بعد يوم، وربما ساعة بعد ساعة.. فرغم التغطية الكاملة للساحل الغربي لإفريقيا... فإن كل الرسائل بلا استثناء كانت تقول شيئًا واحدًا: إن أحدًا لم يسمع شيئًا عن حفار اسمه «كينتنج» أو أي حفار آخر.

ورغم قصر المدة، وقلة عدد الأيام، فإن المواطن «إبراهيم سيد فرج الله» كان قد وصل إلى دكار بالسنغال، واستطاع ان يجري عدة اتصالات بحثًا عن وظيفة مدرس.. وشملت اتصالاته ـ والغريب أنها جميعًا كانت سرية ومركبة ـ الساحل من دكار إلى أبيدچان عاصمة ساحل العاج مرورًا بكوناكري في غينيا.. وكانت رسائله التي تصل إلى طاهر رسمي يوميًا، تقول: «لا شيء».

أما «عمر بك» فلقد عقد مجموعة من الاجتماعات في بهو أحد فنادق «أكرا» عاصمة غانا، مع مجموعة لا بأس بها من المستوردين الذين كان أغلبهم من المهاجرين العرب.. كان عمر محمد السيد يحاول أن يجد سوقًا للجلباب المصري المصنوع من القطن، في مواجهة المنافسة الحامية للجلباب الصيني الذي بدأ يغزو المنطقة، وكان ـ إلى جانب هذا ـ يحاول أن يجد سوقًا لبعض المعلبات المصرية، خاصة الفول المدمس الذي برعت المصانع المصرية في تعبئته.. كما كان يحمل عروضًا لتوريد ثلاثة أصناف من الجبن، وعرضًا بتوريد البسطرمة التي تعشقها الجاليات الأجنبية في تلك البلاد.

ولقد كللت مهمة «عمر بك» ببعض النجاح في الأيام الأولى، وإن كان الأمر يحتاج إلى المزيد من الاجتماعات والمساومات.. غير أن المشكلة التي كانت تواجهه ـ كما تواجه إبراهيم سيد فرج الله ـ هي أن الجاليات المصرية في هذه البلاد كانت قليلة إلى حد يبعث على الضيق والدهشة.. ففي بعض البلدان، كانت الجالية لا تزيد على العشرة، مضافا إليهم موظفو السفارة أو القنصلية... ولقد أرسل «عمر بك» عددًا من التلكسات بشأن هذه العروض إلى مقر شركته في القاهرة.. تحدثت التلكسات عن القماش والتفصيل والبسطرمة والجبن وعلب الفول، ولكنها، فور وصولها كانت تنقل إلى طاهر رسمي الذي كان يحل شفرتها ليجد فيها ألا شيء هناك.

وكان طبيعيًا أن تحمل رسائل المواطن أحمد زين العابدين الذي وصل إلى مقديشو بالصومال، بعد أدائه العمرة بأربع وعشرين ساعة، نفس المعنى.

* * *

أما فرناندو بالديرا، الذي وصل إلى ميناء «بونتا دلجادا» في جزيرة سان ميجيل بالأزورس، فلقد غلف الصمت رحلته تمامًا، كان الرجل، منذ وصوله، دائب الحركة فيما بين مزرعة الأناناس الصغيرة التي يملكها على سفح أحد الجبال الدائمة الخضرة، وبين الفندق الذي استأجر فيه غرفة كانت تطل على الميناء الصغير مباشرة... كانت له علاقات طيبة ببعض سكان الجزيرة، خاصة هؤلاء الذين يعملون لحسابه في المزرعة من الفلاحين.. لكن علاقته بضابط البوليس خوليو فارجاس كانت ذات طابع خاص، ولقد تهامس البعض أن سبب هذا هو تريزا شقيقة الضابط خوليو، والتي كانت ترتدي ثيابًا تجلب خصيصًا لها من لشبونة، وبعضها كان مصنوعًا في أوربا. وتهامس البعض الآخر بأن السبب هي تلك

الهدايا التي كان يجلبها فرناندو معه كلما زار الجزيرة لصديقه الضابط... وأيًا ما كان الأمر، فلقد كان فرناندو يقضي كل لياليه مع خاليو وتريزا دون حرج أو قلق.. فلقد كان مطلوبًا من الرجل أن يلزم الصمت تمامًا، وألا يرسل أي برقيات إلا إذا سمع عن الحفار شيئًا أو رآه بعينيه.. لذلك، فلقد انقضى يومان ـ منذ وصوله إلى الجزيرة ـ وكان الصمت هو رسالته الوحيدة.

* * *

وحققت لُونا بايرن نجاحًا متميزًا عندما استطاعت أن تحصل على معلومات كاملة عن القاطرة الهولندية «چاكوب ڤان هيمو كيراك»، بل استطاعت بطريقة تبدو غريبة أن تحصل على نسخه من الرسوم الهندسية الخاصة بهذه القاطرة.

وعندما دخلت لونا إلى صالة المطار لتستقل الطائرة إلى باريس ومنها إلي «أبيدچان» لمتابعة رحلة رواد الفضاء الأمريكيين في دول إفريقيا، لمحت «زاكري» ـ أو زكريا ـ هناك، والغريب، أنه كان سيستقل نفس الطائرة إلى باريس، كانت مصادفة غريبة بحق، لكن الأغرب منها، أنه بالرغم من الحب المتأجج في قلب كل منهما، فإنهما لم يتبادلا حتى التحية، وعندما ركبا الطائرة جلس كلٍ منهما في مقعد بعيد عن الآخر... كل ما حدث بينهما من صلة، أن «لُونا» نهضت إلى دورة المياه بعد إقلاع الطائرة من أمستردام بخمس عشرة دقيقة، ثم عادت إلى مقعدها ولم تغادره حتى وصلت الطائرة إلى باريس.. ولم يبد على زاكري أنه لاحظ هذا، غير أنه بعد عشرين دقيقة من مغادرة لُونا لدورة المياه، نهض هو الآخر إليها، ولما كان الحمام مشغولًا، فلقد وقف ينتظر حتى خلا من شاغله ثم دخل.

ما أن أغلق الباب خلفه حتى استدار نحو دولاب صغير يحوي بعض أدوات الحمامات، أزاح بعض قطع الصابون وزجاجات الشامبو الصغيرة، فبدا له في عمق الدولاب مظروف سميك بعض الشيء... في خفة أخذ المظروف ودسه في جيب سترته الداخلي، ثم أعاد كل شيء إلى مكانه في حذق، وأغلق الدولاب، وجذب ذراع السيفون، ثم فتح الباب وغادر الحمام.

في مطار باريس، وبرغم كل المحظورات، لم يملك كل منهما ـ لونا وزاكري ـ إلا أن يودع الآخر من بعيد بنظرة سريعة... ثم اتجهت لونا إلى حيث البوابة التي تؤدي إلى الطائرة المتجهة إلى أبيدچان بساحل العاج، بينما انتقل زكريا إلى مطار آخر كي يستقل طائرة شركة مصر للطيران العائدة إلى القاهرة.

في مساء ذلك اليوم كانت لونا قد استقرت في غرفتها بالفندق... كانت حريصة كل الحرص، حتى من قبل مغادرتها أمستردام، أن تحجز غرفة في ذلك الفندق الجديد الذي بنته إسرائيل في أبيدچان تعبيرًا عن الصداقة بين الدولتين ـ إسرائيل وساحل العاج ـ وكان الفندق يستعد لاستقبال رواد الفضاء الأمريكيين، كما كان يستعد لإقامة حفل استقبال هائل لهم.

ومنذ لحظة وصولها تحركت «لونا بايرن» بسرعة، كانت تريد أن تحظى بتغطية كاملة لزيارة رواد الفضاء فاتصلت برجال الأمن وبعض الوزراء... كما اتصلت بالسفارة الأمريكية، والتقت بصحفي ألماني كان قد جاء لنفس الغرض.. غير أن كل اتصالاتها التي تمت في خلال ثمان وأربعين ساعة، أوصلتها إلى نتيجة واحدة، ووصلت هذه النتيجة إلى القاهرة، وكانت تقول: لا حديث ولا خبر ولا شيء عن أي حفار سوف يصل إلى أبيدچان في المستقبل القريب أو البعيد.

* * *

أين ذهب الحفار إذن؟!

هل اختفى بين أمواج المحيط؟ أم أنه رسا على شاطئ لا وجود له على الخرائط العالمية للكرة الأرضية؟!

أسئلة كانت بلا جواب، أسئلة جعلت الرجال في القاهرة يؤمنون أن هذا الضباب الأسود الكثيف الذي أطلقته إسرائيل حول حركة الحفار كينتنج، يخفي وراءه الكثير... وكان معنى كل هذا الذي وصلهم، أنهم سوف يفتحون عيونهم ذات صباح أو مساء ليجدوا الحفار أمامهم في مكان ما.. وأنه سوف يصبح عليهم في هذه اللحظة، أن يتحركوا بسرعة حتى يلحقوا به قبل أن يتحرك من جديد.

كانت أيامهم تمضي في بطء قاتل وثقيل وهم ينتظرون، غير أن نفس تلك الأيام، كانت مشحونة بالمهام والعمل، بما لا تكفي له الأربع والعشرون ساعة التي يحويها اليوم كله.

* * *

كان ضابط المخابرات «فريد ذهني» يجلس في مكتبه جامدًا صامتًا وقد ركز عينيه على التليفون الموضوع أمامه على مكتبه.. كان يعرف الفنانة «دلال شوقي» جيدًا، كما كان من أشد الناس إعجابًا بشخصيتها... فهي، بالرغم من عصبيتها وحدتها، تحمل بين جوانحها قلب طفل رقيق، ثم.. ثم إنها كانت عاشقة لمصر عشقًا يبدو لأول وهلة، كأنه نوع من الجنون، أو المرض الغريب.

ولقد فعلت دلال الكثير ـ من قبل ـ من أجل مصر، فعلته في صمت الصوفي المتعبد... وعندما أخطأ فريد ذات يوم وحمل إليها «هدية» رمزية من جهاز المخابرات المصري، كاد هو ـ كما كاد الجهاز نفسه ـ أن يخسراها إلى الأبد... نظرت إليه ليلتها، كما نظرت إلي «القازة» الباريسية التي حملها إليها وقالت في حزن:

ـ رجّع الڤازة يا فريد.

همَّ بأن يبرر فاستطردت وقد احتدمت نبرتها:

ـ قول لهم إن دلال ما بتخدمش بلدها بفلوس.

أشار إلى الفازة وهمَّ بالحديث فصرخت:

ـ ولا بهدايا.

صمت فريد ليلتها، ودمعت عيناها فنهضت تداري عنه الدمع وهي تردد:

ـ إحنا اتربينا على خير البلد دي، ولسه بناكل من خيرها، وبنشرب من خيرها، وبنتدلع عليها.

اختنق صوتها فتوقفت عن الحديث والحركة، ثم استدارت نحوه وهي تقول في حرارة:

ـ وبعد كده مش عاوزينا نقول لها كتر خيرك إلا لما نقبض.

كان الموقف ليلتها يشبه مشهدًا سينمائيًا رومانسيًا، كان موقفًا غير «واقعي» وبرغم هذا، فلقد اقتنع فريد بأن هذه هي «دلال» دلال المجنونة دائمًا، المفلسة دائمًا، الفنانة أبدًا.

نظر فريد في ساعة يده وبدا عليه القلق، أشعل سيجارة، وقبل أن ينفث دخانها كان جرس التليفون يدق، اختطفت يده السماعة، وما كاد يلبي النداء، حتى جاءه الصوت من الطرف الآخر يحكي في سرعة وترتيب... وظل فريد يستمع في صمت وانتباه شديدين، لا يقول شيئًا سوى بعض الكلمات التي تنبئ محدثه أنه يتابع معه الحديث: «آه.. كده.. كويِّس.. ضروري» ثم إذا ما انتهت المكالمة قال: «شكرًا» ثم وضع السماعة وظلت يده ممسكة بها لا تبرحها.

كان الآن في حاجة إلى ثوان يعيد فيها ترتيب ذهنه قبل أن يجري مكالمته المشهودة، والتي ظل يخطط لها منذ أيام، حتى إذا استشعر أنه أصبح جاهزًا، رفع السماعة، وطلب رقمًا.

* * *

دق جرس التليفون في بيت الفنانة «دلال شوقي» كانت دلال تجلس بجوار التليفون وكان التلفزيون يعرض أمامها إحدى التمثيليات، رفعت السماعة دون أن تنطق، جاءها صوت فريد من الطرف الآخر، فاعتدلت وهي تهتف:

ـ وشك ولا وش القمر يا أستاذ... عاش من سمع صوتك.

ضحك فريد على الطرف الآخر ضحكة عالية مرحة وهو يقول:

ـ سيبك من الأسلوب ده وقولي لي أخبارك إيه؟

ـ اقرأ الجرانين وانت تعرفها.

ـ واللي مش في الجرانين؟

ـ لسه متطلقة جديد وخالية شغل.

ـ بسيطة.

ـ على أنهي فيهم؟

ـ الاتنين.

ـ عندك عريس؟

ـ إنتي تؤمري.

ـ عاوزه أمثل.

ـ غالي والطلب رخيص.

ـ بطل كلامك الحلو ده وقولي إنت عاوز إيه؟

ـ عاوز أشوفك.

ـ تبقى فيه مصيبة.

ـ فال الله ولا فالك.

ـ أنا مش عاوزة وجع قلب.

ـ وإحنا عمرنا وجعنا قلبك؟

أحست دلال أن في الأمر شيئًا، اعتدلت في مكانها وهي تميل نحو التلفزيون فتغلقه:

ـ فريد.. قول لي إنت عاوز إيه وخلصني؟

ـ الساعة خمسة ونصف كويس؟

ـ عندي ناس الليلة.

ـ حاتلحقي ترجعي لهم في ميعاد العشاء.

ـ وإيش عرفك إنهم حايتعشوا يا فريد؟.

قالت هذا، وانفجر الاثنان في ضحك مرح.

* * *

في الخامسة من عصر ذلك اليوم، كانت ثمة سيدة شقراء تضع على عينيها نظارة سوداء تغادر العمارة رقم ١٦ بشارع رفعت الباجوري بالزمالك... لمحها البواب الجالس على مقعده في مدخل العمارة، بعيدًا عن تيار الهواء البارد، فمال على زميله وهو يمد البصر من خلال زجاج الباب الكبير نحو السيدة التي انطلقت إلى الشارع:

ـ ودي كانت عند مين؟

غمغم زميله وهو يمد البصر من خلال زجاج الباب الكبير نحو السيدة التي انطلقت إلى الشارع:

ـ أنا ما شفتهاش وهي داخله.

ـ تبقى كانت عند الست دلال.

عند ناصية شارع رفعت الباجوري، كانت الشقراء تشير إلى تاكسي فتوقف.. كان الشارع خاليًا، والبرد شديدًا، والسماء ملبدة بالغيوم، دلفت السيدة الشقراء إلى التاكسي وهي تهتف:

ـ المعادي يا أسطى.

عندما وصلت السيارة إلى المعادي عند كورنيش النيل، انحرفت إلى اليسار وانطلقت في الطريق المظلل بالأشجار حتى عبرت مزلقان السكة الحديدية لمترو حلوان وهتفت السيدة:

ـ كفاية هنا.

توقف التاكسي عند ناصية الميدان الصغير، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة وعشرين دقيقة، عندما شوهدت السيدة الشقراء تعبر الميدان نصف المظلم إلى شارع جانبي، ما أن خطت إلى الشارع حتى رفعت النظارة عن عينيها، واتجهت من فورها إلى ڤيلّا صغيرة تحيط بها حديقة يبدو الاعتناء بها واضحًا.. دفعت باب الحديقة الخشبي وخطت في الممر الممهد، صعدت الدرج ودقت الجرس، ففتح الباب وكان فريد هناك.

ـ مساء الخير يا فريد.

قالتها وهي تندفع إلى الداخل، فهتف فريد ضاحكًا وهو يشير إلى الباروكة الشقراء التي كانت دلال تضعها على رأسها:

ـ إيه اللي انتي عاملاه في نفسك ده؟

ـ ما انفعش بلوند؟

أغلق الباب وعاد إليها:

ـ تشربي إيه؟

ـ خش في الموضوع وخلصني.

ـ عاوزين ننتج لك فيلم.

ألقت بنفسها فوق أحد المقاعد وهي تخلع الباروكة متأففة:

ـ يا أخي قلت لك خش في الموضوع وبلاش وجع قلب.

ـ ما هو ده الموضوع.

كانت دلال تعرف أسلوب فريد تمامًا، كانت تعرفه عندما يتحول ـ على حد قولها له ـ من إنسان إلى ضابط مخابرات، هبت واقفة عندما سمعت جملته الأخيرة وكأنها لدغت، أضاءت الأنوار كل الساحة أمامها فجأة، صاحت في غضب جامح:

ـ إوعى تقول لي امرأة في الأحراش؟

هز فريد رأسه إيجابًا وهو يبتسم.. ارتجفت دلال كمن أصابتها صاعقة، هتفت بصوت مبحوح:

ـ إنتو تعرفوا عزوز جابر؟!

ـ عزوز ما لوش دعوة.

ـ أمال إيه اللي.........؟!

ـ إهدي وانتي تعرفي كل حاجة.

انحنت على الباروكة فاختطفتها وهي تندفع نحو الباب صائحة:

ـ مش عاوزه أعرف حاجة.

ـ دلال.

التفتت إليه في غضب:

ـ إنتو مش حاتبطلوا بقى.

ـ نبطل إيه؟

عادت إليه وهي تتحدث من بين أسنانها:

ـ بالذمة ده فيلم تنتجوه والبلد فيها اللي فيها؟!

ـ طب إهدي شوية.

ـ وبعد ما أهدى يا فريد؟!

ـ حاتوافقي.

وصمتت دلال وهي تحملق فيه، كان يعرف الآن أنه استفز حب استطلاعها، صمت هو الآخر واتجه نحو أحد المقاعد وجلس عليه وأشعل سيجارة، كان يتظاهر بالهدوء، لكنه لم يكن هادئًا، كل ما كان يعنيه أن تقتنع «دلال شوقي» أولًا، وإذا اقتنعت هان بعد ذلك كل شيء، كان يعلم أنه امتص الجزء الأعظم من انفعالاتها، وأن حديثه معها الآن لا بد وأن يكون مركزًا، ذا مغزى واضح، راح يرتب ذهنه بسرعة وهو يرقب دلال التي تحولت فجأة إلى طفلة متذمرة، سارت إلى المقعد المقابل وهي تغمغم:

ـ أنا حاسمعك، بس إذا كنت فاكر إني حاوافق تبقى متفائل.

هم بالحديث فاستطردت منذرة:

ـ تبقى ما تعرفنيش لسه.

ساد الصمت لثوان جاء بعدها صوت فريد هادئًا:

ـ الكلام اللي حاقولهولك دلوقت، مش المفروض إني أقوله، وغلط

إني أقوله، وعزوز جابر ما يعرفش عنه حاجة أبدًا، لا هو ولا كاتب السيناريو ولا أي حد من اللي بيشتغلوا في الفيلم... الموضوع خطير يا دلال ومحتاج لسرية مطلقة لأن كرامة البلد بتتوقف عليه.

لمعت عينا دلال، ولاحظ فريد ذلك، فأحس أنه أصاب الهدف... همست وهي تميل نحوه:

ـ كرامة البلد حتة واحدة!

ـ إنتي اتعودتي مني إني أبالغ؟

التهبت دلال الآن بالحماس:

ـ إيه الحكاية يا فريد؟

ـ الفيلم مش عاجبك؟

ـ طبعًا.

ـ وإذا كان اسمه الحقيقي حاجة تانية؟

ـ ودي تفرق؟

ـ كتير قوي.

ـ طب إيه هو اسمه الحقيقي؟

ـ الحفار كينتنج.

صمتت دلال، لم تفهم شيئًا، غير أن هذه كانت هي المرة الأولى التي تسمع فيها اسم ذلك الحفار، الذي أضاعت من عمرها شهرين كاملين، في سبيل القضاء عليه.

الفصل الخامس
الحفار يظهر أخيرًا

«ولقد كان لأجهزة الخدمة السرية أثر على التاريخ يفوق ما كان لها من أثر على المؤرخين، فوراء كل حدث عظيم، ووراء رجال الدولة الذين صاغوا هذه الأحداث، يقف الجواسيس».

«لاديسلاس فاراجو»
«مؤرخ مجري الأصل أمريكي الجنسية»

تلقى طاهر رسمي نبأ موافقة دلال شوقي على السفر، فاجتاحته موجة عارمة من التفاؤل والنشاط.. ها هي عناصر الخطة الثالثة تكتمل في الموعد، ولا بد من بدء الحركة فورًا، برغم عدم ظهور الحفار.

فتح أحد أدراج مكتبه، وأخرج منه دوسيهًا ذا لون أزرق، علت وجهه ابتسامة وهو يقلب فيما يحويه الدوسيه من أوراق، لديه إحساس غامض بأنهم لن يحتاجوا لهذه الخطة الغريبة... وإذا كان تقديره أنه لا بد للحفار ـ على الأقل ـ من وقفتين على الساحل الغربي قبل أن يأخذ طريقه إلى جنوب إفريقيا، فماذا لو أفلت ووصل إلى مدينة الكاب؟ وماذا لو أفلت أيضًا ودخل البحر الأحمر؟

إنه الآن محاصر محاصرة كاملة ومحكمة في نفس الوقت، كانت الخطط الموضوعة لمراقبته ومتابعته تؤكد أنه لن يفلت مهما حاول الإسرائيليون طمس معالم حركته، ولكن... ألا يفلت من المراقبة شيء، وأن يستطيع نديم الوصول إليه وتدميره شيء آخر.

كان لا بد إذن من وضع خطة للتعامل مع الحفار «كينتنج» في عرض المحيط، بعيدًا عن المواني والسواحل، في تلك المياه الممتدة حول الساحل الإفريقي حتى مضيق باب المندب... وإذا كان كل ما يصنعونه ويبذلونه الآن هو لتجنيب القوات المسلحة المصرية من التعرض له، فإن التعامل مع الحفار بواسطة إحدى قطع الأسطول المصري يصبح أمرًا غير وارد أصلًا... فكيف إذن؟

منذ اللحظة الأولى أيقن طاهر أن الأمر يحتاج إلى خطة خيالية، خطة تصلح لأحد الأفلام السينمائية، ولا تصلح للتنفيذ على الطبيعة... ولقد جاءته الفكرة ذات ليلة اختنقت فيها قنوات الفكر في رأسه، كان متعبًا ووحيدًا، لم يكن عزت بلال هناك... راح يسير في الغرفة جيئة وذهابًا وقد انعقدت سحب الدخان في سماء الغرفة، امتدت يده ذات خطوة إلى جهاز التلفزيون الذي وضعوه في مواجهة مكتبه فضغط على المفتاح، كان التلفزيون يعرض في السهرة فيلمًا من أفلام القرصنة؛ تجري أحداثه في القرن الثامن عشر، ألقى بنفسه فوق الفراش وراح يتابع الفيلم بعينين نصف مغمضتين، حتى إذا كانت لحظة من تلك اللحظات التي تلمع فيها الأفكار ـ تداعيًا ـ في ذهن الإنسان، انتفض واقفًا، ألهمته أحداث الفيلم فكرة غريبة... وهكذا راح ليلتها يضع الخطوط الأولى لتلك الخطة التي أطلق عليها عزت بلال فيما بعد اسم: «الخطة الجهنمية».

كانت الخطة تعتمد أساسًا على وجود بعثة سينمائية لتصوير فيلم تجري أحداثه في الأحراش، وقع الاختيار على نيجيريا لأنها آخر المحطات المنطقية لوقوف الحفار على الساحل الغربي، ولأنها دولة صديقة، ولأن شيئًا لن يتم على أراضيها، بل إن هذه الخطة بالذات، إذا قدر لها التنفيذ، فلن تتم على أي أرض لأية دولة... بل ستتم في عرض المحيط، في المياه التي تملكها كل دول العالم بلا استثناء، في المياه الدولية.

وهكذا، ما إن اكتملت الخطة بعد استشارات ولقاءات ومداولات تمت مع «المصانع الحربية» من ناحية، وخبراء من القوات البحرية من ناحية ثانية... حتى تقرر أن يبدأ التحرك في خلال عشرة أيام.

وكان هذا اليوم، الذي تلقى فيه طاهر رسمي نبأ موافقة دلال على الاشتراك في الفيلم، هو اليوم العاشر، وهكذا، أصبح عليه أن يعطي الأمر للعجلة بأن تدور فورًا.

* * *

أكثر ما شغل دلال شوقي في الأمر كله أن عزوز جابر كان يمر في تلك الأيام بضائقة مالية بعد أن ضرب في فيلمه الأخير الذي سقط سقوطًا فاحشًا ولم يعرض إلا لأسبوع واحد، وعندما عرض عليها عزوز القيام ببطولة فيلم «امرأة في الأحراش» ظنت في البداية أنه دبر «قرشين» لينتج فيلمًا يقيله من عثرته، وعندما حدثها عن المخرج، كان كل ما طاف بعقلها أنه «اصطاد» مخرجًا مبتدئًا كي يخرج له الفيلم بأقل تكاليف ممكنة، وكانت هي على استعداد لأن تتنازل عن جزء من أجرها كي تساعده في الوقوف على قدميه في السوق... لكن الذي أذهلها أن الفيلم الذي عرض عليها، مهما كان رأيها فيه، سيتكلف مبلغًا باهظًا من المال، فمن أين جاء عزوز بهذا المال؟

تصاعدت الأسئلة في رأسها وتزاحمت عندما أصر عزوز وألح وعرض أجرًا مرتفعًا بدلًا من مطالبتها بتخفيض أجرها، وظلت الأسئلة بلا إجابة حتى التقت بالضابط فريد ذهني، فأجاب على البعض منها، وترك البعض الآخر معلقًا بالحيرة في رأسها.

كانت الآن تجلس أمام مرآتها تضع الخطوط الأخيرة في مكياجها استعدادًا لاستقبال ضيوفها، عادت وقد عرفت أشياء عن الحفار «كينتنج» وأنها ذاهبة كي تصور فيلمًا في الأحراش، وعرفت أيضًا ـ بل هي موقنة أشد ما يكون اليقين ـ أن تصوير هذا الفيلم سيساعد البلد في محنتها، لكن: «طب إحنا رايحين نعمل إيه؟».

هكذا سألت فريد ذهني منذ ساعات ثلاث وهي تحاوره في تلك الڤيلّا الغامضة في المعادي، وقتها لم يرد فريد، بل ابتسم.. كان يعلم أن سيلًا من الأسئلة سينهمر عليه... استفزتها ابتسامته فصاحت وهي تضرب في أرجاء المكان على غير هدى:

ودلف الثلاثة من باب آخر واختفوا فيه، وكان طاهر يحمل في إحدى يديه مجموعة من الخرائط، وفي اليد الأخرى حقيبته السوداء التي بدت مكتظة وثقيلة بما فيها من أوراق.

كان آخر ما فعله طاهر وهو يدلف من الباب الآخر، هو النظر في ساعته، وكانت تشير إلى التاسعة وخمس وعشرين دقيقة.

في نفس هذا الوقت، كانت ثمة سيارتان آتيتان من جهتين مختلفتين إلى الطريق المؤدي إلى مبنى جهاز المخابرات المصري... ولقد ظهرت أولاهما في التاسعة وست وعشرين دقيقة، وكانت آتية من ناحية ميدان القبة، لكنها، وقبل أن تصل إلى أول السور المحيط بالمبنى انحرفت إلى اليسار، وخاضت في طريق غير ممهد كان يتعرج بين الحقول الممتدة حتى اختفت... ثم ظهرت السيارة الثانية وكانت آتية من الناحية المقابلة، ولقد مرت هذه السيارة بالباب الرئيسي لمبنى جهاز المخابرات المصري لكنها لم تتوقف ولم تدخل، بل استمرت في سيرها بحذاء السور حتى انتهت، فانحرفت إلى هذا الطريق الغائص وسط حقول مترامية.

فتحت البوابة الحديدية فدلفت السيارة الأولى إلى الفناء الصغير وكان الرجلان في انتظارها، في عمق الفناء توقفت، وهبط منها راكبان يرتديان الملابس المدنية، لكنه كان واضحًا تمامًا أنهما عسكريان... قبل أن يتحركا لمصافحة الرجل الذي أدى لهما التحية العسكرية برغم ملابسه المدنية، دخلت السيارة الثانية فأغلق الباب الحديدي على الفور، وهبط من السيارة راكب واحد... كان في حوالي الخامسة والأربعين من عمره، يحمل حقيبة قديمة، ويضع على عينيه نظارة طبية... وما إن رآه أحد الراكبين حتى هتف صائحًا، وتصافح الاثنان ضاحكين وكل منهما يؤكد للآخر أنه لم يكن يعلم بحضوره... وسرعان ما دلف الزوار الثلاثة إلى نفس الباب الذي دخله طاهر ورفيقاه، وساد بعدها الصمت تمامًا.

قالتها بفرنسية سليمة تعلمتها منذ الطفولة... لثم عزوز يدها وقادها في رفق إلى حيث كان مدحت صبري يقف في استقبالها، ما إن وقعت عيناها عليه حتى سرت في جسدها قشعريرة لم تدر لها سببًا، كان عزوز يتحدث بلا توقف فلم تسمع من حديثه شيئًا، مد لها مدحت يده فسلمته يدها تسليمًا، تساءلت متى رأت هذا الوجه من قبل؟ قال مدحت وهو يفسح لها الطريق لتجلس في الصدارة:

ـ أنا كنت مستني اللحظة دي من زمان.

صاحت ضاحكة:

ـ وإيه اللي خلاك تستنى؟

وضج الجميع بالضحك، وهكذا بدأ الحديث.

* * *

في صباح اليوم التالي، كان طاهر رسمي ومعه عزت بلال ونديم هاشم، يستعدون لعقد اجتماع أحيط ـ كالعادة ـ بسياج مطلق من السرية والكتمان حتى في داخل جهاز المخابرات نفسه... ولذلك، فلقد شهد المبنى الذي تقرر أن يعقد فيه الاجتماع نشاطًا ملحوظًا منذ الصباح المبكر، وخلا فناؤه الصغير إلا من رجلين كانا يقفان متباعدين دون أن يتبادلا حديثًا... ران السكون إلا من صوت خطوات الحارس خارج الباب الحديدي المغلق، وعندما نفذ طاهر وعزت ونديم من أحد الأبواب الداخلية إلى الفناء، تلقاهم أحد الرجال بترحاب هامس، سأله طاهر في صوت خافت:

ـ كله جاهز؟

ـ تمام يا فندم.

ـ الضيوف وصلوا.

ـ طب إيه اللي بيضحكك؟

ـ أصلي عاوزة أبخرك قبل ما تنزلي لهم.

قالت حميدة هذا واختفت قفزًا قبل أن تلحقها الفرشاة التي قذفتها بها دلال، لم تكن دلال تطيق الحديث عن الحسد والبخور وما إلى ذلك، كانت موقنة أن لا شيء فيها يدعو للحسد، كانت جميلة حقًا، ولكن هناك ألوف الألوف من هن أجمل منها، وهي موهوبة، نعم... لكن الموهبة هبة من الله لا يؤثر فيها حسد أو عين... وبرغم كل هذا، فلقد التفتت نحو المرآة، وراحت تحملق في وجهها فأصابتها دهشة بالغة.

منذ طلاقها الأخير كانت تعيش أيامًا تعيسة، كانت تتزين فلا تشعر للزينة بمعنى، وكانت تضحك فلا تشعر للضحك بصدى في صدرها، وهي الآن ليست جميلة جمالًا أخاذًا، لكن ثمة شيئًا يبدو في تلك النظرة اللامعة في عينيها، والتي يحدثها عنها الأصدقاء كلما كانت تحلق في سماوات بعيدة عن واقع الأرض... ولقد ابتسمت راضية، ونهضت مغادرة الغرفة، ولم تكن خطواتها كما تعودت، راحت تتساءل وهي تتجه نحو السلم المؤدي إلى البهو في شقتها: من هي؟ وما الذي ألم بها؟ وأي شيطان يركبها فيجعل للحياة طعمًا، فقط... عندما تقدم على عمل مجنون، على مغامرة أو زواج؟

عندما كانت تهبط السلم في خطوها السابح نحو البهو الذي يجلس فيه عزوز مع المخرج وكاتب السيناريو، هب عزوز مرحبًا في حرارة:

ـ أهلًا. أهلًا. أهلًا.

مدت له يدها:

ـ بون سوار.

- دلوقت يقول لي ما لكيش دعوة وما تشغليش بالك.. طب إزاي؟

- زي الناس.

- تكونش فاكرني دُمية بتلعبوا بيها؟

- إذا كنت أنا نفسي ما اعرفش.

صرخت محتجة:

- فريد.

- أقسم لك بالله العظيم ما أعرف.

حملقت فيه غاضبة، لكنه استطرد:

- ومش المفروض أعرف، ومش لازم أعرف.

ساد بينهما الصمت لثوان، أحست بالخجل، كانت هذه هي المرة الأولى التي يقسم فريد على أمر ما... تقدم منها محاولًا الحديث.. لكنها أوقفته بإشارة من يدها:

- آسفة يا فريد... أنا مصدقاك.

ولقد صدقته فعلًا... ربما لأنه كان يبدو دائمًا شديد الصدق، وربما لأنها كانت تريد أن تصدقه.

وها هي الآن ذاهبة إلى حيث لا تعلم لتفعل ما لا تدري.

* * *

سمعت دقتين على باب غرفتها فالتفتت، رأت حميدة - وصيفتها وصديقتها - تقف هناك وعلى وجهها ابتسامة شديدة الاتساع:

- فيه إيه يا حميدة؟

صعد الرجال الثلاثة سلمًا ضيقًا قادهم إلى ممر غامض التصميم، كان الممر خاليًا تمامًا، يفضي في نهايته إلى باب غرفة مغلق، تقدم منه أحد الرجلين، وكان يسبق الضيوف، ودق عليه دقتين، فتح بعدها الباب للزوار كي يدخلوا... وهناك، وجدوا طاهرًا وزميليه في انتظارهما بخريطة كبيرة شغلت نصف مساحة واحد من حوائط الغرفة الواسعة. وعدد لا بأس به من الخرائط والرسوم الهندسية كانت موضوعة فوق مائدة الاجتماعات.

أما الرجال الثلاثة فكانوا: رئيس هيئة أركان حرب القوات البحرية، وكبير المهندسين بها، أما الثالث، صاحب الحقيبة والنظارة الطبية، فلقد كان أستاذًا للهندسة البحرية في إحدى الجامعات المصرية.

* * *

كان الرجال الثلاثة ـ بطبيعة الحال ـ يعرفون معنى السرية وضرورتها في زمن حرب كالذي تمر به البلاد، لذلك... فعندما طرح عليهم طاهر مشكلة قاطرة وحفار لهما مواصفات خاصة، بعضها أكيد والآخر تقريبي، فإن أحدًا منهم لم يسأل، بل ربما لم يفكر في السؤال: أي قاطرة هذه، وأي حفار هذا.

بدأ العمل فور وصولهم ودونما انتظار لأكواب الشاي وفناجين القهوة التي تعود المصريون على تناولها في أثناء العمل... ولو أننا فرضنا أن قاطرة تسحب حفارًا لهما هذه المواصفات، قد غادرا الشاطئ الشرقي لكندا في طريقهما إلى البحر الأحمر، فهل يستطيعان ـ حتى ولو كانت القاطرة مزودة بكميات إضافية من الوقود ـ عبور المحيط الأطلنطي إلى الشاطئ الغربي لإفريقيا مباشرة، أم أنه لا بد لهما من التوقف في جزر الأزورس التابعة للبرتغال، أو جزر كناري التابعة لإسبانيا، للتزود بما يحتاجان إليه من وقود ومياه وطعام؟ وكم من الوقت يلزم كي يصلا

إلى الأزورس، وكم من الوقت يلزم ـ بفرض أنهما لن يتوقفا ـ كي يصلا إحدى موانئ غرب إفريقيا؟

وحسم الأمر في ربع الساعة الأول من الاجتماع، أجمع الخبراء الثلاثة أن الاحتمال الأعظم هو ضرورة المرور بالأزورس، لا بجزر كناري، وأن متوسط الوقت اللازم لقطع المسافة من كندا إلى جزيرة «سان ميجيل» هو سبعة أيام... أما الوقت اللازم لعبور المحيط ـ بفرض مستحيل، وإذا سارت القاطرة بأقصى سرعة لها ـ فهو اثنا عشر يومًا لو أن الرياح والأمواج كانتا مواتيتين.

تلاقت نظرات طاهر مع عزت في لمحة خاطفة، لقد مرت الأيام السبعة دون أن يصل الحفار إلى الأزورس... هتف طاهر متسائلًا:

ـ مفيش أي احتمال إننا نقدر نعديه المحيط مرة واحدة لإفريقيا؟

وهكذا ضرب عصفورين بحجر واحد، حصل على إجابته بأن هذا يبدو مستحيلًا تمامًا، وأوحى من طرف خفي لضيوفه بأن الحفار تابع لنا.

مرت الأيام السبعة، بل مرت حتى الآن ثمانية أيام، ولم يصل الحفار إلى الأزورس، فأين ذهب إذن؟

طاف السؤال بذهن طاهر، غير أنه ألقى به جانبًا من رأسه، فلم تكن هذه هي مشكلته الأساسية، كانت المشكلة الأساسية سؤالًا استغرقت الإجابة عنه خمس ساعات كاملة.

* * *

كانت المناقشات بين طاهر ونديم ـ منذ عاد الأخير من الإسكندرية ومعه الرجال الثمانية ـ تدور حول أمر واحد: هو المخاطرة بوجود عدد كبير من الرجال في وقت واحد، ومن أجل هدف واحد في ميناء أجنبي لا بد وأن يكون للعدو فيه عيون بلا حصر.

وليت الأمر يقتصر على هذا، فإن ثمة مخاطرة أساسية ولا بد منها، ولا يمكن الاستغناء عنها، وهي نقل تلك الكمية المهولة من المتفجرات اللازمة لإغراق الحفار عبر حدود دول أوربية وإفريقية، صديقة وغير صديقة، من خلال مطارات وجمارك وتفتيش كان قد وصل ـ بالنسبة للعرب بالذات ـ إلى أقصى درجات القسوة، بعد تلك العمليات التي كان يقوم بها الشباب الفلسطيني من خطف للطائرات وتدمير واغتيال، وبعد هذا التعاطف الصارخ الذي حظيت به القضية العربية، مما دفع شبابًا من آسيا وأوربا للقيام بعمليات خطف للطائرات وحدهم، تضامنًا مع العرب... كانت دول أوربا تضع قيودًا رهيبة على أي عربي ـ مهما كانت بلده أو جنسيته ـ في أثناء دخوله إليها أو مغادرته لها... وسط هذا كله، لا بد من نقل المتفجرات والرجال أيضًا، ولذلك، فكلما قل عدد الرجال قلت كمية المتفجرات وقلت نسبة المخاطرة.

في البداية، قبل هذا الاجتماع الذي كان معقودًا الآن، كانت المناقشات قد وصلت بهم إلى أن للحفار ثلاث قوائم هي التي يرتكز عليها في قاع المياه، ثم البريمة التي تهبط تحت مستوى قاع البحر منقبة عن البترول، فإذا كان الضفدع البشري لا يستطيع أن يحمل سوى لغم واحد، حيث يصل وزن ما يحمله من معدات ـ أسطوانة الأكسجين وبذلة الغطس والبطارية والزعانف... إلخ ـ إلى ما يقرب من ستين كليوجرامًا... فإن معنى هذا أننا في حاجة إلى ثمانية للتنفيذ، فإن فشلوا، فلا بدّ أن يكون هناك ثمانية على استعداد للنزول إلى الحلبة... ويصبح المجموع ستة عشر رجلًا.

ورغم أن نديمًا هو الذي اتخذ القرار بإحضار ثمانية رجال فقط، فإنه ظل منزعجًا، فما زال العدد من وجهة نظره كبيرًا، والأمر محفوفًا بالمخاطر خاصة إذا ما نفذت العملية في دولة ليست صديقة، ومن أجل

هذا عقد الاجتماع ـ الذي يطلق عليه العسكريون في مصر اسم مؤتمر ـ الذي كانت حرارة المناقشة فيه قد وصلت إلى ذروتها، وكان هذا في اليوم الثاني من الثلث الثاني من شهر فبراير عام ١٩٧٠.

قبل نهاية الساعات الخمس، توصل الجميع إلى أن «إتلاف الحفار» فقط، وليس إغراقه، وذلك بضرب قاعدتين من ثلاث، مع البريمة، كفيل بأن يعطله عن أداء مهمته إلى الأبد، وهو ما يساوي إغراقه تمامًا... بل إذا ما كان الإتلاف فعالًا، فلسوف يؤدي إلى ميل الحفار على أحد جوانبه نتيجة لدخول المياه إلى جوفه، وفي هذه الحالة قد يصبح الحفار معرضًا للغرق أيضًا.

كان معنى هذا أن على الخطة أن تعدل، ليصبح عدد الضفادع ستة فقط.

بالرغم من هذا، وبعد أن انتهى الاجتماع، كان نديم يغمغم عند عودته مع طاهر وعزت، بأن الستة عدد ليس بالقليل.

* * *

في فترة ما بعد الظهر، كان طاهر مشغولًا في متابعة التجهيزات الخاصة بالبعثة السينمائية التي تقرر سفرها بعد يومين... كانت البعثة تتكون من عشرة أشخاص: المنتج، المخرج، البطلة، ممثل ثانوي أسند إليه دور الزوج، وطبيب وثلاثة عمال، ثم المصور، ومساعدة مخرج جديدة لم يسمع عنها أحد من قبل، اسمها: «سعاد الحكيم».

قبل كل هؤلاء كان مدير الإنتاج قد طار بالفعل إلى لاجوس، وقام بحجز الفندق، وأجرى عدة اتصالات، واستفاد فائدة عظمى من الترحيب الذي قوبل به في نيجيريا، سواء من الشعب أو المسؤولين، الذين بهرهم جميعًا، أنهم سيرون نجومًا مصريين في بلادهم، خاصة: دلال شوقي.

في الأيام الماضية كان كل شيء جاهزًا في القاهرة: جوازات السفر، التأشيرات، التذاكر، المعدات، الكاميرات، وعلب الفيلم الخام، وصندوقان كبيران يحويان عددًا من المعدات السينمائية الحديثة التي تساعد على تصوير الغابات، والتي كان المخرج «مدحت صبري» قد استوردها قبل حضوره إلى مصر.

تقرر أن تنقل البعثة من القاهرة إلى الخرطوم على طائرات شركة مصر للطيران، على أن تستقل في الخرطوم طائرة أخرى تابعة للطيران الإفريقي.

كان آخر الأنباء أن جواز سفر دلال قد أصبح جاهزًا تماما، وأنها تستعد بتحضير بعض الملابس ليل نهار، وأن السفر سيكون في الموعد إن شاء الله... غير أن نبأ آخر تلقاه طاهر من خارج الحدود... برقية مقتضبة، ما إن قرأها حتى اكفهر وجهه، مما دفع عزت إلى سؤاله عما تحويه البرقية، فقال:

ـ الولد والبنت بتوع لندن اتعطلوا في جزر كناري.

ران الصمت.. وعمق السكون في الغرفة؛ حتى خيل للرجلين أن كلًا منهما يسمع حركة عقل الآخر، ليست هناك معلومات أو تفاصيل، كانت البرقية الموقعة باسم «ليز ونورمان» تقول: «توقفنا في جزر كناري لمدة لم تحدد بعد، الجزر جميلة ونحن في غاية السعادة، ولكن لا دليل على وجود طفل حتى الآن، حبنا».

تدافعت عشرات الأسئلة إلى رأس كل منهم.

هل اكتشف الإسرائيليون شيئًا؟

هل استطاعوا النفاذ من ثغرة ما؟

هل البرقية حقيقية أرسلها نورمان ويليامز، أم أن الإسرائيليين هم الذين أرسلوها حتى إذا تأخر وصول ليز ونورمان بدا الأمر طبيعيًّا؟

كانت الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ضرورية للغاية... إن كل جزء في الخطة مرتبط ارتباطًا عضويًا بباقي الأجزاء، إنهم يكونون تلك الحلقة الفولاذية التي لا يمكن للحفار أن ينفذ منها مهما كانت عبقرية المخططين لرحلته، وانهيار أحد هذه الأجزاء كفيل بفتح ثغرة قد تطيح بكل الجهد الذي بذل وتذروه مع الرياح.

لم يكن هناك وقت للتحليل أو التفكير، بدأ طاهر العمل فورًا، كان من الضروري الحصول على إجابات سريعة وواضحة وحاسمة، لعدد من الأسئلة المحددة... ولقد استلزم هذا منه جهدًا شاقًا، واتصالات معقدة ومتشابكة، ظلت حتى الثانية صباحًا... وكان على طاهر أن يجلس الآن، في انتظار الإجابة.

* * *

منذ ما يقرب من سبعة أيام، غادرت إحدى السفن التجارية السويدية ميناء «جوتنبرج» في غرب السويد، كانت السفينة محملة بعدد لا بأس به من السيارات والجرارات والأوناش والمعدات الصناعية التي كانت في طريقها إلى غرب إفريقيا.

كانت السفينة من هذا النوع العتيق الذي بني في أوائل الأربعينيات من هذا القرن، أي في بداية اشتعال الحرب العالمية الثانية، وقتها كان التصميم يهتم بالمتانة أكثر من الشكل، ولذلك، فلقد بدت هذا السفينة وهي تمخر عباب المياه مستقلة بحر الشمال، هابطة نحو الجنوب، نافذة من مضيق دوفر ـ أو القناة الإنجليزية ـ إلى بحر المانش، متجهة إلى ميناء ساوثهامبتون... بدت متينة صلبة في مواجهة أنواء الشمال في مثل

هذا الوقت من العام، برغم قِدمها الواضح... لم تكن هذه بالطبع سفينة ركاب، بل هي من النوع الذي يطلق عليه البحارة ورجال الموانئ اسم «كارجو» أي بضائع... ومثل هذا النوع من السفن لن تجد عليه سوى عدد قليل من الكبائن التي تظل غالبًا شاغرة، ولذلك، فأسعار السفر على هذه السفن أرخص بكثير من السفر على سفن الركاب المجهزة بكل وسائل الراحة والترفيه.

وعندما رست السفينة في ميناء «ساوثهامبتون»، كان مقدرًا لها أن تبحر بعد ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث، وقبل الإبحار ببضع ساعات، كان سطح السفينة يشغي بحركة عنيفة من الرجال والأوناش والبضائع على حد سواء، كانت هناك صناديق تهبط، وأخرى ترتفع، وأوناش تزمجر، وأخرى تكركر، ورجال يصرخون، وآخرون يتضاحكون، كانت هناك نداءات وتعليمات وصفقات تتم في اللحظات الأخيرة... ووسط كل هذا، صعد على ظهر السفينة فتى وفتاة، كانا نحيلين، خجولين، فقيرين، ملابسهما رثة، ووجهاهما شاحبين، وحديثهما مؤدبًا... وكانا يحملان تذكرتين صادرتين من مكتب وكيل السفينة في الميناء الإنجليزي «ساوثهامبتون».

وفي السنوات الأخيرة كان بحارة السفن في العالم كله، قد تعودوا على هذا النوع من «الهيبيز» الذين يصعدون السفن، أو يركبون الطائرات، أو يقطعون على الأقدام آلاف الأميال، تاركين أنفسهم لأمواج الحياة تحملهم إلى حيث لا يهم... لكن الشيء الطبيعي الذي لفت الأنظار، هو أن تذكرتي الفتى والفتاة كانتا «On Deck»، أي على السطح.

ولقد تكون الإقامة على السطح محتملة كلما اقتربت السفينة من خط الاستواء في إبحارها نحو الجنوب، ولكن كيف سيتحمل هذا الفتى وهذه الفتاة صقيع بحور الشمال المنتظر لأيام قادمة؟

وبعد أن تسلم الضابط الأول للسفينة، وهو يوناني الجنسية اسمه «كابتن إستافروس»، جوازي سفر الفتى والفتاة، وبعد أن تبادل معهما كلمات الترحيب المعتادة، عرف البحارة أن اسم الفتاة «إليزابيث ستيل»، واسم الفتى «نورمان ويليامز»... وعرفا منذ تلك اللحظة على السفينة، باسم «ليز ونورمان»... كما عرف البحارة أنهما عروسان يريدان قضاء شهر العسل تحت الشمس الحارة للساحل الإفريقي، هربًا من صقيع لندن.

لم يكن ممكنًا، خاصة في الأيام الأولى من الرحلة، والسفينة لا تزال في بحور الشمال، أن يبيت الشابان في العراء، مع البرد والمطر والموج والعواصف، لذلك، فلقد وجه إليهما القبطان، عن طريق الكابتن إستافروس هدية الزفاف، كابينة من تلك الكبائن الخالية في مؤخرة السفينة... ولقد حاول الفتى والفتاة أن يعتذرا عن الهدية في أدب، لكن القبطان أصر، وبرغم حصولهما على كابينة ذات موقع ممتاز، فإنهما نادرًا ما كانا يلجآن إليها... كانا يقضيان أغلب الوقت على السطح، يتهامسان، يتأملان الأفق، يتبادلان القبلات، يأكلان ما يقدم لهما من طعام دون تذمر أو طلب زيادة.

ومضت الأيام، ودخلت السفينة إلى المياه الدافئة، وعبرت ذلك الجزء الموازي لجبل طارق، وأصبحت في مواجهة الشاطئ المغربي، كان الدفء في تلك المنطقة ذا طعم خاص، في يوم من تلك الأيام الدافئة وصلت إلى القبطان برقية من المركز الرئيسي تطلب منه التوجه إلى جزر كناري، إلى جزيرة «چوميرا» بالذات، وهي واحدة من سبع جزر تكون المجموعة الرئيسية من جزر الكناري المواجهة للشاطئ المغربي... وهذا شيء مألوف وطبيعي في البحر، لكن الذي أثار البهجة بين البحارة، هو معرفتهم بما سوف يلقونه في هذه الجزر من ترحاب... وكان طبيعيًا أن تسعد ليز ويسعد نورمان للخبر، ألا يقضيان شهر العسل؟!

أراد كابتن إستافروس أن يزف الخبر بنفسه إليهما... كان الوقت ظهرًا، وأمواج المحيط تتلاعب بالسفينة في رفق حنون، تدثره تلك الغلالة الرقيقة من الدفء المنبعث من حرارة الشمس المتألقة في سماء بلا سحب... وكانت ليز تقف عند حاجز المؤخرة، تلقي ببصرها إلى بعيد، إلى عمق المحيط، وتدور أفكارها إلى حيث لا يمكن أن يعرف إنسان... ولم يكن نورمان بعيدًا عنها، كان قد تسلق كومة من حبال السفن الغليظة واستلقى فوقها واستغرق في كتاب بين يديه.

صاح فيهما كابتن إستافروس بصوته العريض، فالتفتت مجموعة من البحارة كانوا قريبين منهما:

ـ صباح الخير يا أولاد.

كانت الأيام قد صنعت بينه وبينهما حبلًا من الود؛ صنعته فناجين الشاي، وبعض الزجاجات، التفت الاثنان نحوه وهما يردان التحية، فقال:

ـ سيكون شهر عسلكما مشهودًا.

ظل نورمان صامتًا ينظر إليه من عليائه، بينما هتفت ليز:

ـ وكيف كان ذلك؟

نظر كابتن إستافروس في ساعة يده وهو يصيح في فخر:

ـ بعد ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة، سترسو السفينة على شاطئ چوميرا.

ساد الصمت لثوان حتى سألت ليز:

ـ وما چوميرا؟

ـ واحدة من جزر كناري.

قال هذا وهو ينتفض حماسًا، قاله وهو ينتظر منهما أن يتصايحا فرحًا وأن يعانق كل منهما الآخر... لكن شيئا من هذا لم يحدث، هبط نورمان من مكانه في بطء، وتكاثر عدد البحارة حولهما وكل منهم يدلي بدلوه عما سيلقيانه في جزر الكناري من جمال طبيعة وطعام طازج وفاكهة وقصب السكر، لكنهما ظلا صامتين لا يحيران جوابًا حتى كاد كابتن إستافروس أن ينشق من الغيظ فصاح:

ـ ألا تعرفان جزر كناري؟

قالا في نَفَس واحد:

ـ طبيعي... أكيد.

ـ ألستما سعيدين أننا سنرسو على شاطئ واحدة من تلك الجزر؟

قالت ليز:

ـ لا بد وأن يكون الأمر كذلك.

وجاء رد إستافروس ذروة في العصبية، قال:

ـ لقد سمعت عن البرود الإنجليزي ورأيته وتعاملت معه، لكن برودًا كهذا لم يصادفني بعد.

وضج الجميع بالضحك، وكان أكثرهم ضحكًا وسعادة هما ليز ونورمان اللذين تقدما نحو كابتن إستافروس، وكان البحارة قد صنعوا حولهم دائرة، قال نورمان في أدب:

ـ كابتن على إستافروس الكلام.. ما معنى كلمة كناري؟

أرتج على إستافروس الكلام وراح يتلفت حوله ناظرًا إلى البحّارة في استخفاف قائلا:

ـ ليكن معناها ما يكون، المهم أن ما تحويه عظيم.

تصايح البحارة وصفق بعضهم، لكن نورمان عاد يقول:

ـ إن كلمة كناري مأخوذة عن كلمة «كانيس» وهي كلمة لاتينية.

ـ ما الذي تريد قوله بحق الشيطان؟

ـ أريد أن أقول إن كلمة كانيس تعني كلب.

مط إستافروس شفته السفلى احتقارًا وهتف:

ـ وما معنى هذا أيضا؟

قالت ليز ضاحكة:

ـ إن اسم الجزر، هو «جزر الكلب».

وضج الجميع بالضحك، وكان كابتن إستافروس هو أول الضاحكين.

* * *

في العاشرة من صباح ذلك اليوم، رست السفينة السويدية على شاطئ جزيرة چوميرا، تجمع حولها الوطنيون وهم يعرضون بضاعتهم من الموز والقصب والورود وبعض المصنوعات اليدوية الدقيقة... برغم العمل الشاق الذي كان ينتظر البحارة فإن كلًا منهم كان يستعد لمغادرة السفينة فور انتهائه من عمله، بدا ليز ونورمان في أول الأمر سعيدين بما يريانه لكنهما لم يفكرا في مغادرة السفينة... ثم، ثم تغامز اثنان من البحارة وهما يرقبانهما وهما يحصيان نقودهما ويتناقشان، ثم عندما قررا مغادرة السفينة، راح كابتن إستافروس في حماس المتمرس يرشدهما إلى الأماكن التي يجب زيارتها.

غادرا السفينة في الحادية عشرة صباحًا، واختفيا عن الأنظار طوال اليوم، لم يصادفهما أحد في مكان، ولا يعرف أحد أين ذهبا وكيف قضيا

يومهما، وعندما عادا إلى السفينة مع الغروب، كان أول سؤال بدر منهما: «متى سنبحر؟».

غير أن بحارًا عجوزًا ـ فيما بعد ـ تذكر أنه كان يمر بالشارع الرئيسي في الجزيرة عندما شاهدهما يخرجان من مكتب التلغراف، ولم يهتم أي من البحارة الذين سمعوا هذا الكلام، برغم أنه كان يمثل بالنسبة لليز ونورمان أهم ما فعلاه في الرحلة حتى الآن... كانا قد أرسلا برقية إلى «مسز فلاورز» التي تسكن في ٥١٢ «أونزلو جاردنز» في غرب لندن، وكان نص البرقية: «توقفنا في جزر كناري لمدة لم تحدد بعد، الجزر جميلة ونحن في غاية السعادة، ولكن لا دليل على وجود طفل حتى الآن. حبنا».

أرسلت البرقية في نحو الساعة الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة ظهرًا، لكنها لم تصل إلى القاهرة إلا في المساء.

وعندما كان طاهر غارقًا، في التخطيط والاتصالات، لم يكن يعلم أن السفينة غادرت جزيرة چوميرا فجأة. وكان قد أضيف إلى ركابها راكب آخر، يبدو في حوالي الستين من عمره، عرف على الفور أنه عالم من علماء النبات، وأنه يجوب السواحل الإفريقية لعمل دراسة مقارنة بين نباتات غرب إفريقيا وشرقي القارة الأمريكية... وكان اسم الأستاذ في جواز سفره هو: بروفسور إيزاك ديستان، فرنسي الجنسية، يشغل وظيفة أستاذ النباتات بالمناطق الحارة بإحدى الجامعات الفرنسية غير ذات الشهرة.

* * *

تتكون جزيرة «سان ميجيل» أكبر جزر الأزورس الخمس ـ من سلسلة متصلة من الجبال البركانية شديدة الخصوبة، وفيما عدا هذه الظواهر الطبيعية التي تمتلئ بها شوارع بونتا دلجادا وبعض القرى هنا

وهناك، فإن منظر الجبال الشديدة الخضرة صيفًا وشتاء يجذب عددًا لا بأس به من السائحين الذين يسعون إلى الهدوء ورخص الأسعار وجمال الطبيعة معًا.

غير أن أشهر الأماكن السياحية في سان ميجيل، هي بحيرة «الألوان السبعة»، وهي بحيرة تتوسط مجموعة من الجبال شاهقة الارتفاع، حيث إذا وقفت فوق قمة أحد الجبال ونظرت إلى البحيرة القابعة في العمق البعيد، رأيت مياهها مقسمة إلى سبعة ألوان هي ألوان الطيف، وبرغم أن الناس يعرفون أن هذا خداع بصري نتيجة لتراكم أبخرة المياه بين سفوح الجبال وفوق سطح البحيرة، ومع انعكاس ضوء الشمس تبدو مياه البحيرة ملونة... فإن الناس يخلب لبَّهم هذا الخداع، ويسعون إليه في سعادة، حتى أهل الجزيرة أنفسهم.

ولم يكن جديدًا على فرناندو بالديرا أن تدعوه تريزا إلى رحلة يقضيان فيها يومًا عند بحيرة الألوان السبعة... ولذلك فلقد وافق عندما عرضت عليه الفكرة، خاصة، وأنه من مكانه هذا فوق قمة الجبل حيث تسبح السحب تحت قدميه، يستطيع أن يشاهد أية سفينة تدخل ميناء بونتا دلجادا.

لم يُقلق فرناندو في رحلته تلك شيء ذو بال، كان كل شيء على ما يرام، والأيام تمضي ولا أحد يعجب لبقائه مدة طويلة في الجزيرة، فلقد أصبحت علاقته بتريزا معروفة للجميع... لم يقلقه سوى هذا الإحساس الغامض نحو تلك الفتاة الأمريكية «باربرا هوفمان» والتي وصلت إلى الجزيرة قبل أن يصل هو إليها بيومين أو ثلاثة، وصلت على ظهر سفينة أمريكية لم تدخل الميناء، وإنما أرسلت باربرا في قارب أوصلها إلى الشاطئ، ثم عاد أدراجه... وكانت أوراقها مستوفاة.

وعلم أهل الجزيرة أن باربرا طالبة بإحدى الجامعات الأمريكية،

وأنها جاءت خصيصًا لدراسة التربة في «سان ميجيل»، ولم يكن هذا غريبًا أو جديدًا، كان هناك عشرات من الطلبة والطالبات يفدون من كل جامعات العالم، ويقضون وقتهم في الشوارع والحقول وبجوار الينابيع المتفجرة بالحمم أو المياه الباردة، وكانوا مثلها أيضا، يحملون حقائب كبيرة على ظهورهم، حقائب مليئة بالمعدات العلمية والأوراق والكتب والمذكرات.

كانت باربرا تنزل في نفس الفندق الذي ينزل به فرناندو، وهذا ما لفت نظره في البداية، فمع رقة حالها البادية، فإن الطلبة، بإمكانياتهم المادية، لا ينزلون في فندق كهذا وفي الجزيرة فنادق أخرى أرخص، فنادق تعودت على استقبال الطلبة ومعاملتهم، كما أنها كانت تشغل الغرفة المجاورة لغرفته، وهي الأخرى تطل على الميناء مباشرة.

حاولت باربرا التودد إليه في البداية فرحب من جانبه ترحيبًا حارًا، سألته ذات يوم عن مزرعته فدعاها لزيارتها، عادت تسأله عن التربة وما يستخدمه من سماد ثم تطرق الحديث إلى أشياء أخرى فشعر شعورًا غامضًا بأنه يخوض في بحر من الألغام، إحساس غريب لكنه انطلق يجيب عن أسئلتها البريئة، حدثها عن مطعمه في لشبونة، وصفه لها، دعاها إليه إذا قدر لها أن تزور البرتغال يومًا، كان يعلم أن هذه معلومات يعرفها كل من في الجزيرة، لكنه كان يشم بأنفه التي دربت مع السنين، أن شيئًا ما وراء باربرا هذه... وعندما دخلت تريزا إلى بهو الفندق، وكانت على موعد معه، ووجدته يجلس مع تلك الفتاة الأمريكية، تصرفت بما يوحي بأنه لو فعل هذا مرة أخرى فلسوف تقتله... وكما أدهشه في البداية إقبال باربرا عليه، أدهشه إدبارها عنه بتلك السرعة التي جعلتها لا تهتم بأن تبادله التحية كلما التقيا بعد ذلك... وحرص فرناندو أن يرقبها من بعيد، فلم يجد في تصرفاتها ما يوحي بأي نوع من الشكوك، فازدادت

شكوكه، وقرر، برغم تحذيرات مراد الصارمة بألا يفعل شيئا غير مطلوب منه، قرر أن يلتقط لها بضع صور دون أن تشعر، وأن يهديها لمراد.

وقد فعل.

* * *

قضى فرناندو مع تريزا يومًا سعيدا بحق فوق قمة أحد الجبال المطلة على بحيرة الألوان السبعة، كان حب تريزا يتسلل إلى قلبه يومًا بعد يوم، وعندما كان يهبطان الجبل في الطريق الضيق الخطر، كانا سعيدين حقًا، لكن فرناندو ـ وسط سعادته تلك ـ كان يفكر متى سيظهر هذا الحفار، ومتى يعود إلى لشبونة... وعندما أوصلها إلى بيتها، كانت الساعة قد شارفت على السابعة مساء، وأصر شقيقها الضابط خوليو فارجاس أن يدخل فرناندو لدقائق. لكن الدقائق امتدت حتى الخيوط الأولى للنهار، لذلك، فلقد ألقى فرناندو بنفسه فوق الفراش بملابسه، فور وصوله إلى الفندق، وراح في سبات عميق.

عندما استيقظ كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة صباحًا ببضع دقائق، لم يستيقظ لأنه أخذ كفايته من النوم، بل استيقظ نتيجة لتلك الجلبة التي لا يصنعها سكان الجزيرة إلا إذا رست في الميناء سفينة.

فتح عينيه وظل محملقًا في السقف لدقائق، تماوج تفكيره هنا وهناك، ثم عندما تذكر سبب حضوره إلى الجزيرة، قفز من الفراش كالملدوغ، فما يدريه أن تلك الجلبة التي يسمعها تحت نافذته ليست بسبب وصول الحفار؟

اندفع نحو النافذة، أزاح الستائر، فتح النافذة على مصراعيها، وظل يحملق فيما أمامه غير مصدق.. كانت الميناء أمامه كاملة بامتدادها حتى مياه المحيط، وأمام عينيه، كانت ثمة قاطرة هائلة الحجم، وبجوارها

هيكل كبير ذو أعمدة ترتفع في الهواء، هو ليس سفينة، وليس قاطرة... فماذا يكون غير حفار؟

لم تمضِ سوى دقائق قليلة حتى هبط فرناندو إلى بهو الفندق، كان منفعلًا انفعالًا غريبًا، وكان دهشًا أشد الدهشة لهذا الانفعال الذي سرى في كيانه واجتاحه اجتياحًا... لكنه بذل كل ما يستطيع من جهد حتى تكون تصرفاته طبيعية، إنه لا يعلم شيئًا عن الحفار ولا ما الذي يريده المصريون منه ولكن...

ـ صباح الخير سيد فرناندو.

قطعت حبل أفكاره صاحبة الفندق وهي تستقبله مهرولة في ترحاب تعود عليه، رد عليها تحية الصباح فسألته عما يريد على الإفطار... التفت إليها متسائلًا:

ـ ما هذا الضجيج الذي يملأ الرصيف؟

ـ إنها قاطرة تسحب حفارًا للتنقيب عن البترول.

فتح عينيه في دهشة والتفت إلى السيدة وهتف:

ـ بترول.. هل ظهر البترول في بونتا دلجادا؟

ضحكت صاحبة الفندق وشرحت له الأمر:

ـ لا... إنهما في طريقهما إلى إفريقيا.

هز رأسه كمن فهم وهو يغمغم بحثًا عن مائدة تطل على الرصيف.

ـ هل تحب البيض مقليًا أم...؟

أشاح بيده وهو يتجه نحو المائدة قائلًا:

ـ سأتناول اليوم قدحًا من القهوة المركزة لا غير.

ما إن جلس إلى المائدة حتى واجهته صاحبة الفندق غامزة بعينها:

ـ لعل رحلتك بالأمس إلى بحيرة الألوان السبعة كانت ممتعة سيد فرناندو.

ابتسم وهو يومئ نحو الميناء متسائلًا:

ـ ما اسم هذا الحفار؟

ـ كينتنج.

الفصل السادس
الباشا على مسرح الأحداث

«...... وها هي مباراة جديدة مع العدو، وهي ـ هذه المرة ـ ليست مباراة عادية... ففوق ما يكتنف المباريات عادة من إثارة، هناك إرادة إثبات أنك لا تزال موجودًا، أنك لم تنته كما أرادوا لك، وأنك قادر على اللعب وعلى الانتصار أيضا».

قبل أن ينتصف ليل ذلك اليوم الذي وصل فيه الحفار «كينتنج» إلى بونتا دلجادا، وصلت إلى القاهرة برقية تنبئ عن وصوله في الفجر، وإبحاره في التاسعة مساء.

وبرغم أن موجة عنيفة من النشاط قد اجتاحت الرجال، وبرغم أن طاهر بمساعدة عزت بلال راح يضع تقديرًا سريعًا للموقف، ويصدر أوامره في كل اتجاه وكأنه تحول إلى آلة شديدة الدقة.. فلقد طرحت البرقية عددًا من الأسئلة، كان لا بد وسط حمى الحركة التي انتابت الجميع ـ من العثور على أجوبة لها.

كان فرناندو بالديرا قد أضاف في برقيته أن ثمة معلومات هامة في الطريق، وفرض هذا على الرجال سؤالًا: إذا كان الحفار قد وصل في الفجر، فلماذا انتظر فرناندو حتى رحيل الحفار في المساء كي يرسل برقيته وقد كانت التعليمات تطلب منه أن يرسل البرقية فور ظهور الحفار؟

لابد إذن أن هناك ما منعه من إرسال البرقية، فهل لهذا الامتناع علاقة بالمعلومات «الهامة» التي قال إنها في الطريق؟ هل انتبه الإسرائيليون إلى شيء؟ وما هذه المعلومات؟ وما مدى أهميتها حقًا؟

ثم...

إذا كانت القاطرة «ڇاكوب ڤان هيمو كيراك» تستطيع أن تقطع المسافة من الساحل الشرقي لكندا، وحتى ميناء بونتا دلجادا في سبعة أيام، فلماذا قطعت المسافة في تسعة أيام؟

كانت الإجابة عن كل التساؤلات الخاصة بفرناندو وبرقيته، تحتمل التقدير أو الانتظار حتى وصول الرسالة خلال يومين أو ثلاثة، لكن الإجابة عن هذا السؤال الأخير لا تحتمل سوى أمرين لا ثالث لهما، الأول: أن تكون الأحوال الجوية ـ وهو ما لا بد أن الإسرائيليين قد وضعوها في الحسبان ـ قد تسببت في هذا التأخير... أما الأمر الثاني: فهو وجود جدول زمني لدخول الحفار إلى كل ميناء.

كانت تقارير الأرصاد الجوية، علاوة على تقرير آخر أرسلته السفينة التجارية المصرية «صلاح الدين»، التي كانت تعبر المحيط في الوقت نفسه، تؤكد أن الأحوال الجوية كانت مواتية... لم تكن هناك رياح مضادة، كما كان ارتفاع الأمواج عاديًا.

إذن... فلا بد أن هناك جدولًا زمنيا حدد دخول الحفار إلى الأزورس بعد تسعة أيام لا سبعة... أملًا في التمويه، أو لأي سبب آخر.

وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان تقدير الخبراء يؤكد أن القاطرة «چاكوب ڤان هيمو كيراك» تستطيع أن تسحب الحفار من الأزورس، حتى أقرب الموانئ المحتملة في غرب إفريقيا ـ وهي دكار ـ في ستة أيام فهل سيرسو الحفار في «دكار» بعد ستة أيام بالفعل، أم أن الأمر سيطول ليومين أو ثلاثة؟... وهل سيدخل الحفار إلى «دكار» أصلا... أم أنه سوف يتجه إلى ميناء آخر؟

* * *

كان هذا هو السؤال الذي ظل ذلك الجيش الصغير من الرجال الذين انتشروا على طول الساحل الغربي لإفريقيا، والذين نشأت بينهم علاقات واتصالات معقدة وخفية وشديدة الدقة... يبحثون عن إجابة له طوال الأيام الماضية دون جدوى.

وحتى ليز ونورمان اللذان وصلا إلى «دكار» على ظهر السفينة

السويدية، وبدآ شهر عسلهما، وأرسلا برقية إلى لندن تنبئ «مسز فلاورز» عن وصولهما، وعن اسم الفندق المتواضع الذي نزلا فيه.. حتى ليز ونورمان لم يستطيعا أن يعثرا على شيء له قيمة...وإن كانا قد استطاعا في اليوم نفسه الذي أرسلا فيه البرقية إلى لندن، أن يحققا اتصالًا مباشرًا مع واحد من رجال طاهر رسمي ـ لم يعرفا عنه شيئًا عدا أن اسمه «علي» ـ وأن يخبراه بأمر هذا البروفسور «إيزاك ديستان» الذي صعد على ظهر السفينة في جزر كناري ليفرض عليهما صداقة هي أقرب إلى الحصار... ليس هذا فقط، بل لقد قالا إنهما يشعران ـ منذ وصولهما إلى دكار ـ أن هناك من يتبعهما ويضعهما تحت رقابة صارمة.

فهل كانت الأسباب التي منعت فرناندو من إرسال برقيته فور ظهور الحفار، من هذا النوع من المشاكل التي يعاني منها ليز ونورمان؟

إن صح هذا، فإنه كان يعني أن الإسرائيليين، لا يحيطون الحفار بحراسة صارمة فقط، بل إنهم على استعداد لأي شيء، بل لكل شيء في سبيل حمايته حتى يدخل البحر الأحمر.

* * *

وعلى كل، فمنذ وصول برقية فرناندو بالديرا، قبل منتصف الليل بقليل أصبحت الحركة، والحركة السريعة والدقيقة في نفس الوقت، أمرًا محتمًا، غير أن تقدير الموقف، لم يكن بالطبع يقل أهمية عن هذه الحركة التي كان لا بد لها أن تتم في ضوء كل المعلومات التي توفرت للرجال في تلك الغرفة التي احتلها طاهر رسمي، والتي أصبحت الآن أكثر ازدحامًا بما فيها، وأكثر غرابة.

غير أن المعلومات التي وصلت من «أبيدچان» كانت أشد وضوحًا وتحديدًا، واستطاعت الصحفية الهولندية «لونا بايرن» أن تقيم عددًا من

العلاقات الشديدة الفعالية مع عدد لا بأس به من المسؤولين، ومع عدد آخر من رجال السفارة الأمريكية في نفس الوقت... كما قامت بسهولة وجرأة تحسد عليها، باتصال مباشر وعلني مع أحد رجال طاهر رسمي هناك، وكانت تلتقي به في بار الفندق الإسرائيلي الجديد، تحت أعين رجال المخابرات المركزية الأمريكية، الذين انتشروا هناك تمهيدًا لزيارة رواد الفضاء الأمريكيين التي كانت تقترب يومًا بعد يوم... وكان طبيعيًا أن يفرض رجال المخابرات الأمريكية سياجًا محكما حول برنامج الرحلة، لكن الشيء اللافت للنظر حقًا ـ هذا ما قالته لونا بايرن ـ هو أنها موقنة من وجود بعض رجال المخابرات الإسرائيلية الذين كانوا يتحركون وكأنهم جزء من الخطة العامة لاستقبال رواد الفضاء... أما الحفار «كينتنج» فإن أحدًا لم يذكره، بل، إنه يبدو وكأن أحدا لا يعرف عنه شيئًا، ولم يسمع به.

ولكن...

بعيدًا عن لونا بايرن التي كانت ملاحظاتها مفيدة للغاية، فإن المعلومات التي وصلت إلى جهاز المخابرات المصري من مصادره الأخرى، كانت تؤكد أن أبيدچان في الأيام الأخيرة، أصبحت مسرحا لنشاط غامض ومحموم في نفس الوقت.

* * *

وفي لاجوس كانت حركة عمر بك محمد السيد التجارية قد غطت أكرا في غانا، وبورتونوفو في بنين، ولاجوس في نيجيريا أيضا... ولقد أرسل إلى مقر شركته في القاهرة يقول: إن هناك ما يشير، في «لاجوس» بالذات، إلى احتمالات جيدة بالنسبة لصفقات الأطعمة المصرية المحفوظة.

ولقد وصلت البعثة السينمائية المصرية، بما تحمل من معدات، بسلام.... واستقبلت من رجال السفارة المصرية وبعض المسؤولين عن الإعلام في نيجيريا استقبالًا جيدًا... لكن اللافت للنظر، أن خبرًا لم ينشر عن هذه البعثة الفنية التي كانت تضم واحدة من نجوم الصف الأول في مصر، وأن البعثة فوق هذا، لم تمكث في لاجوس لأكثر من خمس عشرة ساعة، فلقد وصل أفرادها في المساء، واتجهوا فورًا إلى الفندق، ثم... وفي الصباح المبكر، غادرت البعثة لاجوس في أوتوبيس كان قد استؤجر خصيصًا، إلى مدينة «أويو» التي تبعد عن العاصمة بحوالي مائة كيلو متر إلى الشمال، وحتى تكون قريبة من منطقة الأدغال التي اختيرت لتصوير الفيلم.

كانت البعثة السينمائية المصرية قد غادرت القاهرة في فجر أحد الأيام على متن إحدى طائرات شركة مصر للطيران، ووصلت إلى الخرطوم لتستقل طائرة أخرى تابعة للطيران الإفريقي، وشحنت المعدات الخاصة بالتصوير وعلب الأفلام الخام في نفس الطائرة مع البعثة... وكان هناك صندوقان كبيران يحويان بعض المعدات الدقيقة التي استوردها المخرج مدحت صبري، والتي كان رجال الشحن يولونهما عناية خاصة لما فيهما من معدات شديدة الدقة وعدسات قابلة للتلف أو الكسر... لكن الغريب في الأمر، أن المعدات جميعها، بما فيها هذين الصندوقين، اختفت فور وصول الطائرة إلى المطار، وقال مدير الإنتاج أن ليس هناك مكان في الفندق، ثم ظهرت في صباح اليوم التالي، وكانت تحتل مكانًا كبيرًا من الأتوبيس الذي استقلته البعثة إلى مدينة «أويو» لكن المدقق كان يستطيع أن يلحظ أن الصندوقين قد فتحا ثم أعيد غلقهما مرة أخرى... وهذا بالطبع كان واردا، إن الكشف على المعدات قبل بدء التصوير أمر مهم للغاية.

* * *

هكذا استقر الأمر بالنسبة للخطة الثالثة في لاجوس، غير أن عناصر الخطة، التي بدت حتى الآن محكمة ومقنعة لكل الأطراف، لم تكن قد استكملت كلها بعد... ولذلك، فلقد خرجت برقية من إحدى شركات الملاحة البحرية، وكانت مكاتبها الرئيسية في إحدى العمارات القديمة في ميدان المنشية بالإسكندرية، إلى السفينة المصرية «نجمة يوليو» ـ هذا الاسم بالطبع مستعار ـ وكانت في ذلك الوقت تقطع المحيط من الجنوب نحو الشمال في طريقها إلى لشبونة، ومنها إلى شمال ألمانيا، تطلب منها إدارة الشركة أن تقطع خط سيرها، وأن تتوجه فورًا إلى ميناء لاجوس، وهناك، كان على القبطان «سعد محروس» قائد السفينة ـ هذا الاسم أيضًا مستعار ـ أن يستقبل مندوبًا عن الشركة يحمل خطابًا، عليه أن يقرأه، وأن ينفذ ما فيه حرفيًا.

حاول القبطان سعد محروس أن ينبه الشركة إلى أن شحنة السفينة من الفواكه المرسلة إلى ميناء هامبورج بألمانيا الغربية قد تفسد لو أنها تأخرت عن موعد التسليم، لكن الرد جاءه بتنفيذ ما جاء في البرقية مهما كانت النتائج.

ولم يجد القبطان بدًا من تحويل مسار سفينته في المحيط، ووصل إلى لاجوس بعد وصول البعثة السينمائية بيومين، وكانت هناك ـ مع مندوب الشركة ـ حقيبة دبلوماسية مصرية، قد حملت إلى ظهر السفينة في منتصف ليلة وصولها، وكانت الحقيبة تتكون من صندوقين كبيرين حملتهما أوناش السفينة في رفق، ووضعتهما في أحد العنابر، مع توفير القدر الكافي من الأمان لهما... والغريب في الأمر، أن هذين الصندوقين كانا في نفس حجم صندوقي المعدات الثمينة التي كان يحرص عليها المخرج مدحت صبري... والذي كان الآن يصور المناظر الخارجية لفيلمه الأول في أحراش نيچيريا.

أما مندوب الشركة، فعندما جلس مع القبطان سعد محروس في كابينته التي أغلقت عليهما جيدًا، فلقد أخرج رسالة قدمها لقائد السفينة الذي ما إن قرأها، حتى رفع رأسه نحو المندوب الذي بدا وجهه مألوفًا لديه وقال:

ـ إيه الحكاية؟

ابتسم المندوب وهو يغمغم:

ـ علمي علمك.

ـ أنا شفتك في الشركة قبل كده؟

ـ ما اعتقدش.

ولقد كان سعد محروس واحدًا من ضباط القوات البحرية الذين خرجوا من الخدمة لأسباب سياسية بعد حادث محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية عام ١٩٥٤... بعد هذا الحادث قبض عليه، وحوكم، وحكم عليه بالإعدام، ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة، ثم أفرج عنه بعد تأميم قناة السويس، وعين على الفور ضابطًا ثانيًا على إحدى السفن التجارية المصرية.

ولأنه كان رجلًا عسكريا من قبل، فلقد كان يعرف أن هناك أمورًا لا تجب مناقشتها حتى ولو كان هذا ممكنًا... فراح ينفذ ما طلب منه بحماس شديد.

وبعد أن قاد مندوب الشركة إلى إحدى الكبائن العادية في السفينة، اتجه إلى غرفة الآلات التي كانت تشغي بالحركة والصياح وتمتلئ بالضجيج ورائحة الزيت والسولار... وهناك، وفوق أحد الممرات الحديدية التي تتشابك في فضاء هذه الغرفة، وقف مع كبير مهندسي السفينة، وطلب منه أن يبحث عن عطب يبقي السفينة في الميناء لأسبوعين على الأقل، فانفجر كبير المهندسين ملوحًا بيديه الملطختين بالشحم:

ـ يا قبطان... دي تاني سفرية أقول لكم فيها إن طلمبات الميه عاوزه صيانة كاملة، وإن المكثف محتاج نظافة، وخزانات الميه.....

قاطعه القبطان:

ـ اعمل اللي إنت عاوزه، واتفق مع الشركة اللي تقول لك عليها الحكومة، بس بشرط إنك تكون جاهز قبل أسبوع من غير ما حد يعرف.

ولم يرد كبير المهندسين، ولم يضف القبطان شيئا.

* * *

بدا لطاهر رسمي الآن، وبوضوح، أن برقية فرناندو، وتحذير ليز ونورمان، ومعلومات لونا بايرن، وتقارير الرجال المنتشرين بطول الشاطئ الغربي... كلها تؤدي إلى طريق واحد، أن الإسرائيليين سيعتمدون في الخطوة القادمة على عنصر المفاجأة... وعلى ذلك، فلقد كان لا بد من وضع الخطط أو تعديلها على أساس أن الرجال سيفاجأون ذات ساعة من أي يوم من الأيام القادمة بنبأ يقول إن الحفار قد وصل إلى مكان ما، وإنه الآن هناك، والحراسة عليه قوية، ولا أحد يعرف كم من الوقت سيبقى حيث هو، وإنه سيصبح على طاهر رسمي، في هذا الضباب، أن ينقض على الهدف، ويدمره.

ومنذ وصول برقية فرناندو والساعات تأكل بعضها بعضًا، وكان طاهر الآن ـ بعد وصول البرقية بساعتين، أي في حوالي الواحدة والنصف صباحًا ـ قد أجرى مكالمة تليفونية عاجلة، غادر على أثرها مكتبه، وخرج من باب خلفي للجهاز، وكان يقود سيارة أوستن شديدة القِدم، وكان هدفه في هذا الوقت من الليل هو منزل «أمين هويدي» رئيس جهاز المخابرات المصري في مصر الجديدة.

كانت وعكة الأنفلونزا قد اشتدت على الرجل فآثر أن يرتاح يومًا في البيت، وكان خروجه قد يعرضه لنكسة هو في غنى عنها في مثل ذلك

الوقت، ولذلك، فضَّل طاهر أن يذهب إليه بنفسه... إن العملية تدخل الآن مرحلة حاسمة لا بد وأن يعلم المدير بخطوطها العريضة كاملة.

عندما وصل طاهر إلى بيت أمين هويدي لم يدخل إلى الصالون، بل انحرف يمينًا ودلف إلى غرفة المكتب الصغيرة لرئيس جهاز المخابرات، كان الرجل يرتدي الروب والبيچاما، ولم يكن يعلم بالضبط ما الذي يحمله طاهر رسمي في جعبته عن الحفار، فالمكالمة التي تمت بينهما كانت مختصرة للغاية، ولقد حاول أن يعتذر لطاهر عن استقباله بالبيچاما والروب، لكن طاهر كان مشغولًا عن هذه الشكليات بالنبأ الذي كان يحمله، وما إن خطا إلى غرفة المكتب، وقبل أن يتخذ مقعدا، حتى التفت نحو أمين هويدي قائلا:

ـ الحفار ظهر.

ساد الصمت، سعل المدير، لكن السعادة اجتاحت كل ملامحه، سار إلى مقعد وجلس عليه، تداخل في نفسه ليتقي تلك القشعريرة التي سرت في جسده، ربما من شدة البرد، وربما لإحساسه باقتراب معركة من تلك المعارك الفاصلة التي يتقرر فيها الكثير من الأمور.. لكنه قال أخيرًا:

ـ وإيه الموقف دلوقت؟

بعد ثماني عشرة دقيقة بالضبط، كان طاهر رسمي يغادر بيت رئيس جهاز المخابرات ليسير على قدميه مائتي متر خرج بعدها إلى الشارع الرئيسي في المنطقة، حيث يمر أحد خطوط مترو مصر الجديدة، عبر الشارع وشريط المترو ثم خطا إلى الضفة الأخرى من الطريق، حيث كانت سيارته الأوستن في انتظاره... وعندما دلف إلى السيارة، نفذ البرد من عظامه فارتجف وأغلق الباب بسرعة، وأدار الموتور.

* * *

كانت الساعة تشير إلى السادسة والربع صباحًا عندما أخذ طاهر وعزت ونديم يتبادلون الرأي في جدال كان قد امتد الآن لساعتين ويزيد، كان الحوار حارًا برغم أن أحدًا منهم لم يكن قد ذاق في تلك الليلة للنوم طعمًا، فلقد جرفتهم حرارة المشكلة إلى فيض من الأسئلة.

قال طاهر ملوحًا بكوب من الشاي كان في يده:

ـ أنا رأيي إن الحفار لازم يدخل دكار.

قال عزت وكأنه يضبط موجة الحديث:

ـ فيه تقرير جديد من مصلحة الأرصاد.

سأل نديم في تحفز:

ـ بيقول إيه؟

ـ المحيط عند الساحل الإفريقي معرض لعاصفة شديدة.

هتف طاهر:

ـ يبقى ده أدعى إنهم يدخلوا دكار.

سأله نديم وكأنه يطمئن على مهمته:

ـ كلمت الباشا؟

التفت طاهر نحو عزت ليسأل بدوره:

ـ المتفجرات جاهزة؟

رد عزت:

ـ واختبرت واتحطت في الشنط.

هتف طاهر:

ـ يبقى الباشا لازم يسافر بكره.

صحح عزت:

ـ قصدك النهارده.

ـ هي الساعة كام؟

قال نديم وهو ينظر في ساعته:

ـ ستة وتلت.

مد طاهر يده إلى التليفون وهو يهتف:

ـ نصحيه بقى، كفاية عليه نوم لحد دلوقت.

وساد الصمت إلا من صوت قرص التليفون وأزيز جهاز التكييف... راح عزت يرقب وجه زميليه... كان نديم يبدو متحفزا صاحيًا وكأنه نام من قبل دهرًا، هذا هو نديم قلب الأسد يخرج من مكمنه، وفي اللحظات الحاسمة... وكان طاهر كتلة متوترة من الأعصاب التي تتحرك في تناسق واتزان وانضباط يضيف إلى عمر صاحبه عشرات السنين في لحظات، قطع الصمت صوت طاهر وهو يهتف:

ـ إنت لسه نايم يا باشا؟

على الطرف الآخر جاءه الصوت ساخرًا:

ـ لسه نايم ده إيه.. أنا لسه حادخل السرير علشان أنام.

وأطلق كل منهما ضحكة عالية صاخبة، قال بعدها الباشا دون انتظار لحديث:

ـ مسافة السكة حاكون عندك.

سأله طاهر مداعبًا:

ـ وإيش عرفك إني عاوزك؟

ـ يعني حاتصحيني الساعة ستة ونص علشان تقولي إزيك؟

وانتهت المكالمة بضحكات أخرى أشد مرحًا.

شيء غريب هذا الذي ينتاب الرجال إذا ما كانوا في الطريق إلى مهمة، كان الثلاثة يعلمون أن الباشا نوع خاص من رجال المخابرات، لا في مصر وحدها، وإنما في العالم كله... هز طاهر رأسه وكانت ابتسامته لا تزال معلقة على شفتيه، رفع عينيه نحو عزت متسائلًا:

ـ الباسبور بتاعه جاهز؟

ـ والڤيزات والفلوس.

ـ حجزت له إمتى؟

ـ النهار ده في طيارة الساعة خمسة ونص.

قال عزت هذا وهو ينظر في ساعته، كانت الآن تشير إلى السادسة وأربعين دقيقة، وجاءه صوت طاهر يسأل نديم:

ـ وأنت يا نديم... حاتلحق؟

قال نديم وهو يخطو نحو الباب:

ـ ما تنعاش هم.

ثم اختفى.

في فناء جانبي صغير، كانت سيارته البيچو المستعملة هناك، خطا نحوها بخطوات كانت تدق الأرض في نغم يوحي بالثقة، دلف إلى السيارة وقد اجتاحته لذة غريبة... زفر نديم في ارتياح من تخلص من كابوس وهو يدير موتور سيارته هاتفًا:

ـ أخيرا ظهر.

كان كالصياد الذي تتبع فريسة بعينها لشهور وراء شهور، يرحل خلفها إذا ما رحلت، ويبحث عنها إذا اختفت، لا يني، ولا يتوقف إلا إذا بدت له في الأفق، فيسعى إلى اصطيادها... الصياد الحقيقي يعرف يقينا أن هذه هي لحظة اللذة الكبرى، الإحساس الذي يفوقه إحساس الاقتناص نفسه.

اخترق نديم ضاحية كوبري القبة وتوغل في طريق عسكري قصير، وعندما وصل إلى طريق صلاح سالم انحرف إلى اليمين، وكما أطلق العنان لسيارته، أطلقه أيضا لأفكاره.

* * *

الخطر...

إكسير الحياة وباعث القوة في الروح والجسد معًا، يقول التاريخ: إن كل تقدم علمي أحرزه بنو الإنسان على هذه الأرض، كان الإحساس بالخطر هو بذرته الأولى، فهل كان الفيلسوف الألماني نيتشه على حق؟

يشعر وكأن ذبذبات غامضة تسري في كيانه فتجتاحه لذة لا تفوقها لذة أخرى... قالت له زوجته ذات يوم إنه يكون في أحسن حالاته عندما ينغمس في العمل إلى أذنيه، لم تكن تعرف عندما قالت ما قالت طبيعة عمله، هي لا تعرف حتى الآن ما الذي يفعله زوجها بالضبط، لكنه إحساس الأنثى الذي لا يخطئ... كم من مآزق وقع فيها، لو أنه فكر الآن كيف ينجو منها لما استطاع أن يجد لنفسه طريقًا، لكنه، وهو في وسط الخطر، كان ينجو بما يشبه المعجزات.

العمليات السرية عند نديم هاشم كالمباريات الرياضية سواء بسواء.

هو بطل من أبطال التنس في مصر، التنس هو الرئة التي يتنفس بها بين الحين والحين فوق سطح الحياة، ولو أنه استمر في اهتمامه به، لكان

اليوم واحدًا من أبطاله المرموقين... وبرغم هذا، فإن مبارياته في النادي حتى الآن تثير جدلًا، وتجذب عددًا لا بأس به من متذوقي اللعبة.

وها هي مباراة جديدة مع العدو، وهي ـ هذه المرة ـ ليست مباراة عادية... ففوق ما يكتنف المباريات عادة من إثارة، هناك إرادة إثبات أنك لا تزال موجودًا، أنك لم تنته كما أرادوا لك، وأنك قادر على اللعب وعلى الانتصار أيضا.

كانت هزيمة عام ١٩٦٧ خارجة عن كل إرادة، كانت قدرًا محفورًا على الجبين فأين المفر؟

ولا بد...

لا بد من دفع الثمن.

* * *

اندفعت السيارة البيجو في الطريق الصاعد إلى قمة جبل المقطم في سرعة. كانت الساعة قد تعدت السابعة ببضع وعشرين دقيقة... وهذا هو وقت نزول سكان المقطم إلى أعمالهم، سواء في سياراتهم الخاصة ـ وكم هي جد قليلة ـ أو في الأتوبيس... لذلك، فلقد وضع نديم على عينيه تلك النظارة السوداء الكبيرة التي تخفي معالم وجهه... كان يعلم أن العد التنازلي في مباراة الحفار «كينتنج» قد بدأ، وأنه الآن يخطو الخطوة الأولى، خطوة لا مغامرة فيها، لكنها قد تكون أصعب الخطوات على الإطلاق.

مهمته من الآن وحتى لحظة الانطلاق، هي تلقين الرجال أسماء غير أسمائهم، أن يغير حياة كل منهم تغييرًا كاملا... وكان على كل منهم قبل أن يتحرك أن يمتلئ بذلك الشعور الغريب بأنه قد أصبح إنسانًا آخر، له اسم آخر، وماض آخر، وحياة أخرى، وأهل آخرون... وأن يعي هذا

وعيا عميقا يمتد إلى أعمق أعماقه، فمن يدري ما الذي سوف يحدث لو أن أحدهم سقط في يد الأعداء أو أشباه الأعداء أو أصدقاء الأعداء؟

كان على الرجل منهم، إذا ما وقع المحظور، أن يصمد وأن يقاوم وأن يصبح أي أحد بأي أصل وأي بلدة وأي عمل... إلا أن يكون ضفدعًا بشريا.

كانت هذه هي مهمة نديم في الأيام القليلة القادمة، وهي مهمة كان يؤجلها إلى اللحظة المناسبة، وها هي اللحظة قد حانت.



كان محمود شوكت نوعًا خاصًا من رجال المخابرات المصرية بالذات... هو سليل أسرة من تلك الأسر الريفية التي تمتد أصولها الأولى إلى الأناضول، أسرة ثرية كانت تملك مساحات شاسعة من الأراضي، لكنها واحدة من تلك الأسر التي تفخر بالأدوار الوطنية البارزة التي لعبها الرجال من أجيالها ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر.

ونشأ شباب الأسرة يفخرون، لا بما يملكون من أراض وفدادين، وإنما بما قدمه آباؤهم وأجدادهم من تضحيات في سبيل استقلال مصر... وأصبحت الوطنية ميراثًا يعتز به الرجال في هذه الأسرة الشهيرة في وسط دلتا النيل جيلا بعد جيل.

ولقد نشبت أزمة مارس عام ١٩٥٤ بين رجال الثورة وبين محمد نجيب، ومحمود شوكت يكمل دراسته في باريس، فوقف ضد رجال الثورة مؤيدًا محمد نجيب، وانقطعت عنه المعونة المالية التي كانت ترسل له من القاهرة... فلم يتراجع، وراحِ يبحث عن عمل يكسب به قوت يومه، ووصل به الأمر أن عمل حمالاً في سوق «الهال»، واشتغل خطاطًا لأهالي شمال إفريقيا العرب، ولما كان الزواج في باريس زواجا

مدنيًا فقط، فلقد قام في بعض الأحيان بمهمة المأذون الشرعي بين مسلمي إفريقيا السوداء الذين كانوا يملأون عاصمة النور.

في تلك الأيام، وقع محمود شوكت في حب إفريقيا... لم يكن يعرف عنها شيئًا إلا ما تعلمه في كتب الجغرافيا، ولكنه في أيام المحنة عرفها، وتعرف عليها، وسقط صريع هواها، وأصبحت حبه الأبنوسي الأعظم... تعرف هناك على زعماء من الجزائر وتونس والمغرب ومالي والكنغو ونيجيريا وساحل العاج والكاميرون وغانا وغينيا... تعرف عليهم في دروب الهال المبللة بمياه المطر والمطاعم، ووسط روائح الطعام وأبخرة الشواء، تعرف عليهم في أزقة مونمارتر، التقى بهم وناقشهم وتحمس لهم وخبر قضاياهم... أبناء هذه البلاد التي كانوا يطلقون عليها اسم «إفريقيا الفرنسية»، كما أطلق هو على أحياء بكاملها في باريس اسم «فرنسا الإفريقية».

وفي عام ١٩٥٦، كان محمود شوكت يشغل وظيفة مذيع في الإذاعة العربية بباريس، وكان من زملائه وأصدقائه في الإذاعة، الرسام والأديب الراحل «رمسيس يونان»، وكان منهم الممثل الكبير «محمود مرسي» وشاب لبناني أصبح فيما بعد صاحب دار نشر كبرى هو الأستاذ «أحمد عويدات»... كان شوكت على خلاف مع الحكومة في مصر، ولكن... عندما طلبت منه الإذاعة الفرنسية أن يقرأ تعليقًا ضد مصر... رفض.

ففي يوم ٩ إبريل عام ١٩٥٦، كتب الرئيس الراحل أنور السادات، وكان وقتها رئيسًا لمجلس إدارة دار التحرير، مقالاً في جريدة الجمهورية عن المشكلة الفلسطينية، وأرادت الإذاعة الفرنسية أن تذيع ردًا على ما كتبه السادات، كان الرد لصالح إسرائيل، وكان المذيع المنوط به إذاعة هذا التعليق، هو محمود شوكت الذي رفض، وقاد حملة الرفض التي شملت كل المذيعين العرب، ففصلته الإذاعة الفرنسية.

الوطنية عنده ليست لفظًا ولا خلافًا أو اتفاقًا... إنها موقف.

ولقد اشتهر هذا الشاب صاحب الملامح التركية، والقامة الفارهة، والصوت العريض، والأسلوب المتدفق في الحديث، اشتهر فيما بعد بين زملائه في جهاز المخابرات المصري بجرأته الشديدة، وثبات أعصابه، وأسلوب حياته الأرستقراطي، فأطلقوا عليه لقب «الباشا».

* * *

كان الباشا الآن يقود سيارته الأمريكية الفاخرة في شوارع القاهرة، لم يكن يعلم شيئًا عن الموضوع الذي من أجله تحدث إليه طاهر رسمي في هذا الوقت من الصباح، الساعة تدب نحو الثامنة، وشوارع القاهرة تشغي كخلية نحل... منذ أسابيع وأنفه تتشمم تلك الرائحة النفاذة لإحدى العمليات الخطيرة، يقينه الذي راهن عليه نفسه أن للعملية علاقة بإفريقيا... ولكن...

ما الذي يفعله طاهر رسمي الآن في إفريقيا؟

وما الذي يريده منه بالتحديد؟

قال طاهر رسمي وهو يومئ نحو حقيبتين في ركن الغرفة:

ـ عاوزك تسافر بالشنطتين دول.

التفت شوكت نحو الحقيبتين، صمت لثوان ثم سأل بلهجة خبير:

ـ وزنهم قد إيه؟

ـ ثمانين كيلو.

ـ فيهم إيه؟

ـ ديناميت.

ران على جو الغرفة سكون عميق وموحش، خطا محمود شوكت في بطء نحو الحقيبتين. انحنى على أولاهما وحملها، ثم أعادها، حمل

الأخرى، ثم أعادها... أطرق مفكرًا، عاد إلى مكانه، وقف في مواجهة طاهر، أخرج صندوق سجائره، دس سيجارة بين شفتيه، لكنه قال قبل أن يشعلها:

ـ حايكلفوك كتير يا طاهر.

تنفس طاهر الصعداء.

ابتسم في سعادة كما ابتسم عزت بلال وهو يهتف في حماس:

ـ تشرب قهوة؟

صاح فيه شوكت:

ـ تركي.

فلقد كان معروفًا عنه أنه يكره القهوة الفرنسية كراهية شديدة.

* * *

ولا أحد يستطيع أن يعرف الطريق الذي سلكه محمود شوكت من القاهرة إلى دكار، فلقد كانت كل مطارات أوربا بلا استثناء، مناطق شديدة الحساسية في تلك الأيام التي كانت أخبار اختطاف الطائرات بل تدميرها بواسطة الفلسطينيين، أخبارا تكاد تكون يومية... وقبل هذا اليوم، بثلاثة أيام، كانت وكالات الأنباء وصحف العالم كله تتحدث عن تلك العملية الشديدة الجرأة، التي قام بها الفلسطينيون عندما فجروا إحدى طائرات «سويس إير» المتجهة من جنيف إلى تل أبيب، حاملة وفدًا إسرائيليا مات أفراده جميعًا في الحادث.

كان المرور من مطارات أوربا ـ لأي عربي ـ أمرًا بالغ الصعوبة.

وكان المرور منها، بحقيبتين مليئتين بالمتفجرات، أمرًا بالغ الاستحالة.

ثم... لم يكن أمام شوكت سوى الطيران، فليس هناك وقت، كان عليه أن يكون في دكار خلال ثمان وأربعين ساعة.

ومهما كان الأمر، فهو أمر بالغ الصعوبة أن يعرف أحد تفاصيل الخطة التي وضعها طاهر رسمي والتي لا بد أن محمود شوكت قد ناقشها معه أو عدل فيها أو قبلها... لا أحد يعرف سوى أن العاصمة السنغالية، بعد ست وثلاثين ساعة، شهدت رجل الأعمال التركي «عصمت كارجي»، مع صديقته الفرنسية «ليليان»، أو «ليلي» كما كان عصمت يناديها بصوته العالي... وكان ينزل في واحد من أفخر الفنادق، ويحجز جناحًا، وينفق في بذخ، ويصادق الرجال بسهولة بالغة، ويحمل في حقيبة أوراقه مشروعات اقتصادية وتجارية مهمة.

كان عصمت كارجي هذا، هو محمود شوكت بعينه، ولقد اتسمت رحلته برغم تعقد مسالكها ودروبها باليسر والسهولة، لكنه لم يكن يعلم أن وصوله إلى دكار، كان إيذانًا ببدء المعركة.

* * *

صاح المخرج مدحت صبري من خلف الكاميرا:

ـ استوب.

وتوقف التصوير، وانتهى المشهد الذي كانت تمثله «دلال شوقي» التي التفتت نحو المخرج متسائلة:

ـ إيه النظام؟

قال مدحت:

ـ إنتي حاسة بإيه؟

ـ مش عارفه.

ابتسم وهو يلتفت إلى مساعدة المخرج «سعاد الحكيم» قائلًا:

ـ اطبعي يا سعاد.

كان هذا إيذانًا بأن المشهد على ما يرام، لكن دلال كانت لا تزال واقفة في مكانها وهي ترقب هذا الرجل المحير... انشغل الجميع في الإعداد للمشاهد التالية، تعالت الصيحات هنا وهناك، ونشطت الحركة في تلك البقعة من الغابة التي وقع الاختيار عليها لتصوير بعض المشاهد الخارجية للفيلم، واستغرق مدحت في الإعداد للمشهد التالي... فلم تجد دلال أمامها سوى أن تسعى بين الأشجار وقد استغرقت في التفكير.

كانت تشعر أن الحياة في الغابة خلال اليومين الماضيين ـ برغم الحرارة الشديدة ـ قد أكسبتها إحساسًا دافئًا بالحياة، لكنها ـ كلما مرت الساعات ـ كانت تشعر بالحيرة تطبق عليها من كل ناحية.

وقبل أن تصل دلال شوقي إلى نيجيريا، عرفت حل اللغز الذي حيرها في القاهرة... عرفت من أين جاء عزوز جابر بالمال اللازم لتمويل هذا الفيلم... ولقد كانت تظن أن حل هذا اللغز سوف يلقي الضوء على جزء كبير من المشهد الغامض الذي كان عليها أن تؤديه، لكن المشكلة أنها عندما عرفت الحل، وجدت نفسها أمام لغز أكبر.

كان السكون يطبق عليها وهي تسعى بين الأشجار مبتعدة عن مكان التصوير... وفي البداية، فلقد أحست دلال أن مدحت صبري هذا لا يمكن إلا أن يكون ضابطًا بالمخابرات، وطدت نفسها منذ أن وافقت فريد ذهني على هذا... وكانت تعلم يقينًا أن هذا الفيلم ليس سوى ستار لشيء آخر، فما هو هذا الشيء؟ حدثها فريد عن حفار اسمه «كينتنج» لكنها تعيش منذ وصولها بعيدًا عن الشاطئ والبحر بما يزيد على المائة كيلو متر، فأين إذن هذا الحفار؟ وكيف يصلون إليه وما هي علاقتهم به؟!

الغريب في الأمر، أنها عندما سألت عزوز من أين جاء بالمال، وجدته ينفجر وكأنه يريد أن ينفس عما في صدره، اندفع يقص عليها ما حدث في حرارة وتدفق ودون توقف.

كان هذا في الطائرة التي أقلت البعثة من الخرطوم إلى لاجوس، جاء عزوز من مقعده كي يجلس إلى جوارها، نظرت إليه باسمة فانفرجت أساريره، فجأة سألته ودون تدبير:

ـ جبت فلوس الفيلم منين يا عزوز؟

بدا عزوز لأول وهلة وكأنه أُخذ من السؤال، لكنه ابتسم قائلا:

ـ أنا كنت مستني إنك تسأليني السؤال ده في مصر مش هنا.

وقبل أن تنطق... اندفع هو يحكي.

* * *

دعي عزوز جابر ذات ليلة للعشاء عند عائلة من العائلات الصديقة لا علاقة لها بالفن... كان وقتها يعاني من تلك الأزمة المالية الشديدة عقب عرض فيلمه الأخير، وهناك التقى بشاب ملون العينين أشقر الشعر مهذب الحديث ذي لكنة تشير إلى أنه قضى سنوات طويلة بعيدًا عن مصر... قدمته صاحبة الدعوة لعزوز على أنه ابن خالتها، وأنه مخرج شاب عائد من الولايات المتحدة وفي ذهنه خطط شتى لأفلام جيدة.

في البداية، عزف عزوز عن مدحت صبري، كان يعرف هذا النوع من المخرجين الذين يعودون من بعثاتهم بحثًا عن فرصة، يلونون ألسنتهم ببعض المصطلحات الأجنبية ورؤوسهم خاوية إلا من أفكار تنفجر في الهواء كصواريخ الزينة... ومن كان منهم مخرجًا بحق، فهو مكلف، ينفق الألوف ليجني المنتج من ورائه القروش... وسواء أكان الأمر هذا أم ذاك، فلم يكن عزوز على استعداد لدخول مغامرة، بل إنه ـ أساسًا ـ لم

يكن على استعداد لمناقشة أي شيء عن السينما مع مبتدئ حتى ولو كان عبقريًا... لكن الغريب في الأمر، أن مدحت صبري هو الآخر، عزف عن عزوز، بل أمعن في العزوف والابتعاد، ومضت السهرة في يسر وبساطة، بدا مدحت منذ الوهلة الأولى، من هذا النوع المهذب من الرجال الذين يحترمون أنفسهم ويثقون فيها... ولكن، وقبل أن تنتهي الليلة، وجد عزوز أنه من اللائق أن يثير مع المخرج الوافد حديثًا عن السينما، لا لسبب، إلا لمجاملة مضيفته، فجاءته المفاجأة كالصاعقة...

ما كاد يبدأ الحوار حتى وجد نفسه أمام شاب يعرف أسرار الصناعة معرفة كاملة، ولكن الذي ألهب خياله حقًا، وجعل السهرة تمتد حتى مطلع النهار أنه اكتشف أن مدحت لا يبحث عن منتج، فلقد كان يملك من المال ما يكفي لإنتاج الأفلام التي يريدها.

- وبصراحة يا مدام، لقيتها فرصة... قلت أشوف مَيّته إيه؟

ووجد عزوز في مدحت فرصة أرسلتها السماء إليه، وإذا كان قد توقف منذ شهرين عن دفع مرتبات موظفي مكتبه، فلقد كان مدحت يبحث عن مكتب يدير منه أعماله حتى عثر على مكتب مناسب... وهنا، تشبث عزوز بالفرصة بمخالبه ووضع مكتبه، بل وخبرة موظفيه، تحت أمر مدحت صبري.

ثم تطور الأمر في لقاء آخر تم بينهما، في اليوم التالي مباشرة، في مكتب عزوز الكائن بإحدى عمارات وسط المدينة، تطور عندما عرض مدحت على عزوز نسبة من الأرباح نظير استخدام المكتب بموظفيه، واستخدام اسم الشركة وصاحبها وخبرته في السوق المحلية... وكانت النسبة التي عرضها مدحت هي خمسون في المائة من الأرباح.

قال عزوز لدلال وهما في الطائرة:

ـ لقيت نفسي قدام ثعلب مش مخرج.

وكان عزوز على حق، فمن أين له أن يضمن نجاح الفيلم، ومن أين له أن يضمن أرباحًا.. وهكذا سأل مدحت صبري الذي قال في هدوء:

ـ هو فيه فيلم بيخسر يا أستاذ عزوز؟

هم عزوز عندما استطرد مدحت بنفس الهدوء:

ـ الفيلم الأخير بتاعك سقط إنما ما خسرش.

كان واضحًا أن مدحت ليس هينًا، وكان واضحًا أنه يفهم الحركة الاقتصادية للسينما المصرية فهما كاملًا، وقبل أن ينصرف مدحت في تلك الليلة، تم الاتفاق بينهما، وتسلم عزوز شيكا بمبلغ عشرة آلاف جنيه مصري للتحضير للفيلم الجديد.

استمعت دلال إلى ما قاله عزوز وقد أدركت أن اللغز يزداد تعقيدًا، ليس لأنها تشك أن مدحت رجل من رجال المخابرات المصرية، ولكن لأنها ـ هي أيضًا ـ أدركت منذ لقائها الأول مع مدحت، ومناقشتها معه في السيناريو، أنه يفهم عمله جيدًا... و... وليس لهذا فقط أدركت دلال أنها أمام لغز محير، ولكن أيضا... لأنها راحت تفكر: أي حفار هذا الذي تنفق مصر كل هذه الأموال كي تدمره؟

ـ أقولك ولا تقوليش لحد؟

هكذا جاءها صوت عزوز وكأنه رد على تساؤلها، التفتت نحوه دون أن تنطق، قال:

ـ الفيلم اتباع بره بتلتين ميزانيته.

بدت عليها الدهشة، فهز عزوز رأسه مستطردًا:

ـ ما تخافيش يا مدام، مدحت فاهم شغله كويس.

وإذا كان الفيلم قد بيع للتوزيع الخارجي بثلثي ميزانيته، فإن الثلث الباقي هين، بل إن الربح أصبح مضمونًا حتى ولو فشل الفيلم... ولهذا كان حماس عزوز الشديد.

وها هي قد دخلت التجربة، وها هي ـ يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، بل شهرًا إثر شهر ـ تتأكد أن مدحت صبري مخرج... كان يدير العمل بكفاءة من وقف خلف الكاميرات لسنوات، كان يناقش مدير التصوير والمشاهد والإضاءة والمكياج والملابس ويتحدث عن الموسيقى التصويرية وكأنه يشاهد الفيلم أمامه على الشاشة... فكيف؟!... كيف؟!

وإذا كان مخرجًا، فأين كان؟! ومن أين جاء؟!

وإذا لم يكن فمن يكون؟!

ـ وصلتي لحد فين؟

جاءها صوته وسط السكون المطبق على الغابة فانتفضت، استدارت، وكان مدحت صبري يقف بعيدًا عنها بقامته المديدة وابتسامته الواثقة... كانت قد توغلت بين الأشجار حتى اختفى ضوء النهار إلا من أسلاك لأشعة الشمس كانت تنفذ من بين الفروع والأوراق الكثيفة، أسلاك ذهبية تنفذ من السماء إلى الأرض لتصنع من حولها جوًا أسطوريًا... تقدم منها خطوات وهو يسأل:

ـ بتفكري في إيه؟

ـ فيك.

قالتها في حرارة كانت تعلم أنها تربك أشد الرجال ثباتًا، لكنه لم يهتز، توقف، تماوجت ابتسامته على شفتيه معلنة عن خجل غير مصطنع، عاد يسأل:

ـ إزاي؟

ـ غريبة إنك طلعت مخرج.

هتف في دهشة وحرارة:

ـ أمال كنت عاوزاني أطلع إيه؟

وارتبكت... أدركت أنها أخطأت، وأن خطأها قد يكون جسيمًا، أقسم لها فريد ذهني أن أحدًا من العاملين في الفيلم لا يعرف شيئًا عن الموضوع... ثم، ما هذا الارتباك الذي يسري في أوصالها فكأنها عادت إلى الخامسة عشرة من جديد. عيناه الملونتان تبعثان بالدفء إلى الدنيا من حولها، كم من مرة أرادت أن تسأله عن لون عينيه، ولكن..، طال الصمت وعليها أن تبدده وإلا تبددت هي، عليها أن تهرب، اندفعت في طريق العودة وهي تهتف:

ـ أصل الشغل اللي إحنا........

أمسكها من ذراعها فانصاعت، توقفت في استجابة لم تردها:

ـ الشغل ما له؟

رفعت إليه عينين متوسلتين وجاء صوتها مبددًا:

ـ أصل أنا حاسه إني ممكن أديك أحسن من كده بكتير.

واكتشفت أن جملتها قد اندفعت من أعماقها دون قصد، وهي تحمل الكثير من المعاني، أحست بوجهها يتضرج بالدماء ويلتهب بحرارة طال البعد عن مذاقها، نزعت ذراعها من قبضته وهرولت بين الأشجار وهي تقول:

ـ يلّا بينا زمان المشهد جاهز.

* * *

أخيرا وصلت رسالة فرناندو بالديرا إلى طاهر رسمي، وكانت رسالة مفزعة، كانت كنزًا يثير عشرات الأسئلة، وعشرات الشكوك، والكثير من الحذر والحيرة، أمسك طاهر بصورة فتاة تجلس في مطعم لفندق متواضع، قدمها إلى عزت بلال متسائلًا:

ـ تعرف دي مين؟

أمسك عزت بالصورة، وما أن وقع بصره عليها حتى هتف في دهشة:

ـ دي سارة جولد شتاين.

قفز طاهر من مكانه وراح يضرب في الغرفة على غير هدى وهو يقول:

ـ دي كانت في الأزورس، كانت في انتظار الحفار في بونتا دلجادا.

ـ ومين اللي أخذ لها الصورة دي؟

ـ فرناندو.

ـ يا نهار أسود.

لم يكن طبيعيًا أو منطقيًا أن ينطق ضابط مخابرات بمثل هذا التعبير الشائع في مصر، خاصة إذا كان في مثل خبرة بلال ومكانته... لكن الرجل أدرك، بمجرد أن وقعت عيناه على الصورة، أن المباراة حول الحفار كينتنج تدخل في دور الخشونة، والضرب تحت الحزام.

سارة جولدشتاين.

اسمها الحقيقي «ليلى مسعود»، ولدت في اليوم التاسع من مارس عام ١٩٣٦ في حارة زاوية الأعرج المتفرعة من حارة اليهود المتفرعة من شارع الميدان بالإسكندرية، رحلت عن مصر في عام ١٩٥٣ وهي في السابعة

عشرة من عمرها بصحبة أمها وشقيقة صغيرة وشقيق أكبر منها هو زكي مسعود الذي عرف فيما بعد باسم «إيزاك ليفي» المتخصص في اصطياد الشباب العربي في أوربا وتجنيده لحساب المخابرات الإسرائيلية... أما سارة، أو ليلى مسعود، فلا أحد يعرف على وجه التدقيق متى انضمت إلى جهاز الخدمة السرية في «الموساد»، ولقد استطاعت أن تدخل مصر عدة مرات، مرة بجواز سفر أمريكي، ومرات أخرى بجواز سفر فرنسي... تحمل عداء خاصا وشديدًا للمصريين، يرجح أن سببه تجربة عاطفية في فجر صباها وشبابها... تزوجت مرتين، مات زوجها الأول، وكان طيارًا عندما سقطت طائرته على الجبهة المصرية في أثناء عدوان عام ١٩٥٦، وغرق الثاني ـ الذي كان ضابطًا بحريًا ـ مع السفينة الحربية الإسرائيلية «إيلات» أمام شواطئ بورسعيد بطوربيد مصري بعد معركة عام ١٩٦٧.. شديدة الذكاء، ذات قدرة خاصة على التخفي، تجيد ست لغات، تبدو دائمًا أصغر من سنها بعشر سنوات على الأقل، لا تظهر إلا في الأوقات التي تستلزم جرأة فائقة، ويصاحب ظهورها دائما عمليات عنف غير متوقع.

بداية..

كان المطلوب من فرناندو بالديرا أن ينتظر وصول الحفار إلى بونتا دلجادا، حتى إذا ظهر أرسل برقية، ثم ينتظر رحيله، حتى إذا أبحر، أرسل برقية أخرى... فقط، لا شيء غير هذا.

لكن الرسالة التي وصلت من لشبونة إلى القاهرة، فلقد كانت عملًا متكاملًا، كانت هناك صور عديدة للحفار في ميناء بونتا دلجادا، صور تضيف إلى تلك الصور التي أرسلها «موريس» من كندا معلومات ـ إن صدقت ـ شديدة الأهمية، كانت الصورة توضح أسلوب الحراسة على الرصيف، وأسلوب الحراسة في المياه المحيطة به.

ليس هذا فقط.

إن تكبير بعض الصور، كفيل بأن يعطي المصريين صورًا واضحة لبعض رجال الأمن، بل، لبعض رجال المخابرات الإسرائيلية المعروفة وجوههم ـ وربما أساليبهم ـ للمصريين. لم يقتصر الأمر على هذا.

تحدثت الرسالة عن فتاة أمريكية اسمها «باربرا هوڤمان» وصلت إلى جزيرة سان ميجيل في ظروف غريبة لتدرس طبيعة الأرض البركانية للجزيرة، ثم رحلت في ظروف أغرب، ولم تكن «باربرا هوڤمان» هذه سوى «سارة جولدشتاين» أو «ليلى مسعود».

كانت الأسئلة التي طرحت نفسها على الرجال تحمل شحنات متفجرة من القلق.

فلماذا ـ أولًا ـ عرض فرناندو مهمته كلها للخطر بالتقاطه هذه الصور ـ برغم فائدتها العظيمة ـ دون أن يكون مكلفًا بذلك.

ثم: هل كان الأمر ميسورًا إلى هذا الحد؟

و.. ألا تتناقض هذه السهولة مع عنف الحراسة البادية في الصور؟

وماذا إذا كان الأمر مدبرًا؟ وبوضوح، ماذا إذا كان فرناندو أصبح يلعب لعبة العميل المزدوج، وأن هذه الصور مدسوسة من المخابرات الإسرائيلية لخداع المصريين؟

لو صح هذا كله، وحتى لو صح جزء منه، فلا بد أن الإسرائيليين قد شعروا بما يفعله المصريون!

ألا يستقيم هذا المنطق مع ما جاء من ليز ونورمان في جزر كناري وعلى السفينة السويدية وفي دكار أيضا؟

كان طاهر وعزت غارقين في المناقشة عندما دخل نديم هاشم،

الذي ما إن علم بأمر الصور، حتى انقض عليها انقضاض الجائع، أخذها وانتحى جانبًا وراح يتفحصها ويدرسها... وبدا بعد لحظات وكأنه غاب عن الوعي وهو يتفحص كل صورة على حدة بإمعان شديد... هذه الصور، هو وحده الذي يستطيع أن يقدر، سواء الآن، أو فيما بعد في أثناء المعركة، إن كانت تحمل معلومات صحيحة أم لا؟

أعاد طاهر وعزت قراءة رسالة فرناندو مرة ومرة ومرات، كانت تحكي ما حدث، كيف التقى بباربرا هوڤمان، وكيف وصلت، وكيف ثار شكه من حولها ولماذا، وكيف التقط الصور.... و.... و....

وكانت كل كلمة من كلمات الرسالة تحمل معيارًا للصدق ومعيارًا للكذب، وكل جملة أو معلومة تحمل سهمًا يشير إلى الحقيقة أو التلفيق... و...

واستغرق الأمر منهما وقتًا لا يدريان إن كان قد طال أم قصر، كما استغرق تفحص الصور من نديم وقتًا كاد يطول لولا أن دق جرس التليفون، رفع طاهر السماعة.

ـ أيوه.

أنصت لثوان ثم هتف:

ـ هاتها لي فورًا.

أعاد السماعة وهو يقول:

ـ رسالة من دكار.

بعد دقيقة وبضع ثوان سمع دقا على الباب:

ـ ادخل.

دخل رجل يحمل الرسالة الشفرية، سلمها لطاهر في صمت ومضى،

غادر الرجل الغرفة ففتح طاهر البرقية، لم يكن الآن في حاجة إلى مفتاح للشفرة، كان قد حفظه عن ظهر قلب، ولذلك، فما أن ألقى نظرة على البرقية حتى شعر الرجلان أن شيئًا هائلًا قد حدث، قال عزت:

ـ إيه الحكاية؟

فرد طاهر:

ـ الحفار دخل دكار.

الفصل السابع
الصدفة الذهبية

سمعت نقطة ميه جُوّه المحيط
بتقول لنقطـة ما تنزليش في الغويـط
أخاف عليكي من الغرق.. قلت أنا
ده اللي يخاف من الوعد يبقى عبيط

عجبي

رباعية: لصلاح جاهين

وكأن أبواب العقول تتفتح عن كنوز لا يدري أصحابها عنها شيئا، تحول الفرسان الثلاثة إلى كائنات شديدة الدقة في الحركة والتصرف والتفكير وكأنهم أصبحوا جزءًا من كل هائل راح يهدر نحو هدف بعينه... لم يكن أحدهم قد عرف للنوم طعمًا طيلة الليلة التي مضت، لكنهم جميعًا كانوا يشعرون في تلك اللحظات التي أصبح الحفار فيها في متناول اليد أنهم ناموا لسنوات طويلة، استعدادًا ليقظة لا تعرف الغفلة.

كانت صورة «سارة جولدشتاين» أو «ليلى مسعود» أو «باربرا هوڤمان» أو أيا ما كان الاسم الذي تتسمى به هذه الفتاة الشديدة الخطر. قد وضعتهم أمام خيارين لا ثالث لهما:

إما مواجهة العنف بعنف مماثل.

وإما السعي إلى النصر بلعب نظيف. دون اللجوء إلى الضرب تحت الحزام، وإذا كان ظهور «سارة جولدشتاين» على مسرح الأحداث في جزيرة سان ميجيل، قد واكب ظهور البروفسور «إيزاك ديستان» في جزر كناري ـ وكان الرجال قد رجحوا أن يكون هو نفسه ضابط المخابرات الإسرائيلي البولندي الأصل «داڤيد ليڤنجر» الذي تخصص في أعمال الخطف ـ فإن معنى هذا أن الإسرائيليين لا يفرضون على الحفار حراسة مشددة ورهيبة فقط، وإنما يحيطونه بمخالب تمشط كل الشكوك التي قد تحيط بالحقل الذي يتحرك فيه الحفار.

ولو فُرض أنهم لا يعلمون شيئًا عن حركة المصريين بعد، إلا أنهم بالقطع قد وضعوا هذه الحركة في الاعتبار، وأصبحوا يتصرفون كما لو أنها موجودة حتى لو لم تكن كذلك، وكانوا على استعداد لاستعمال أقصى وسائل العنف، وأشد وسائل الخشونة شراسة.

وللعنف والخشونة أساليب يعرفها الرجال ويتقنونها. كما يعرفون أساليب هذه النماذج من رجال «الموساد». وكم خبروا ألاعيبهم في جولات شملت ساحات العالم شرقًا وغربًا. وإذا كان الأمر يستلزم تقليم هذه المخالب، والتعامل مع تلك النوعية من البشر... فهل يواجهون العنف بعنف مماثل، والخشونة بخشونة أشد ضراوة؟

طرح السؤال نفسه على الرجال الثلاثة، لكن سؤالًا آخر فرض نفسه فرضًا.

هل يستطيعون تحقيق الهدف بلا خشونة، وبلعب نظيف لا يضربون فيه تحت الحزام؟

كان هناك اعتبار لا بد من وضعه في الحسبان: إن أرض الملعب تقع في دول صديقة، أو دول نسعى إلى توطيد علاقاتنا بها، لأنها في البداية والنهاية أرض إفريقية، والأفارقة منا ونحن منهم، يربطنا بهم مصير واحد، وهدف واحد حتى ولو اختلف البعض منهم معنا.

وهكذا لم يأخذ الأمر من الرجال الثلاثة طويلًا، فلقد أجمعوا على أن اللعب النظيف ـ في الظروف المحيطة بالمباراة ـ أجدى... وجدوا أنه من الأوفق ألا يشعر الإسرائيليون بأي رد فعل مهما كانت خشونتهم... وجدوا أن هذا وحده كفيل بأن يبعث بالاطمئنان إلى نفوسهم. سوف

يطمئنون إلى أن المصريين ليسوا في الساحة، وهكذا يستطيع المصريون أن يضربوا ضربتهم وهم ـ أيضًا ـ مطمئنون.

استقر الأمر بالرجال فاندفعوا إلى العمل بسرعة، راح كل منهم يصنع شيئًا: يجري مكالمة، يختبر حقيبة، أو إحدى المعدات، يبحث في دليل عن اسم أو عنوان. يعكف على خريطة أو رسم هندسي، وفجأة، سأل طاهر:

ـ هو النهارده إيه في الأيام؟

ـ أول أيام العيد.

قالها نديم بسرعة من يقرر حقيقة لا تبعث على دهشة أو توقف... كان ـ هو نفسه ـ قد انتبه إلى هذه الحقيقة في مساء الليلة السابقة، عندما كان مع رجال الضفادع البشرية في مكمنهم السري فوق جبل المقطم، قضى معهم ساعات لا يدري عددها ينادي كلًا منهم باسمه الجديد، ويحدثه عن حياته الجديدة ومسقط رأسه الجديد... راح يختبر قوة أعصابهم ومقدار انتباههم، أخذ يتحدث معهم جميعًا حديث من نسي أصلهم وفصلهم، ولقد أصبح محرمًا عليهم تمامًا ـ حتى في غيابه وفي أثناء حياتهم اليومية العادية ـ أن ينادي أحدهم زميله باسمه الحقيقي، تمضي الساعات فإذا كل منهم قد أصبح شخصًا آخر... كان الرجال يعلمون أن العد التنازلي قد بدأ، وكانوا على استعداد في أية لحظة، ليلًا أو نهارًا، أن يأتي من يقول لهم: «يلّا بينا يا رجالة»، ثم يصحبهم إلى حيث لا يعرفون، ليقوموا بمهمة لا يعلمون عنها شيئًا حتى الآن.

في الليلة الماضية، وعندما هم نديم بمغادرتهم قبل انتصاف الليل بقليل. ألقى عليهم هذا السؤال التقليدي:

ـ مش عاوزين حاجة يا اولاد؟

هتف المتدين والقرش في وقت واحد:

ـ عاوزين نفطر فتة ولحمة.

ـ إشمعنى؟!

قالها ضاحكًا فردوا عليه جميعا: كل سنة وانت طيب.

وساد الصمت، فلقد انتبه نديم، وكان قد نسي في غمرة ما كان يقوم به، أن عيد الأضحى يقترب، ولم يكن يعلم أن اليوم التالي هو أول أيامه... وابتسم كمن يعتذر، لا للرجال، ولكن لأناس آخرين سوف يقضون أيام العيد وحدهم دون وجوده... تمتم وهو يمد يده للرجال مصافحًا:

ـ كل سنة وانتم طيبين يا رجالة.

تلك لحظات نادرة في أعمار البشر، عندما يلتحمون في سبيل هدف واحد، يسمو على كل ما عداه. حتى ينسى الرجال من أجله كل شيء ولو كان ذواتهم وأنفسهم وزوجاتهم وأولادهم.

لكن الغريب أن نديم نسي الأمر بسرعة مدهشة، وهو يهبط بسيارته طريق المقطم الملتوي، عاد إلى استغراقه في الخطة وترتيباتها وتوقعاته حيالها والاحتمالات المواتية، والاحتمالات المضادة و... و... وهو عندما قال ما قال في ذلك الوقت المبكر من الصباح في غرفة طاهر رسمي المزدحمة بالأشياء والأفكار، ساد الصمت تمامًا وراح كل من الرجال الثلاثة يردد البصر بين زميليه... في تلك اللحظات دق الباب فهتف طاهر وكأنه وجد شماعة يعلق عليها الصمت والفكر وما يجول في الصدور إلى حين:

ـ الفطار.

ثم صاح متحركًا نحو الباب:

ـ ادخل.

وفتح الباب وتهادت بين يدي رجل كان يخطو إلى الداخل صينية هائلة، تفوح منها رائحة الفتة والشواء، والتفت طاهر نحو عزت الذي كان الآن يبتسم، وقال:

ـ هو انت ما بتنساش حاجة أبدًا؟

وغمغم مخزن الأسرار والصمت المسمى بعزت بلال أو الكومبيوتر، غمغم وهو يخلع نظارته الطبية:

ـ كل سنة والبلد بخير.

* * *

كان وقع الجملة رهيبًا، أحس نديم أن ثمة وخزًا في قلبه، واندفعت طبقة رقيقة من الدمع إلى عيني طاهر رسمي، حاول كل منهم أن يخفي مشاعره فراح يتقدم من الصينية عندما دق جرس التليفون، قال طاهر وهو يرفع السماعة:

ـ ده المدير.

وبالفعل، ما كاد يضع السماعة على أذنه، حتى جاءه صوت أمين هويدي من الطرف الآخر مختنقًا بالتهاب حاد في الحلق، وأنفلونزا عنيفة ألزمته الفراش تمامًا:

ـ كل سنة وأنتم كلكم طيبين يا طاهر.

وجاشت عواطف الدنيا من حولهم.

* * *

كان هذا بالتحديد يوم الاثنين ١٦ فبراير (شباط) عام ١٩٧٠.

وعلى مائدة الإفطار الحافلة، تقرر أن تبدأ الحركة فورًا ودون انتظار... تقرر أولًا أن يسافر نديم قلب الأسد في فجر اليوم التالي ـ

الثلاثاء ١٧ فبراير (شباط) إلى دكار... وأن يطير رجال الضفادع البشرية، على حسب الخطة الموضوعة، صباح الأربعاء ١٨ فبراير (شباط)، وأن يتم تدمير الحفار مع أول ضوء يوم الخميس ١٩ فبراير (شباط).

ليس هناك وقت للتفكير أو للتدبير، بل... ليست هناك حاجة أصلًا لهذا أو ذاك، فلقد كان كل شيء جاهزًا ومعدًا منذ أسابيع.

وإذا ما سافر نديم في صباح الغد، فلسوف يصبح أمامه ٢٤ ساعة كاملة لتجهيز المسرح للأحداث القادمة... لم تكن مهمته في هذه الساعات الأربع والعشرين هينة، فلقد كان عليه أن يجري اتصالات شديدة التعقيد مع كل الأطراف التي لا يعرف بعضها البعض في دكار، كان عليه أن يدرس بدقة بالغة مكان الحفار، على أي رصيف في الميناء يقف، كيفية الوصول إليه، نقطة الوثوب، الطريق إليها، المداخل والمخارج، المياه وطبيعتها وعمقها واحتمالات وجود أسماك متوحشة أو ضارة أو قاتلة فيها، الحراسة من حول الحفار، وأماكنه، وطبيعتها، والأساليب المتبعة فيها... المسافة إلى الحفار من نقطة الوثوب ذهابًا وإيابًا، الوقت اللازم للتنفيذ، والوقت اللازم للانسحاب... ثم الرجال ونقلهم وحمايتهم وملابسهم ومعداتهم واستقبالهم ووداعهم... و... و... وعشرات التفاصيل الكامنة في أعماقه في انتظار لحظة البدء.

كان نديم قلب الأسد يعلم أن الحمل كله الآن، قد وضع فوق كاهله، وأن المهمة محفوفة بمخاطر بلا حدود... لكنه ـ بشكل ما ـ كان يعتمد على وجود الباشا هناك، ولقد كان الجميع موقنين أنه ـ أبدًا ـ لن يكتفي بتوصيل المتفجرات إلى دكار، بل لا بد أنه الآن قد عرف الكثير عن الحفار.

ـ ومش بعيد يكون زاره.

قالها عزت بلال كنكتة، فانفجر لها طاهر ونديم ضاحكين.

كان الحديث عن الباشا مدخلًا للحديث عن مسرح الأحداث هناك... ما الذي يجري فيه؟ ماذا فعل الرجال؟ ثم ماذا عن ليز ونورمان؟!

خبرة الرجال أنبأتهم بما سوف يقدم عليه البروفسور «إيزاك ديستان» أو «ديڤيد ليڤنجر» مع ليز ونورمان.

وبرغم أنه لم يكن هناك خوف على الشابين اللذين كانا من هذا النوع من الشباب الأوربي الذي يشعر بالعار لما يجري على سطح الكرة الأرضية من أحداث، كانا في الأصل عضوين في الجيش الجمهوري الإيرلندي، برغم أن نورمان من مواليد إحدى مدن إسكتلندا، وكانت ليز من مقاطعة ويلز... ولقد كان طبيعيًا أن يلتقيا ببعض الشباب العربي في لندن، والشباب تجمعه الرغبة في التغيير، سنة الله ولا تبديل لسنة الله، قرآ وناقشا ودرسا ثم زارا إسرائيل مرة، وبعدها أصبحا مؤيدين عظيمين للقضية العربية، واشتد إيمانهما بأنه قد آن الأوان لهذا العالم كي يقبل التغيير... وأن يحل العدل محل الظلم، والحرية بدلًا من الاستبداد، وأن تعود الأرض لأصحابها... ولذلك، كان سهلًا أن يطلب أحدهم منهما خدمة بسيطة للقضية العربية، كانت الخدمة هي السفر إلى دكار، ومراقبة حفار اسمه «كينتنج»، وتجميع أي قدر من المعلومات عنه.

وإذا كان البروفسور «إيزاك ديستان» يفرض على الفتى والفتاة صداقة هي أقرب إلى الحصار، وإذا كان الشابان الإنجليزيان يشعران أنهما ـ منذ وصولهما إلى دكار ـ مراقبان، فإن الاحتمالات المطروحة تصبح: إما أن ديڤيد ليڤنجر عرف أنهما من الجيش الجمهوري الإيرلندي، وإما أنه قد اشتم بأنفه الحساس، أنهما يعملان لحساب المخابرات المصرية.

ومع وجود «ليلى مسعود» أو «سارة جولدشتاين»، يصبح من المؤكد أن الفتى والفتاة سوف يتعرضان لشيء ما في الساعات القادمة، وأن ثمة حركة عنيفة سوف تشهدها دكار بين لحظة وأخرى.

وعلى الفور أرسلت برقية إلى دكار، تطلب من ليز ونورمان ألا يقتربا من الميناء، وأن يقضيا أيامهما في شهر عسل حقيقي بعيدًا عن أي مكان يثير شبهات من أي نوع... وأكثر من ذلك، أن يستسلما لأي عرض يعرضه عليهما البروفسور «إيزاك ديستان».

غير أن نديم، في خضم المناقشات، أثار نقطة مهمة: فبعد أن انتهى الرجال من طعامهم، وتصاعدت الأبخرة من أكواب الشاي، وسحب الدخان من اللفائف المشتعلة، أمسك نديم بالصور التي وصلت من فرناندو بالديرا. كانت الصور واضحة إلى حد يفضح تمامًا أسلوب الإسرائيليين في حراسة الحفار... فهل هذه الصور حقيقية؟

ثم: وحتى ولو كانت الإجابة بنعم. فكيف؟ وما الذي حدث في جزيرة سان ميجيل؟ وكيف أقدم فرناندو على ما أقدم عليه دون استئذان؟ ولماذا؟ وبالذات، وحتى تكتمل الصورة أمام عيني الرجل الذي كان يستعد للقفز على قاع الفريسة لتدميرها، ماذا عن كل حركة وكل سكنة وكل تصرف قامت به سارة جولد شتاين في بونتا دلجادا؟

* * *

على بُعد بضعة عشر كيلو مترات من لشبونة، تقوم مدينة صغيرة، ربما يعتبرها البعض ضاحية بعيدة من ضواحي العاصمة البرتغالية اسمها «أشتوريل».

ولقد اشتهرت أشتوريل في أوساط معينة من العالم، هي أوساط المقامرين والباحثين عن الإثارة والمغامرة، ذلك أنها تضم كازينو هائلًا، أقيم فيها على غرار كازينو مونت كارلو صاحب الشهرة العالمية، وإذا كانت «أشتوريل» أقل شهرة من مونت كارلو في إمارة موناكو، ولاس فيجاس في جنوب ولاية نيفادا الأمريكية، فإنها تتمتع في عالم

الميسر بسمعة ذات طابع خاص، هي الهدوء ونظافة اللعب والمستوى الأرستقراطي العريق الذي ينتمي إليه روادها.

وقبل يومين أو ثلاثة على وجه التقريب ـ فتحديد التاريخ هنا أمر شديد الصعوبة ـ كان فرناندو بالديرا يقود سيارته في الطريق المؤدي إلى أشتوريل... فور وصوله من الأزورس أجرى اتصالًا مع مراد، فطلب منه مراد أن يلتقي به في مساء اليوم نفسه حيث تعودا أن يلتقيا... وإذا كان مراد متلهفًا للقاء فرناندو، فإن فرناندو في واقع الأمر كان أكثر تلهفًا للقاء مراد.

في جيبه فيلم كامل يحوي صورًا عديدة للحفار كينتنج، ومعلومات وفيرة عنه، وعما تزودت به القاطرة «چاكوب ڤان هيمو كيراك» من وقود ومياه وأطعمة وفواكه... أتته المعلومات تسعى إليه، وقص عليه ضابط الشرطة «خوليو فارجاس» شقيق تريزا كل ما عرف عن الحفار في الجزيرة... حكى له عن الرجال والحراسة، عن الدهشة التي اعترته هو شخصيًا كما اعترت رجال الميناء للأسلوب الذي دخلت به القاطرة والحفار إلى بونتا دلجادا... ذلك أن أحدًا من الرجال لم يعرف عنهما شيئًا إلا قبيل وصولهما بساعات معدودة... ثم تلك الطريقة الغريبة التي وصلت بها الطالبة الأمريكية «باربرا هوڤمان» إلى الأزورس، والطريقة الأغرب التي رحلت بها عنها.

كان الوقت مساء والطريق إلى أشتوريل ضعيف الإضاءة، وحركة المرور تكاد تكون معدومة، مما ساعد فرناندو أن يستسلم لأفكاره، بل ربما... لذكرياته مع تريزا.

لم يعد لديه الآن أي قدر من الشك في أنه أصبح يحبها، ظل يقاوم هذا الحب منذ أن عرفها، يخشى أن يستسلم لضعفه ويخبر مرادًا بما وصلت إليه عواطفه من تطورات حتى لا ينهره هذا كعادته ويؤنبه، ويذكره بزوجته

التي شاركته السراء والضراء، ويتحول إلى قسيس يلقي موعظة الأحد في الكنيسة وربما طلب منه ألا يذهب بعد ذلك إلى سان ميجيل.

وفي الحقيقة فإن فرناندو لا يدري بالضبط ما الذي حدث له في تلك الأيام القليلة التي تحول فيها من إنسان إلى آخر... فبالرغم من أنه كان يتحرك بحساب، ويتحدث بحساب، ويصادق بحساب، فإن شيئا ما، شيئًا غريبًا خرج على كل هذه الحسابات التي تدرب عليها طويلا حتى أصبحت جزءًا من تكوينه، شيئًا كسر كل الحسابات، حطمها... ليجد فرناندو نفسه غارقًا في الحب إلى أذنيه... التهب الحب فجأة، ثم وكأنه بركان مخزون تحت قشرة رقيقة، انفجر.

ومع إحساسه هذا الجديد بالحياة، لم يستطع أن يقاوم الشك الذي ملأه نحو تلك الطالبة الأمريكية «باربرا هوڤمان»، ولقد قاوم الشك طويلًا وهو يتذكر نصائح مراد وأوامره بألا يخرج عن المهمة التي توكل إليه مهما كانت المغريات، ومهما حدث، ومهما كانت المكاسب أيضا... لكنه في النهاية ـ ومع الشك المتزايد ـ أحس أنه مستفز، استفزه ذلك الصلف الممقوت الذي كانت تلك الفتاة تتعامل به مع الآخرين، فترك لشكوكه العنان، وراح يرقبها في غدوها ورواحها... كان من عادته إذا ما انتهى من جولته في مزرعة الأناناس فوق الجبل، وعاد إلى المدينة، أن يتسكع في شوارعها ويتحدث إلى السكان الذين ارتبط بهم بصداقات كانوا يحرصون عليها... لكنه لاحظ شيئًا غريبًا، استفز شكوكه أكثر. لاحظ أنه ـ أينما كان ـ كان يجد مس هوڤمان هناك.

وعندما رأته تريزا معها وفعلت ما فعلته أدبرت الفتاة عنه، لكنها أقبلت من ناحية أخرى، على ضابط الشرطة خوليو فارجاس الذي استخفه الفرح، وراح يثرثر معها ويجيب على كل أسئلتها بلا حرج... وعندما سأل فرناندو شقيق حبيبته ذات مساء كان يتناول فيه العشاء الذي أعدته لهما تريزا عن تلك الطالبة الأمريكية، زمجرت تريزا مهددة إياه إن هو عاد

إلى الحديث أو الجلوس معها، لكن خوليو الذي كان قد امتلأ بكؤوس عديدة من «ليكير» الأناناس الفاخر، الذي أهداه له فرناندو، انطلق يحكي كل ما دار بينه وبين تلك الفتاة الغريبة الأطوار، وأسئلتها التي لا تنتهي... قال هذا ثم هتف:

ـ إنها تسأل عن كل شيء، وكل شخص، وتلح في السؤال عن الغرباء.

قال الضابط فارجاس هذا ثم تجشأ مستطردًا في تساؤل:

ـ أي غرباء يأتون إلى بونتا دلجادا؟

ليلتها أيقن فرناندو أن ثمة شيئًا وراء هذه الفتاة، ثم ازداد يقينه عندما عاد إلى غرفته ذات مساء ليجد أن هناك من عبث بمحتوياتها، ووصل إلى رقم حقيبته السري وفتحها، وعبث بأوراقها... فمن يكون هذا المتسلل سوى «باربرا هوڤمان»؟

لقد علمه مراد الكثير من الأشياء المفيدة، علمه كيف «يؤمِّن» حقيبة أوراقه وغرفته، وأن يعرف إن كانت هناك أيد قد عبثت بأشيائه ـ مهما كانت هذه الأيدي مدربة ـ أم لا... كما علمه ألا يترك الكاميرا الصغيرة الدقيقة التي أهداها له ذات يوم، والتي طلب منه ألا يستعملها إلا عند الضرورة القصوى... وأن يحتفظ بها في جيبه دائمًا إذا ما كان خارج لشبونة.

في البداية، كانت هذه الأمور التي تعلمها من مراد، تشكل عليه عبئًا سخيفًا، لكنها ـ مع الوقت ـ أصبحت أسلوبًا في حياته يتبعه في كل مكان يذهب إليه، حتى في بيته ومكتبه الكائن خلف مطعمه القائم على شاطئ نهر التاج في لشبونة.

ذات مساء استخفه الحب واستفزته باربرا هوڤمان، فاتخذ قرارًا بأن يلتقط لها صورة... لكن الفرصة لم تسنح له إلا في ذلك اليوم الذي قرر فيه الخروج في رحلة مع تريزا إلى بحيرة الألوان السبعة... كان انتظاره للحفار «كينتنج» قد طال، ولم يكن هناك خبر في الميناء عن وصول سفن

أو حفارات... هبط في ذلك الصباح إلى بهو الفندق قبل وصول تريزا في سيارة ميجيل العجوز، وما كاد يخطو إلى غرفة الطعام الصغيرة حتى ابتسم، كانت باربرا هناك، تتناول إفطارها، وقد دست وجهها في كتاب راحت تلتهم سطوره في نهم واضح.

كان يحمل على كتفه حقيبة صغيرة من حقائب الرحلات ـ هاندباج ـ قد امتلأت بما كان يحتاج إليه في كل رحلة على قمة جبل تستغرق يومًا، طلب الإفطار في صوت عال، سأل عن ميجيل العجوز وتساءل لم تأخر عن موعده، أوصى على البيض وطلب نوعًا معينًا من الجبن... كان يصنع جلبة من يريد أن يلفت إليه الأنظار، وقد رفعت باربرا رأسها إليه فانتهز الفرصة وهز رأسه تحية، لكنها عادت إلى القراءة والطعام دون أن ترد تحيته... وكان هذا بالضبط، ما يريده فرناندو بالديرا... أخذ يخرج ما في حقيبته من أغراض وكأنه يبحث عن شيء بعينه، امتلأت المائدة أمامه بكل ما كان في الحقيبة، وصنعت ساترًا بينه وبين باربرا، ومن خلف الساتر، أخرج الكاميرا الصغيرة الدقيقة من جيب سترته الداخلي، وراح يلتقط لباربرا مجموعة لا بأس بها من الصور.

و...

وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي وجد الحفار داخل الميناء، استخفه الفرح والمرح أكثر وراح ـ بعد أن تأكد أن باب غرفته مغلق تمامًا، وأنه في مأمن ـ يلتقط من نافذة غرفته صورًا للحفار... ولم يكن صعبًا عليه بعد ذلك أن يصبح واحدًا من مجموع السكان الذين وقفوا على الرصيف يتفرجون على الحفار، وأن يجد أماكن مناسبة لالتقاط عدد آخر من الصور للحفار.

كانت ثمة ظاهرة أثارت لغطًا بين سكان الجزيرة، هي أن طاقم الحفار، وطاقم القاطرة من البحارة، لم يغادروهما إلى الجزيرة كما تعود البحارة أن يفعلوا في كل الموانئ في كل الدنيا، خاصة في ميناء مثل بونتا دلجادا،

هؤلاء رجال قضوا في المحيط قرابة عشرة أيام، وما زال أمامهم عدد آخر من الأيام يصارعون فيها أمواج المحيط؛ فكيف لا يغادرون سفينتهم؟ وعندما حاول سكان الجزيرة الاقتراب من الحفار والقاطرة لتسويق بضائعهم، منعهم الحراس الذين أحاطوا بهما في غلظة واضحة.

في الواحدة ظهرًا اشتدت العاصفة، فاختفت الشمس خلف ركام ثقيل من السحب السوداء، وبدأت السماء ترعد، والموج يزمجر، وهبت الرياح شديدة البرودة من الشمال، وأخذت الأمواج تضرب حاجز الميناء وأحجار الرصيف في عنف، فغادر أغلب السكان أماكنهم وعادوا إلى بيوتهم وقد أيقنوا أن الحفار والقاطرة لا بد باقيان في الميناء حتى تنجلي العاصفة... لكنهما رحلا في المساء.

ومن نافذة مكتب الضابط خوليو فارجاس، شاهد فرناندو رجال الميناء وهم يحذرون القبطان «ڤان كيرك» من الإبحار، فارتفاع الموج في المحيط مخيف، وسرعة الرياح بلغت درجة لا تستطيع القاطرة أو الحفار مقاومتها... لكن الرجل بدا قليل الحيلة، بادي الخوف.

وهكذا ظهر الحفار فجأة، ثم رحل وسط عاصفة مدمرة.

وهكذا ظهرت باربرا هوڤمان فجأة، وبطريقة غريبة، ثم اختفت برحيل الحفار، فما هذا الحفار العجيب؟! ما أهميته؟! وما الذي يحدث فوق سطح هذه الكرة الأرضية من عجائب؟!

* * *

وها هو الآن في طريقه إلى مراد، يحمل كنزه الثمين في جيبه وعقله، فيلمًا كاملًا للحفار، وصورًا عديدة لباربرا هوڤمان، وتقريرًا مفصلًا عن كل ما دار في الجزيرة خلال ذلك اليوم العجيب.

وها هي أضواء أشتوريل تبدو في الأفق... وهو يعلم ماذا عليه أن

يفعل... كان عليه أن يدلف إلى الكازينو، وألا يقف عند مائدة بعينها طويلًا، فهو لا يأتي إلى الكازينو بانتظام، ومعنى هذا أنه ليس محترفًا... عليه أن يجرب حظه في الروليت والبكاراه والبلاك جاك، وألا يتحدث إلى مراد إذا ما رآه، وأن ينتظر إلى أن يعطيه هذا إشارة معينة، فيذهب إلى البار، ويطلب كأسًا، ويجلس في الصالون دقائق يتأكد خلالها أنه غير مراقب أو متبوع، ثم يتسلل إلى حديقة خلفية بعد التأكد من أن أحدًا لا يراقبه أو يتبعه، ويعبر الحديقة إلى حيث تقوم مجموعة من الأكواخ لنزلاء الفندق، ليدخل بعد ذلك كوخًا بعينه يتغير رقمه في كل مرة على حسب معادلة حفظها فرناندو عن ظهر قلب.

عندما فتح باب الكوخ، وخطا فرناندو إلى الداخل، كان مراد في انتظاره.

مضت دقائق تسلم فيها مراد الفيلم والتقرير المكتوب، حتى إذا ما سأله سؤالًا، تدفق في الحديث بإسهاب، كان يحمل في جوانحه ذلك الإحساس الغامر بأنه أدى عملًا عظيما، ظل يحكي ويحكي حتى إذا انتهى ساد الصمت، راح يحملق في وجه مراد الذي اكتسى بقناع لا ملامح له.. طال الصمت فأحس فرناندو بالحرج، سأل مراد إن كان هناك شيء خطأ، فجاءه صوت مراد كحد السكين:

ـ لم فعلت كل هذا الذي فعلته؟

ارتج فرناندو، لم يفهم ما الذي يقصده مراد بسؤاله، أصابه صوته الجاف بالارتباك، مضت ثوان قبل أن يقول متلعثمًا:

ـ ألم تطلب مني أن أترقب وصول الحفار؟

ـ فقط.

خرجت الكلمة من بين شفتي مراد في زئير رصاصة تنطلق.

ـ إذا كان الحفار يعنيك فلقد ظننت.........

ـ ألم أطلب منك ألا تظن شيئًا لم نتفق عليه؟

ـ نعم ولكن.........

ـ وأن ترسل برقية فور وصول الحفار.

ـ لم يكن هذا ممكنًا!

ـ وألا تفعل شيئًا ليس مطلوبًا منك؟

ـ كانت شكوكي..........

هدر مراد بصوت خفيض بدا لفرناندو كهزيم رعد بعيد:

ـ لتذهب شكوكك إلى الجحيم، كيف خالفت ما اتفقنا عليه؟

وعبثًا حاول فرناندو أن يدافع عن موقفه، كان مراد غاضبًا وعنيفًا وحازمًا... ظن فرناندو أنه يستحق مكافأة وإذا مكافأته مزيد من التأنيب.

فكر فرناندو لحظة أن ينسحب من اللعبة كلها، فجاءه صوت مراد خافتًا ذا جرس خاص:

ـ إن لم تكن خائفا على نفسك، فنحن خائفون عليك.

بدأت سحب الغضب تتبدد، واستطرد مراد في حنان:

ـ إنك تعلم أنك لست صديقًا عاديًا لنا... ولا بد لك أن تعلم أيضا أننا حريصون على حياتك وأمنك وسلامتك أكثر من حرصنا على مجموعة من المعلومات مهما كانت قيمتها... إن تصرفا كهذا كفيل بأن يوقعك في ورطة لا يعلم إلا الله كيف نخرجك منها.

كان لحديث مراد وقع السحر على فرناندو الذي راح يغمغم بأنه كان حسن النية، فابتسم مراد وهو يربت على كتفه قائلًا:

ـ هل نسيت المثل القائل بأن الطريق إلى الجحيم مفروش بالنوايا الحسنة؟

ابتسم فرناندو وهم بالحديث، فضحك مراد مداعبًا إياه:

ـ أم أن البرد في الأزورس كان قارسًا فأردت أن تذهب إلى الجحيم بحثًا عن الدفء؟

أقر فرناندو بخطئه، فقدم له مراد سيجارة وهو يقول:

ـ والآن... قص علي ما حدث بالتفصيل.

هتف الرجل:

ـ ولكني سردته عليك منذ دقائق.

اتسعت ابتسامة مراد، فعاد فرناندو يهتف:

ـ ثم إني كتبت كل شيء في التقرير الذي سلمته لك.

ـ وهل يضيرك أن تقص علي ما حدث مرة أخرى؟

هكذا قال مراد في صوت ودود، فنفذ صوته إلى إرادة فرناندو مباشرة، فراح يقص ما حدث من جديد.

* * *

تم الاتصال بمراد في منتصف يوم الاثنين ١٦ فبراير عام ١٩٧٠، كانت وسيلة الاتصال غريبة ومضحكة في نفس الوقت، ولقد استغرق هذا الاتصال أكثر من عشر دقائق، أكد فيها مراد، بما لا يقبل الشك، أن فرناندو صادق في كل ما قاله وكتبه في التقرير... وأن الصور بالتأكيد صحيحة.

وكان هذا هو كل ما يتمناه نديم قلب الأسد، فلقد أصبح الحفار الآن، مثل كعكة طرية عليه أن يلتهمها في شغف.

* * *

أخيرًا تنفس رجل الأعمال التركي «عصمت كارجي» الصعداء.

تأخر وصول الحفار عن موعده الذي قدروه يومين كاملين بفعل العاصفة... يومان مضيا على الباشا وكأنهما دهران، فلقد ظن ذات لحظة قلق أن الحفار اختار لرسوه مكانًا آخر... لم يكن يكف عن عقد الاجتماعات، وإبرام الصفقات، كان يعمل ليل نهار بطاقة تفوق طاقة من كان في سنه... وبرغم هذا، فلقد عرف عن كل الذين التقوا به في دكار، أو تعاملوا معه، أنه رجل فوق ذكائه الشديد، ونشاطه الغريب، وخفة ظله... يعشق الحياة إلى حد الجنون.

كانت مدموازيل «ليليان» صديقته جميلة جمالًا أخاذًا، كانت مطيعة ومؤدبة ومدلهة في حبه، تتبعه متمسحة به كقطة أليفة، وبرغم هذا كان دائم الجوع إلى الجنس الناعم اللطيف... ووصل الأمر إلى حد أن تهامس موظفو الفندق الذي ينزل فيه، أنه شوهد بصحبة فتاة في لون الأبنوس، وأهل السنغال مسلمون، لا يعجبهم مثل تلك التصرفات خاصة إذا صدرت من مسلم مثلهم، حتى ولو كان تركيًا.

لكنه من الواضح تمامًا، أن «عصمت كارجي» لم تكن تعنيه مثل هذه الأقاويل، بل ـ وهذا مدهش ـ لاحظ بعض الأذكياء أن تلك الشائعات كانت تسعده.

في غضون الأيام التي قضاها الباشا في دكار، التقى بعدد لا بأس به من المسؤولين في الميناء، كما التقى مع عدد آخر من متعهدي السفن... كان العرض الذي جاء به «عصمت كارجي» مغريًا بحق، فلقد قرر أن يفتتح خطًا ملاحيًا جديدًا فيما بين أزمير ودكار... وبداية، فإن الخط الملاحي سيتكون من سفينتين فقط من سفنه العديدة التي تجوب بحار العالم، ولقد كان على استعداد لزيادة عدد السفن كلما ازدادت التسهيلات المقدمة إليه من السلطات والمتعهدين على السواء... إن

هناك أسواقًا تطلب أطنانًا من الفول السوداني وحب العزيز ـ المحصول الرئيسي للسنغال ـ كما أن هناك عروضًا لشراء بضعة آلاف من الأطنان من زيت الفول الذي يستخرج من مصانع السنغال نفسها.

ولقد نجح «عصمت كارجي» في إبرام عدد من الاتفاقات ـ التي نفذت بالفعل فيما بعد ـ كما نجح في اكتساب ثقة كل من التقى به... كان رجلًا غريبًا ساحر الابتسامة، لا يستطيع أحد أن يقاوم سحر ابتسامته تلك، ولا ضحكته الماجنة التي كان يطلقها إذا ما وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، وكانت تلك الضحكة الغريبة تزيح كل عقبة... كانوا يرونه دائم السعادة، وكان الباشا يعيش قلقًا مدمرًا.

مضغ الباشا قلقه في صمت أيامًا وراء أيام، لكنه كوفئ على هذا القلق، بضربة حظ لا تحدث في العمر سوى مرة واحدة.

فلقد كان هو أول من علم بموعد وصول الحفار إلى دكار... ولا بد من مصادفة تضفي على الأمر كله نوعًا من الغرابة، وتبقي للرجال ذكرى مع الأيام يبتسمون لها في حنين... وهي مصادفة صنعت الكثير، فلولاها، لفوجئ الرجال بما لم يكن في الحسبان.

كان «عصمت كارجي» في مكتب أحد المسؤولين عن الميناء، عندما تلقى هذا المسؤول ـ الذي كان يتحدث الفرنسية، كما يتحدث بها الباشا، بطلاقة ـ مكالمة تليفونية تنبئه بأن قاطرة قادمة من بلجيكا اسمها «آلبي»، وأنها في طريقها إلى ميناء «أبيدچان» في ساحل العاج، وتريد دخول الغاطس في دكار ـ والغاطس هو المنطقة المحيطة بالميناء بعيدًا عن الأرصفة، والتي يمكن للسفن أن تتوقف فيها لبعض الوقت، لتنتظر مكانًا يخلو لها على أحد الأرصفة، أو لتتزود بما تحتاج إليه من وقود ومياه لترحل بعدها مباشرة ـ وكان هذا بالضبط ما تبغيه القاطرة «آلبي».

كان الحديث بين المسؤول وبين «عصمت كارجي» قد وصل إلى نقطة حساسة عندما جاءت هذه المكالمة، ولم يكن لدى الرجل وقت يضيعه في مثل هذه التفاصيل، فأعطى الإذن فورًا للقاطرة بالدخول.

ولفت نظر الباشا في الأمر الذي بدا وكأنه لا يعنيه في كثير أو قليل، كلمة «قاطرة»، وحفر اسم «آلبي» في رأسه... وبذلك الحس المرهف لضابط مخابرات ذي أنف شديد الحساسية، لعب الفأر في عبه!... ولذلك، فما إن وضع الموظف سماعة التليفون حتى وجد في انتظاره سيجارًا فاخرًا يقدمه له «عصمت كارجي»، ثم يشعله له بولاعة ذهبية غالية الثمن.

لم يكن الموظف في حاجة لأن يبدي إعجابه بالولاعة الذهبية، فقط راح يتحدث عن الشركات والقباطنة الذين لا يتبعون الأصول العالمية في المعاملات البحرية، وشجعه عصمت على الاستمرار في الحديث فاشتكى المسؤول ـ مثلا ـ من أنهم تلقوا فجأة في صباح ذلك اليوم، برقية من عرض المحيط، تنبئ عن وصول قاطرة هولندية اسمها.......

صمت الموظف وهو يقلب في بعض الأوراق فوق مكتبه، وحبس الباشا أنفاسه، أخيرًا قال الرجل:

ـ ڤاكوب ڤان هيمو كيراك.

دق قلب الباشا في عنف، لكنه لوى شفتيه في لا مبالاة فاستطرد الرجل ناظرًا إلى الورقة:

ـ وأنها تسحب حفارًا اسمه كينتنج وتطلب الإذن بالدخول الآن.

اضطجع المسؤول في مقعده، وجذب نفسًا من السيجار الفاخر، واختطف نظرة من الولاعة الراقدة فيما بينه وبين الباشا وقال:

ـ ويصبح علينا في بضع ساعات أن نجهز مكانًا، أن نسحب سفينة لندخل أخرى، أن نعيد ترتيب الأرصفة وكأن السفن لعب أطفال.

بدا «عصمت كارجي» متفهمًا تمامًا لموقف الرجل الذي كان يطرح ما قد يستجد من متاعب مع سفن رجل الأعمال التركي... غير أن شيئًا بقي في نفس الرجل الذي مال نحو الباشا قائلًا:

ـ المدهش، أن المتعهد كيوبيدو بارتيني، وهو إيطالي يعيش بيننا منذ سنوات، كان يعلم بوصول القاطرة والحفار، لكنه لم يخطر سلطات الميناء.

ـ وكيف تسمحون بهذا؟

قالها عصمت وهو يعيد إشعال سيجارة بالولاعة الذهبية، فهتف الرجل:

ـ لقد سألته عن السبب، فأجاب بأنه كان يعلم من الشركة بأمر وصولهما حقًا، لكنه أبدًا لم يكن يعرف موعد هذا الوصول.

تشممت أنف الباشا رائحة معينة فغمغم:

ـ لا بد أنه متعهد كفء.

قال المسؤول:

ـ إنه أكفؤهم جميعًا.

ـ إذا كان الأمر كذلك.....

ولم يكمل الباشا، فلقد قاطعه الرجل في حماس:

ـ وأنا أرشحه لكي يكون متعهدًا لسفنك.

وهكذا غادر السيد عصمت كارجي مكتب مسؤول الميناء، وكان على موعد في المساء مع المتعهد الإيطالي «كيوبيدو بارتيني».. وتذكر رجل الأعمال التركي وهو يستقل السيارة الفاخرة التي استأجرها طوال مدة إقامته في دكار... أنه نسي ولاعته الذهبية الثمينة في مكتب المسؤول السنغالي، فمط شفتيه في لا مبالاة.

* * *

هكذا جاءت المعلومات إلى الباشا فوق صينية من فضة، ولأنه رجل يعرف كيف يتعامل مع البشر، خاصة أبناء القارة التي عشقها منذ سنوات، فلقد استطاع الحصول على كل ما يريد فيما يختص بوصول الحفار، بل إنه عندما جلس إلى مائدة العشاء التي دعاه إليها السنيور كيوبيدو بارتيني ـ وكانت مدموازيل ليليان في صحبته ـ استحوذ على إعجاب المتعهد، واستطاع أن يلهب حماسه، وأن يدفعه لأن يدعوه إلى زيارة الميناء في ذلك الوقت من الليل، كي يشاهد بنفسه، وعلى الطبيعة، كيف يقوم رجاله وموظفوه بالعمل ليلًا ونهارًا في خدمة السفن، وإمدادها بكل ما تحتاج إليه مهما كان الوقت ضيقًا.

ووصلت المصادفة الذهبية إلى ذروتها، عندما وجد «عصمت كارجي» نفسه أمام الحفار وجهًا لوجه، فلقد صحبه بارتيني إلى حيث كانت القاطرة والحفار يتزودان وسط عشرات اللمبات المضيئة بما يحتاجان إليه من لحوم وخضراوات وفاكهة وخمور ومياه وبترول، وكيف يقوم المهندسون والعمال بالإصلاحات اللازمة بعدما عبر المحيط وسط تلك العاصفة العاتية التي أصابت القاطرة ببعض الأضرار.

ولقد رفض الباشا أن يغادر السيارة، كان قد احتسى ـ هكذا كان يبدو ـ كمية هائلة من الخمر، وبدا نصف نائم وهو يجلس في مقعد السيارة الخلفي، وبجواره ليليان وقد ألقت برأسها فوق صدره، وراحت في

سبات عميق... ومن خلال عينيه نصف المغمضتين وذهنه المتوثب إلى أقصى درجات الاستيعاب، راح الباشا يرصد الحفار والقاطرة... كان معنى ما يجري أمامه أن الحفار لن يبقى طويلًا في دكار، وكان سنيور بارتيني يتجول بين موظفيه وعماله ويصدر أوامره هنا وهناك ويتحرك في نشاط، ويعرض على عصمت كارجي بضاعته، لكن هذا كان مشغولًا عنه بالتقاط كافة التفاصيل من فوق الحفار ومن حوله. إذن... فهذا هو السيد «كينتنج» الذي يبحث عنه الرجال.

كان الحرس من حوله يضربون نطاقًا حديديًا يمنع أيًا من الغرباء من الاقتراب، وقد حدث أن اقترب واحد من الحرس من السيارة الفاخرة وألقى بنظرة إلى الداخل... ويبدو أن الأمر بدا له طبيعيًا للغاية، فسرعان ما أشاح عن الرجل الجالس في المقعد الخلفي ليعود إلى ما كان فيه.

في الثانية صباحًا، بعد عودة الباشا إلى فندقه بساعتين تقريبًا، وصلت إلى مكتب طاهر رسمي رسالة كان مصدرها المباشر هو تركيا... كانت من رجل اسمه «كمال بناني»... أما محتويات الرسالة الطويلة بعض الشيء، فكانت عن استئجار سفن وشحن بضائع وأسعار وعمولات ونولون و... وبرغم هذا، فلقد أصبحت سطور هذه الرسالة بالذات، كالأضواء الكاشفة أمام نديم قلب الأسد، الذي قرأها ـ بعد حل الشفرة ـ عدة مرات حتى حفظ ما فيها عن ظهر قلب.



كان موعد إقلاع طائرة «إير فرانس» المتجهة من القاهرة إلى باريس عن طريق «نيس» هو السادسة صباحًا، ولذلك، ففي الرابعة صباحًا كان نديم هاشم يستعد لمغادرة جهاز المخابرات المصري وهو يقلب جواز سفره الذي يحمل اسم «سليمان عبد البر محمود» وأمام كلمة المهنة كتب: «مهندس»، وفي جيبه عقد عمل موقع وموثق من رجل الأعمال

السوري الأصل «سليم أبو فودة»، الذي يقيم في السنغال منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا... وكان العقد بينه وبين المهندس سليمان عبد البر محمود، المصري الجنسية، ينص على أن يعمل هذا الأخير لحسابه كبيرًا للمهندسين في مصنع «تكرير الزيت» الذي يملكه المليونير السوري، وكانت مدة العقد عامًا قابلًا للتجديد.

لم تكن كل هذه التفاصيل تعني نديم قلب الأسد الذي تعود النفاذ من أسوار الحراسة في أي مكان في العالم بأساليب مبتكرة شهد له بها زملاؤه ورؤساؤه على السواء... كانت المشكلة في الحقيبتين الكبيرتين إلى حد لافت للنظر اللتين تحويان ـ مع عدد من الأشياء التي لا لزوم لها ـ ملابس الضفادع ومعداتهم بالكامل... كانت نظرة واحدة من أي مفتش جمارك في أي مطار إلى واحدة من هاتين الحقيبتين كفيلة بأن تثير حولهما الشكوك بلا نهاية، حقًا كانت هناك ترتيبات تضمن السلامة، ولكن، لكل قاعدة شواذ، فماذا لو شذت عن القاعدة حادثة صغيرة لتقلب له الدنيا رأسًا على عقب؟

حملت الحقيبتان إلى السيارة الأجرة التي كانت تنتظر نديم في فناء خلفي بمبنى جهاز المخابرات، ووقف نديم أمام طاهر وعزت وابتسم... منذ ساعات تحدث إليه أمين هويدي من فراش المرض، قال الرجل إنه يريد أن يأتي إليه لكن الأطباء منعوه، قال له إنه لن يوصيه على الحاج، كان كلامه ملغزًا، لكن الألغاز كانت تحل في رأسه كلمة بكلمة، وعندما قال له أمين هويدي: إن شرف البلد أصبح الآن بين يديه انقبض قلبه.

مد يده وصافح زميليه في صمت. ما لبث أن غمغم:

ـ أشوفكم بخير.

ولم يردا التحية، ظل الصمت سائدًا إلا من صوت خطواته تدق أرض الغرفة، مد يده إلى الباب، وقبل أن يفتحه، هتف طاهر:

ـ نديم.

التفت إليه نديم، فابتسم هذا قائلًا:

ـ ربنا معاك.

* * *

يا لهذه اللحظات التي لا توصف، عندما يشعر الإنسان أنه ينفصل عن الكل الذي ينتمي إليه، ليسبح في فضاء العالم نحو مجهول، وأحداث لا يدري كيف ستكون... عندما تكتشف أن قدرك هو أن تكون واحدًا من جيل المهمات الصعبة، وأن عليك في هذه الحياة أن تختار بين ما هو صعب، وما هو أكثر صعوبة... ثم لا تجد مفرًا، فقدرك هو أنت، هو ما تريد حقيقة دون حسابات، هو ما خلقت من أجله... وعندما تصبح أنت أنت، ثم تجد نفسك في الصف الأول من مواجهة هذه الصعوبات، فعليك أن تواجهها راضيًا، فالصفوف من خلفك كلها تعتمد عليك... وآه... آه لو تخاذلت للحظة.

طريق المطار خال أو شبه خال، ضوء الفجر يشق الأفق البعيد من خلف سحب تراكمت في السماء منذرة بمطر قريب، والسيارة تنهب الأرض نهبًا، والسائق مغلق الشفتين صامت... أما نديم، فلم يكن في الحقيقة صامتًا، كان صاخبًا، وكان صخبه في صدره.

وعندما خطا خطوته الأولى في صالة الرحيل بمطار القاهرة الدولي، كان يشعر أنه يخطو إلى ساحة مليئة بالألغام.

* * *

ما إن وضع نديم قلب الأسد قدمه على أرض فرنسا في مطار «شارل ديجول» المخصص لطائرات شركة «إير فرانس»، حتى أحس بالجو المتوتر الذي يسود المطار، وتلك النظرات المتشككة التي تصوب إلى

كل عربي مهما كانت جنسيته... أيقن أن شيئًا ما قد يحدث، وكان عليه أن ينتقل من مطار «شارل ديجول» إلى مطار «أورلي» كي يستقل إحدى طائرات شركة «إير أفريك» المتجهة إلى دكار، وصل إلى مطار أورلي فإذا الشكوك أكثر التهابًا... ففي هذا المطار تهبط الطائرات الأجنبية، ومنه تقلع، من هذه الطائرات طائرات شركة «العال» الإسرائيلية، والتي اكتشفوا في هذا الصباح شحنة ناسفة ترقد في إحدى حقائب المسافرين على إحداها... بحثوا عن صاحب الحقيبة فلم يجدوه، اشتد توترهم وازدادت عصبيتهم، وكان ضباط الجوازات يحملقون في وجوه العرب ويسألونهم إلى أين ولماذا ومتى وكيف ومن و... و... ويضيقون عليهم الخناق وكأنهم يطردونهم من بلادهم طردًا.

لم يكن نديم يعلم بعد ما الذي حدث وماذا يجري من حوله، لكنه كان موقنًا أن المطار مشحون بالخطر، كما كان واثقًا من ذلك التعاون السري بين المخابرات الفرنسية والمخابرات الإسرائيلية... ولا بد أنهم هنا، هؤلاء وأولئك، في كل مكان، يسعون بين المسافرين، يحملقون في الوجوه، ويفرزون الملامح، ويلتقطون كل حركة بعقول دربت على كشف الخبيء... فهل يفلح؟

إن ما يحمله في حقيبته لا غبار عليه شكلًا، لكنه موضوعًا ـ لو أنه اكتشف بمصادفة ليست في الحسبان ـ سوف يقلب الدنيا رأسا على عقب، وسوف يجعل الخطط التي بذل فيها الجهد والعرق طوال الأسابيع الماضية، في خبر كان... كان اكتشاف ملابس الضفادع البشرية ومعداتهم، كفيلًا بأن يصل إلى الإسرائيليين في ثوان، وكان كفيلًا بأن يجعلهم كالواقفين على أظافرهم، وكفيلًا بأن يضع بدل العقبة مئات العقبات.

ينظر الناس إلى ضابط المخابرات وكأنه «سوبر مان» لكنه بشر.

ولقد كان نديم هاشم مشهورًا ـ بجوار جرأته البالغة ـ بهدوء أعصابه

الشديد... كان يقوم بأخطر العمليات بهدوء من يشعل سيجارة مصرية وهو بعيد عن مصر... لكنه الآن، اعترف لنفسه أن هذا الهدوء ليس على ما يرام.

اتجه إلى الكافتيريا وطلب فنجانًا من القهوة المركزة، ألقى بمعطفه الثقيل فوق مقعد، وخطا نحو حامل الجرائد فامتدت يده إلى جريدة إنجليزية ولم ينظر حتى للجرائد العربية... عاد إلى مائدته وكان فنجان القهوة قد وضع فوق المائدة وبجواره تذكرة الثمن فلم يعرها اهتمامًا، أشعل سيجارة وراح يطالع الجريدة.

كانت العناوين الرئيسية في «التايمز» عن حوادث اختطاف العرب للطائرات، بجانب الأخبار كانت هناك مقالات وتحليلات وتعليقات... بدا نديم وكأن الأمر لا يعنيه، ألقى بالجريدة جانبًا وتفرغ لفنجان قهوته، رشف رشفة فتذكر عزت بلال وقهوته الفرنسية، داهمه الحنين إلى مصر وهو لم يغادرها إلا منذ ساعات قليلة... مسحت عيناه المكان من حوله في خبرة من كانت تكفيه لحظة كي يلم بكل شيء إلمام صورة فوتوغرافية، شاهد وجهًا يمرق من أمامه فابتسم، ولكن إلى الداخل، لو أن صاحب هذا الوجه نظر الآن في عينيه لاكتشف أمره في ثوان، انتهى من فنجان قهوته، وأمسك بتذكرة الثمن كي يقرأ ما فيها، لكن الغريب أنه لم يقرأ الجانب المطبوع، بل قرأ على الجانب الآخر كلمة كان في انتظارها، كلمة قرأها في لهفة ثم تنفس بعدها الصعداء.

كانت الترجمة العربية للكلمة المكتوبة بالفرنسية هي: «مرحبًا».

سمع النداء الأول على طائرة «إير أفريك» المتجهة إلى دكار، نظر في ساعته ونهض وهو يضع على المائدة فرنكًا فرنسيًا، لكن ورقة الثمن كانت قد اختفت داخل كفه، غادر الكافتيريا في خطوات ثابتة، ما أن

وصل إلى بوابة الإقلاع، حتى وجد من يطلب من المسافرين أن يلتقطوا حقائبهم من صالة جانبية، وأن يتقدم كل راكب بحقائبه للتفتيش.

وكان التفتيش رهيبا.

هل يوجد في قواميس اللغات كلمات تسمو إلى مستوى الخوف الإنساني عندما يصبح نوعًا من الكهرباء الخفية التي تصيب الروح بالرعشة؟ عندما يتحول الإنسان من إنسان إلى «خائف»، ولقد كان نديم في تلك اللحظات الرهيبة خائفًا، لكن خوفه لم يكن من اكتشاف أمره، فهذا أمر هين إذا حدث... لكن خوفه كان: ألا يلحق بالحفار في دكار.

ـ مسيو محمود.

بدت له العينان الزرقاوان كنصلين باردين يخترقان رأسه، جاءه صوت الضابط الفرنسي مثل لكمة.

ـ نعم.

أومأ الضابط نحو الحقيبتين الكامنتين إلى جواره.

ـ هاتان لك؟

ـ بالتأكيد.

ـ ماذا تحويان؟

هز نديم كتفيه:

ـ بعض الملابس التي تكفي لمدة عام، وبعض الكتب في الهندسة الميكانيكية.

نفذت من عيني الضابط نظرة أحس نديم أنها تخترق عينيه إلى نخاعه، كان الترحيب الذي وجده على ظهر تذكرة الثمن في الكافتريا قد بعث بالاطمئنان إلى نفسه ولكن.....

ـ هل تحمل أشياء ممنوعة؟

ـ على الإطلاق.

كان يعرف كيف يبث الثقة برنة صوته فيمن يتحدث إليه، فهل....

ـ افتحهما من فضلك.

ها هي اللحظة قد حانت، فليلق بنفسه في البحر.

الفصل الثامن
الجولة الأولى

في صوت هادئ خافت كأنه الهمس، قال الملازم:

«تحيا مصر».

وكان هذا فوق طاقة نديم على الاحتمال... فأشاح عن الرجال خاطيًا إلى بعيد وهو يردد معهم الهتاف:

«تحيا مصر».

الذي لا شك فيه أن الأمور كانت تسعى حثيثًا نحو ذروة شديدة الخطورة، وأن إيقاع الأحداث كان يتسارع لحظة بعد أخرى، وأن كل تصرف ـ مهما صغر شأنه ـ كانت له قيمته ومعناه... ولذلك، فلقد كان نديم هاشم يعرف تمامًا ما هو فيه الآن، ففي تلك اللحظات الشديدة الغرابة، وعندما تفقد اللغة مدلولات كلماتها، وتصبح البطولة والشجاعة والصمود والإقدام تعبيرًا عن حالة ينفصل فيها الإنسان عن ذاته، كي يلتحم بذلك الواقع الجديد الذي فرضته عليه الأحداث.. في تلك اللحظات لا يصبح أمام الإنسان سوى طريق واحد، هو مواجهة الأمر بثبات.

كانت كلمات ضابط الأمن في مطار أورلي مهذبة حقًا لكنها خرجت من بين شفتيه كالرصاص الطائش، وعندما طلب من نديم أن يفتح الحقيبتين، أيقن هذا أن ثمة خطأ قد وقع في سياج الأمن المضروب من حوله في المطار، وأن أمره قد انكشف... فظللت ملامحه على الفور ابتسامة ثابتة، ورفع الحقيبتين ووضعهما أمام الضابط الذي كان يرقبه بعينيه الزجاجيتين ونظراته الباردة الحاسبة... راح يفك الأحزمة ويفتح الأقفال وكان الضابط الفرنسي يرقبه بإمعان، رفع غطاء إحدى الحقيبتين فهتف الضابط بكلمات كقطع الثلج القطبي:

ـ كل هذه الملابس لك؟

ضحك نديم ساخرًا وهو يقول في لا مبالاة:

ـ سوف أقضي عامًا كاملًا في دكار.

على السطح كانت الكتب متراصة في نظام وترتيب، انقضت يد الضابط على كتاب راح يتفحصه ويفحصه، ألقى به ثم أمسك بكتاب آخر، وثالث، ورابع... كان واضحًا أنه يشك في أن الكتب قد تكون صناديق تحوي متفجرات، لكنه عندما دس يده فيما تحت السطح وراح يعبث بمحتويات الحقيبة، أدرك نديم أن اللحظة قد حانت فاستعد، فتحت هذا السطح البريء كانت تكمن كارثة، ملابس الضفادع البشرية ومعداتهم وأدوات تفجير تحت الماء، وكشافات خاصة، و.. و.. وخرجت يد الضابط تحمل حقيبة جلدية صغيرة، وضع نديم فيها حقيبة أدوات حلاقته ومعجون أسنانه، فتح الضابط الحقيبة وألقى نظرة على محتوياتها ثم أغلقها وأعادها إلى نديم مع جواز سفره وهو يقول:

ـ تستطيع أن تصعد الآن إلى الطائرة.

ولم يتنفس نديم الصعداء، ذلك أنه كان يعلم أن الخطر ما زال قائمًا، بل كان يعلم أنهم ربما سمحوا له بالصعود إلى الطائرة لاكتشاف المزيد مما كانوا يريدون معرفته... حتى عندما أغلق الحقيبتين وتركهما وسط المسافرين على طائرة «إير أفريك» المتجهة إلى دكار، كان يدرك تمام الإدراك، أن أية ملاحظة، أو خطأ بسيط، أو شك في أي شيء مهما كان تافهًا أو صغيرًا... كفيل بأن يقلب الدنيا رأسا على عقب.

وهو في طريقه إلى الطائرة، أدرك نديم مدى الضراوة التي سيدافع بها الإسرائيليون عن حفارهم هذا، كما أدرك أن المهمة ستزداد صعوبة. وتذكر ليز ونورمان وما قد يحدث لهما من ديڤيد ليڤنجر الذي لا بد وأن يكون قد التقى الآن بسارة جولدشتاين التي وصلت بالتأكيد مع الحفار إلى دكار... كان يعلم تمام العلم ما الذي يمكن أن يفعله هذان السفاحان لمجرد الشك في مخلوق، وهو وإن كان يثق في الرجال الذين سبقوه إلا

أن الثقة شيء، وما قد يحدث بغتة للشابين البريطانيين شيء آخر... وما قد يحدث لهما سوف يحدد بالقطع أسلوبه في وضع خطوته الأولى.

غير أنه ما أن وضع قدمه في الطائرة، حتى راحت عيناه تبحثان بين الركاب عن وجه بعينه، وجه بذل جهدًا مضنيًا ـ في أثناء وجوده في المطار ـ كي لا يبحث عنه أو يقترب منه أو تلتقي عيناه بعيني صاحبه... كان عدد الركاب قليلًا، لذلك، فسرعان ما توقفت عيناه عند صاحب الوجه الذي كان يجلس في مقعد، وقد ربط الحزام، ودس عينيه في صفحات كتاب بدا مستغرقًا فيه إلى أقصى حد.

كان صاحب الوجه شديد الشبه بنديم هاشم، قامته تقارب قامته، ولون بشرته المصري يبعث بالدفء إلى أوصال الرجل الذي كان يبحث الآن عن مقعد بعيد... وعندما مر به نديم ابتسم بينه وبين نفسه، فإن أحدًا بالتأكيد لم يلاحظ أن الرجل كان يرتدي بذلة من نفس لون بذلة نديم، بل من القماش نفسه، ونفس التفصيلة، ونفس القميص ونفس ربطة العنق والحذاء والجورب أنفسهم... كان مفروضًا أن يسافر هذا الرجل إلى دكار قبل سفر نديم بأربع وعشرين ساعة على الأقل، لكن تلاحق الأحداث أجبر الرجال على ركوب المخاطر... ذلك أن وجود الرجلين معًا على نفس الطائرة، وبهذا التشابه الذي لا شك مصنوع من أجل هدف ما، قد يعرض المهمة كلها إلى خطر محقق.

ألقى نديم بنفسه فوق مقعد بعيد تمامًا عن الرجل، ربط الحزام ووضع رأسه فوق المسند، وراح في سبات عميق.

كان في حاجة شديدة إلى النوم، فنام ساعة وبعض الساعة، وعندما فتح عينيه أطل من نافذة الطائرة، وكانت قد غادرت المجال الجوي الفرنسي، وراحت تعبر البحر الأبيض المتوسط تجاه الشواطئ العربية في إفريقيا... وهنا فقط، تنفس الصعداء.

مالت نحوه المضيفة الإفريقية ذات القوام الأبنوسي والوجه المضيء عن ابتسامة مرحبة، وهي تسأله إن كان يريد شيئًا بعينه... كانت وجبة الطعام المعتادة قد وزعت على الركاب في أثناء نومه، فلم تشأ أن توقظه... أرادت أن تهيئ له وجبة خفيفة، لكنه اعتذر، وطلب فنجانًا كبيرًا من القهوة المركزة.

غادرته المضيفة فأشعل سيجارة، وعاد عقله ـ بلا ملل ـ يعيد التفكير فيما كان عليه أن يفعل، أخذ يجمع كل تلك الخيوط التي عليه أن يمسك بها في قوة وذهن يقظ وعقل متوقد.

ترى أين مكان الحفار من الميناء؟ هل هناك مسالك إليه أو أنهم سدوا كل المسالك؟ ما طبيعتها؟ ثم... ماذا عن الـ«Safe House» أو البيت الآمن الذي سينزل فيه مع الرجال؟ ماذا عن... ليز ونورمان مرة أخرى وثانية وثالثة ومليون، هما مفتاح الخطوة الأولى له في دكار، يكاد يوقن أن ثمة شيئًا قد حدث لهما برغم البرقية التي أرسلها طاهر رسمي بالأمس... ثم تذكر «سليم أبو فودة» فابتسم... هذا السوري الأصل الذي يعيش في السنغال منذ ما يقرب من أربعين عامًا، كم سمع عنه، وعما فعله من أجل العرب والقضية العربية، وكم ـ على البعد ـ أحبه... وكم ود اللقاء به.... و... وها هو في الطريق إليه.

لكنه عندما تذكر محمود شوكت، أو الباشا، أو رجل الأعمال التركي عصمت كارجي... سرت إلى صدره نسمة من راحة مفتقدة، فيكفي أن يكون الباشا هناك، حتى يكون كل شيء على ما يرام.

* * *

برغم أن الباشا كان يعلم أن نديم في طريقه إلى دكار، فإنه كان حريصا على بث رسالة في الصباح الباكر إلى طاهر رسمي، كان لا بد وأن يعلم

طاهر بكل شيء في حينه، ولهذا... فعندما حل طاهر الشفرة، قرأ الرسالة على عزت بلال:

«عاينت مكان الحفار، قابلته شخصيًا، سمح لي بعشر دقائق للحديث معه، اسألوا عن قاطرة بلچيكية أبحرت من ميناء أنتويرب منذ عشرة أيام تقريبا. اسمها «آلبي». القاطرة «آلبي» دخلت إلى المياه العميقة في ميناء دكار ولكنها لم ترس على رصيف. ظلت في الميناء لسبع ساعات وست وثلاثين دقيقة ثم أبحرت في طريقها إلى أبيدچان بعد أن أخذت حاجتها من الوقود والمياه والطعام. لم أعرف شيئًا أكثر من ذلك، لكنني أشك في قوة».

انتهى طاهر من قراءة البرقية، ورفع رأسه نحو عزت بلال الذي غمغم:

ـ مفيش أخبار عن ليز ونورمان؟

وإذا كانت المهمة تندفع الآن بسرعة نحو النهاية، فإن هذا لم يمنع الرجال من التفكير فيمن يعيش الآن في خطر، وكان عليهم بالضرورة، ووسط كل هذا، أن يحموه وينقذوه.

ولم يكن الأمر في حاجة إلى الكثير من الذكاء، كي يدرك طاهر وعزت أن المحطة التالية للحفار ستكون أبيدچان في ساحل العاج، وإذا كان خبراء البحرية قد قالوا إنه من الصعب أن تسحب قاطرة واحدة، حفارًا من بحيرة «إيري» في جنوب كندا إلى البحر الأحمر، وأنه لا بد من استبدالها، فها هي حساباتهم تتحقق.

بعد دقائق لم تزد على العشر، تجمعت لديهما كل المعلومات المطلوبة عن القاطرة «آلبي» من دليل السفن البحرية الموضوع فوق مكتب طاهر... وبعد خمس ساعات ـ وكان هذا زمنًا قياسيًا ـ وصلتهم رسالة من ميناء أنتويرب البلچيكي ردًا على البرقية العاجلة التي أرسلوها،

تؤكد أن «آلبي» متجهة بالفعل إلى أبيدچان، لكن أحدًا لا يعرف بالضبط ما هي المهمة التي ستقوم بها هناك... وعلى كلٍ، فالقاطرة مؤجرة لشركة إنجليزية اسمها «ميدبار»... و... وكانت آخر كلمات الرسالة تقول: «سمعت من نقابة البحارة هنا، أن طاقم «آلبي» قد انتقي بعناية فائقة، وبأسلوب خاص... وسرت هنا شائعة تقول إن أحد المليونيرات العرب هو الذي استأجرها».

نظر عزت وطاهر كل منهما إلى الآخر وقد علت وجهيهما ابتسامة ذات معنى.

ضرب الباشا ضربته في دكار فكشف سرًا مهولًا، وجاءت المعلومات تؤكد شيئًا جديدًا: إن الحفار «كينتنج» سوف يلقى رعاية من نوع خاص ابتداء من أبيدچان. أطلق الإسرائيليون شائعة الثري العربي الذي استأجر القاطرة «آلبي» حتى يلووا الأعناق والأذهان بعيدًا عنهم... هؤلاء الثعالب الذين يستفيدون من كل شيء بذكاء لا بد من الاعتراف به... وإذا كنت ذكيا بحق فعليك أن تعترف بذكاء خصمك إذا ما كان كذلك... ولقد اتخذ طاهر قراره على الفور، ولا بد من ضرب الحفار في دكار وقبل أن يصل إلى أبيدچان، بأي ثمن.

* * *

كان اليوم التالي هو الثاني من أيام عيد الأضحى لذلك العام، وكانت المصالح الحكومية كلها في السنغال معطلة. إلا بعض الشركات الكبرى التي تستلزم أعمالها تواجد بعض الموظفين حتى في الأعياد... وفي الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة ظهرًا... كان رجل الأعمال السوري الأصل «سليم أبو فودة» يستعد لمغادرة مكتبه في دكار، كان هناك عدد من موظفيه ـ وكان يناقشهم في بعض الأعمال وهو يستعد للانصراف... كان ذاهبًا إلى المطار لاستقبال المهندس «سليمان عبد البر محمود» الذي سيشرف على مطاحنه ومعاصره، والذي سيعيد المعصرة الكبيرة إلى العمل بعد توقف دام لأسابيع. أنهى أعماله مع موظفيه ثم انطلق

إلى المصعد... فتح له السائق السنغالي باب المصعد؛ فدلف إليه وخطا السائق خلفه... ما إن أغلق باب المصعد هابطًا حتى مد سليم يده إلى السائق متحدثًا بلغة «الولوف» السنغالية قائلا:

ـ أعطني مفاتيح السيارة، وعد إلى بيتك، واقض اليوم مع أولادك.

في الطريق إلى المطار كان سليم مستغرقًا في التفكير، كان يثق في المصريين ثقة بلا حدود، ثقة من عرك الأحداث معهم، واختبر معدنهم؛ فاطمأن تمامًا إليهم... لكنه، برغم ثقته هذه، كان اليوم قلقًا.

فما الذي يريده هؤلاء «المصاروة» من دكار؟

* * *

وليست العاصمة السنغالية بالمدينة الكبيرة إلى حد تستطيع معه أن تخفي ما يجري فيها، ومنذ أسبوعين بالضبط وثمة حركة غريبة وغير محسوسة تجري في المدينة، وهي حركة لا يلحظها أو يدركها إلا من عاش العمر كله في بلاد السنغال، عاشه مهاجرًا، وظل مهاجرًا حتى بعد حصوله على الجنسية.

جاء سليم أبو فودة إلى دكار وهو في العاشرة من عمره، نزح أبوه «شكري أفندي أبو فودة» من حلب في شمال سوريا إلى السنغال ـ وكانت تحت الاستعمار الفرنسي ـ ليعمل موظفًا في الحكومة... ولأنه كان مسلمًا ومتدينًا، ولأن ثمانين في المائة من سكان السنغال مسلمون، فلقد أضاف التدين إلى مهابة الوظيفة الحكومية مهابة اختصوا بها الرجل الذي كان يرى في الإسلام أسلوبًا قبل كل شيء... وفي كل أحاديثه الخاصة، أو أحاديثه الدينية التي أصبح يلقيها بعد أن تعلم اللغة السائدة في السنغال وهي الولوف، كان الرجل يؤكد أن قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «الدين المعاملة»، هو الركن الأسمى لحياة المسلم.. كان «شكري أفندي أبو فودة» يرى أن المسلم لا يخدع ولا يغش ولا يسرق

ولا «يلف» ولا يأكل مال غني أو فقير أو يتيم... المسلم الحق هو من يعرف قيمة الزكاة وسط شعب من فقراء المسلمين.

شب سليم عن الطوق وهو يؤمن بكل هذا ويعتنقه ويمارسه كالتنفس... غير أن الأيام علمته الكثير، خاصة بعد وفاة والده؛ وكان هو قد بلغ السادسة عشرة... ولقد كان الدرس الأول الذي تعلمه، هو أن «المهاجر» غريب في كل مكان يحل به، كان الحنين إلى مسقط رأسه كالمرض العضال... اكتشف أن الوطن «قدر» كالأب والأم لا حيلة للإنسان فيهما، كان يشعر برغم أنه وعى على الدنيا وشب عن الطوق في السنغال أنه مواطن من الدرجة الثانية... وبعد وفاة أبيه تقلب في العديد من الأعمال كسبًا للقمة العيش وخبر في تقلبه هذا كل نواحي النشاط الاقتصادي في البلاد التي انتمى إليها، لكنه، عندما تجمع لديه بعض المال شد الرحال إلى حلب... وهناك، وجد نفسه أشد غربة مما كان، أصابته وحشة مَن يسير في أرض يعشقها وهي لا تعرفه... كان كل شيء غريبًا عليه، وكان هو غريبًا في وطنه... فاتخذ قراره، وعاد إلى السنغال.

قرر سليم أبو فودة أن يهاجر من جديد، لا إلى بلد بعينه، ولكن إلى «المال».

بدأت هجرته إلى المال وهو لم يتعد الثامنة عشرة من عمره، وسرعان ما أنس إلى هذه الهجرة، عندما عرف أن المال كالمهاجر... بلا جنسية... موطنه الكرة الأرضية بأسرها، فإذا ما انتمى إليك المال، أصبحت مواطنًا عالميًا، تفتح لك كل الأبواب، وترحب بك كل الدول.

في سنوات قليلة أصبح سليم أبو فودة ثريًا... صعد من السفح إلى القمة قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، سلاحه لافتة علقها فوق مكتبه، منذ أن كان هذا المكتب مجرد مائدة صغيرة في دكان متواضع

بأحد أحياء دكار الشعبية، حتى أصبح ذلك المكتب الفخم في واحدة من أعظم بنايات دكار الحديثة... لافتة كتب عليها: «الدين المعاملة».

* * *

في منتصف الستينيات أقام القنصل المصري في دكار حفل عشاء في مبنى القنصلية دعا إليه عددًا من ممثلي الدول، كما دعا إلى العشاء الذي أقيم احتفالًا بعيد ثورة ٢٣ يوليو، عددًا كبيرًا من المسؤولين في السنغال، وبعض رجال الأعمال المرموقين... وكان منهم سليم أبو فودة.

ولأن في السنغال بضع لغات تختص كل قبيلة بلغتها، فإن اللغة الرسمية السائدة هي اللغة الفرنسية... ولقد دار الحديث في ذلك المساء في شرفة القنصلية بين القنصل المصري وبين عدد من المدعوين، من بينهم سليم بك، حول ثورة ٢٣ يوليو وعبد الناصر... كان الحديث مليئًا بالود، عندما قال سليم فجأة، وبصوت سمعه كل الحاضرين:

- أتدري ما هو أفظع ما فعله بي الرئيس عبد الناصر يا سعادة القنصل؟

ران السكوت فجأة على الجميع، وابتسم القنصل متحفزًا وقد أدرك أن بوادر أزمة في الطريق إليه، لم تكن ذكرى انفصال سوريا عن مصر بعيدة عن الأذهان، التفت القنصل نحو سليم قائلًا:

- لم أكن أعلم أن للسيد الرئيس أعمالًا فظيعة.

رد سليم بنفس الصوت الواضح النبرات:

- لقد أيقظ عبد الناصر في أعماقي، ذلك الإحساس المرير بالانتماء.

أدرك القنصل على الفور ما الذي كان يعنيه هذا الرجل الشديد الذكاء، فرد عليه بالعامية المصرية:

ـ الانتماء مش كلام وبس يا سليم بك.

وتوقف الحوار ليلتها عند هذا الحد، ولم يحدث أن اتصل القنصل بعد ذلك بسليم أبو فودة، لكن الحوار استؤنف بعد ذلك بحوالي ثلاثة أشهر عندما زار دكار شاب متفجر بالحماس، كان يحمل رسالة خاصة من الرئيس جمال عبد الناصر إلى السيد سليم أبو فودة... كانت الرسالة تقول: إنه إذا كان جمال عبد الناصر قد أيقظ في أعماقه هذا الإحساس المرير بالانتماء، فإنه سيصبح إحساسًا أشد مرارة إن لم نحاول أن نغذي هذا الانتماء ونرعاه.

كان الشاب قادمًا للمناقشة، أما سليم فلقد كان الأمر قد فاض به، فانفجر في وجه الشاب بلهجته الشامية تلك، يقول بأنه على استعداد لتغذية انتمائه بكل ما يملك وكل ما يستطيع، تحت شرط واحد...

ضحك الشاب قائلًا:

ـ وسيادة الريس له شرط واحد هو كمان.

قال سليم بالفرنسية متسائلًا:

ـ ما هو شرط الرئيس؟

رد الشاب:

ـ ألا تصنع شيئًا ـ مهما صغر شأنه ـ ضد السنغال.

وأطلق سليم ضحكة هائلة صاخبة، فلقد كان هذا شرطه الوحيد... أيضا.

* * *

عندما هبط نديم هاشم من الطائرة في مطار دكار، كان يرتدي نظارة شمسية داكنة اللون، ولم يمكث في المطار أكثر من عشرين دقيقة،

كان وجود سليم أبو فودة، بشخصه في استقباله، كفيلًا بأن يفتح كل الأبواب... فتمت الإجراءات في دقائق، وحملت الحقيبتان ـ بدون تفتيش ـ إلى السيارة الفاخرة التي كان يقودها سليم بنفسه... في الطريق من المطار إلى الفندق، سأله نديم هاشم:

ـ إيه الأخبار يا أخ سليم؟

فبادر سليم على الفور صائحًا:

ـ شو العمى يا أخي، أنا اللي باريد أعرف شو ها الحكي اللي في دكار من أسبوعين؟

* * *

توقفت سيارة سليم أبو فودة أمام باب الفندق فهرع الخدم إليها يحملون الحقيبتين، صحب الرجل ضيفه إلى الداخل حيث وجد من الموظفين ترحيبًا حارًا... كان المهندس سليمان عبد البر محمود لا يزال يرتدي النظارة الشمسية الداكنة التي كان يرتديها منذ غادر الطائرة... وظل سليم هناك حتى انتهت كل الإجراءات، فصافح كبير مهندسيه في حرارة، وغادره على موعد في المساء لتناول العشاء بمطعم الفندق.

وصعد المهندس سليمان عبد البر محمود إلى غرفته تسبقه حقيبتاه.

كان كل شيء يبدو طبيعيًا... حتى أمام هذين الرجلين القريبين اللذين كانا يحومان في مدخل الفندق... كان أحدهما نزيلًا، أما الآخر فلا أحد كان يعرف ما الذي يفعله هناك.

كان كل شيء يبدو طبيعيًا للغاية... إلا أن المهندس سليمان عبد البر محمود الذي صعد إلى غرفته في الفندق، لم يكن هو نديم هاشم، ولم تكن الحقيبتان اللتان صعد بهما الخدم، حقيبتي نديم...

كان المهندس سليمان عبد البر محمود الذي صحبه سليم أبو فودة

إلى الفندق، هو نفسه صاحب الوجه الذي بحث عنه نديم في الطائرة. والذي يشبهه، ويرتدي نسخة أخرى من ملابسه... أما الحقيبتان فلقد كانتا نسختين أخريين من حقيبتي نديم وكانتا ممتلئتين بالملابس والكتب الهندسية، وكانتا قد وصلتا إلى دكار، قبل ثمان وأربعين ساعة.

* * *

أما نديم هاشم، فلقد كان في ذلك الوقت يجلس في سيارة راحت تنهب الطريق نهبًا إلى إحدى ضواحي دكار.

وكانت هذه هي السيارة الثالثة التي ينتقل إليها نديم منذ غادر سيارة سليم... بجواره، كان ثمة شاب يقود السيارة وقد غرق في الصمت، كان الجو حارًا ودرجة الرطوبة عالية، فخلع نديم سترته ورباط عنقه وشمر أكمامه وفتح ياقة قميصه... ما أن وصلت السيارة إلى مشارف الضاحية حتى انحرفت إلى شارع جانبي ثم توقفت، غادر الشاب السيارة وفتح غطاء الموتور وراح يفحصه... هو في الحقيقة لم يكن يفحص الموتور، بل كان يفحص الطريق من خلفه ومن حوله بعيني صقر لا تغفلان شيئا، كان الطريق خاليًا والسكون عميقًا، وشوارع الضاحية التي يسكنها الفرنسيون واللبنانيون ـ أكبر جاليتين في السنغال ـ وتحتل الكثير من مبانيها سفارات الدول وقنصلياتها وبعض الأثرياء من الوطنيين... كانت شوارع الضاحية خالية تمامًا من المارة... وكما سكن الشاب لدقيقة وبعض دقيقة، فلقد استسلم نديم هو الآخر للسكون، طنت من حول رأسه ذبابة كبيرة اندفعت من إحدى نافذتي السيارة، دارت دورة، ثم غادرت السيارة من النافذة الأخرى... وكان الشاب قد اطمأن، فأعاد غطاء الموتور إلى مكانه، ورجع إلى السيارة وانطلق بها على مهل.

أمام ڤيلّا صغيرة، توقفت السيارة.

هبط الشاب ونديم معًا بعد أن شملا المكان بنظرة خبيرة... تقدم الشاب من الڤيلا ودق الباب دقتين، ثم ضغط على زر الجرس مرة واحدة... فتح الباب وأوسع الشاب طريقًا لنديم كي يدلف إلى الداخل... وكان أول من استقبله هو الباشا شخصيًا.

* * *

لم يكن هناك وقت للترحيب، بدأ الرجلان العمل فورًا... راح الباشا في دقة متناهية، يسرد على نديم كل شيء، كل ما رآه وكل ما جمعه من معلومات، بجوار الباشا كان المواطن إبراهيم سيد فرج الله ـ ذلك الذي غادر القاهرة ذات صباح على طائرة سويس إير إلى چنيف ثم دكار للعمل بها كمدرس للغة العربية ـ كان متحفزًا للحديث هو الآخر، فما أن انتهى الباشا حتى راح إبراهيم يدلي بتفاصيل شديدة الدقة، تفاصيل استطاع أن يجمعها من الأرصفة ومكاتب الميناء والمتعهدين والبحارة وعمال السفن... انتهى الرجل من الحديث فسأله نديم:

ـ إيه أخبار ليز ونورمان؟

ضحك الباشا قائلا:

ـ البروفسور خطفهم.

وأردف إبراهيم:

ـ وكانت معاه واحدة شكل.......

قاطعه نديم وقد تحددت أمامه معالم الطريق:

ـ دي سارة جولد شتاين.

وهوت الكلمات في الغرفة كالقنبلة... ولفت الرجال زوبعة عاتية من الصمت دامت لثوان.. لكنهم سرعان ما عادوا إلى العمل من جديد.

* * *

لم تكن الصورة أمام نديم هاشم مشجعة بأي شكل من الأشكال... كان الوصول إلى الحفار محفوفًا بالمخاطر، بل إن ضرب الحفار نفسه ـ حتى ولو استطاع الرجال الوصول إليه ـ كان أيضًا محفوفًا بمخاطر بلا حدود... هتف محمود شوكت وكان الرجال يجلسون حول مائدة غداء خفيف:

ـ زوارق الطوربيد الفرنساوي قريبة قوي من الحفار.

غمغم نديم:

ـ الفرنساويين بيلعبوا معاهم يا باشا.

أضاف إبراهيم سيد فرج الله:

ـ المسافة بين نقطة الانطلاق والحفار طويلة جدًا.

لكن رأي الباشا وإبراهيم، كان: إن التنفيذ ممكن جدًا، لكنه ليس سهلًا.

وكان رأي نديم معلقًا، أنه بالتأكيد يثق في زميليه، ولكن...

ـ إمتى أقدر أدخل الميناء يا إبراهيم؟

ـ دلوقت إذا حبيت.

ـ يلّا بينا.

همَّ الرجال بالنهوض عندما دق جرس التليفون... أسرع شاب من الداخل فرفع السماعة... دار الحديث بينه وبين المتحدث بالفرنسية، ثم أمسك الشاب بقلم وراح يكتب في صمت... ما أن انتهى الحديث، حتى حمل الشاب الورقة المكتوبة ـ وكانت بالشفرة ـ إلى نديم... ألقى نديم نظرة على الرسالة وهتف في الباشا:

ـ إيه حكاية القاطرة «آلبي» دي؟

وقص عليه الباشا ـ مرة أخرى ـ كل ما عرفه عن هذه القاطرة، فغمغم نديم:

ـ طاهر عاوزنا نضرب هنا بأي ثمن.

* * *

لم يكن الدخول إلى الميناء صعبًا... هبط نديم من السيارة التي كان يقودها أحد موظفي شركة سليم أبو فودة، دخلت السيارة إلى الميناء بسهولة، وتوجهت على الفور إلى رصيف بعيد شبه مهجور ترسو عليه سفن وقوارب قديمة ومتآكلة الأجساد محطمة الآلات... كان الغرض المعلن من الزيارة، معاينة إحدى سفن الصيد التي تعطلت منذ شهور، وتحتاج إلى إصلاح، ويريد السيد سليم أبو فودة شراءها.

وقف نديم فوق السطح المائل لهذه السفينة الصغيرة، وألقى ببصره إلى بعيد، ضمت عيناه جسد الحفار بأبراجه الأربعة المرتفعة في الهواء... كانت المسافة بين السفينة ـ التي اتفق على أن تكون هي نقطة انطلاق الضفادع البشرية ـ والحفار تزيد على الثمانمائة ياردة... كانت هذه المسافة في خط مستقيم، أما الطريق إلى الحفار فكانت تعترضه أرصفة وسفن ولنشات ومنشآت وقوارب... لم يكن نديم يستطيع أن يقول كلمته الأخيرة قبل أن يعرف رأي رجال الضفادع البشرية... تذكر أن خليفة جودة ـ قائد الرجال ـ سوف يصل في السادسة من صباح الغد... التفت نحو الموظف قائلًا:

ـ أنا محتاج معاينة تانية.

ـ تحت أمرك.

ـ المسافة من المطار لحد هنا قد إيه؟

ـ نصف ساعة.

ـ يبقى تعمل حسابك إننا نعمل معاينة بكرة الساعة سبعة الصبح.

وعندما غادر نديم سفينة الصيد كان مهمومًا، ألقى نظرة هنا ونظرة هناك... كان الموقع المختار مثاليًا بالنسبة للميناء والدخول والأمن والانطلاق، لكنه قد لا يكون كذلك بالنسبة للرجال... ترى ما الذي اكتشفه طاهر رسمي بخصوص القاطرة «آلبي» والذي لا بد دفعه لإرسال مثل تلك البرقية... عاين الباشا الحفار عن قرب، واستطاع أن يحدد بالضبط أماكن الحراسة فوقه ومن حوله، تطابقت أقوال الباشا مع أقوال فرناندو بالديرا، إذن فالإسرائيليون لم يغيروا من نظام الحراسة شيئًا... ولو استطاع الرجال أن يعبروا هذا الطريق الطويل في الظلام وتحت المياه، فلسوف يتمكنون من الحفار... ولن تصيب الانفجارات أيا من زوارق الطوربيد الفرنسية، فلسوف يتم التفجير تحت المياه فلن يصيب سوى الحفار، ثم هناك رصيف يبلغ عرضه أكثر من خمسين مترًا يفصل بين الزوارق والحفار... سوف تكون ضربة ناجحة... ولكن، لا قرار قبل وصول «خليفة جودت».

* * *

كان معروفًا عن رجل الأعمال السوري الأصل «سليم أبو فودة» أنه يتناول عشاءه في السادسة مساء... ذلك أنه يحب أن يأوي إلى فراشه مبكرًا حتى يستيقظ قبل الفجر، ويستغل ساعات الصباح في العمل قبل هجوم الحر اللافح... ولذلك، فقبل السابعة بقليل، انتهى العشاء الذي أقامه لكبير مهندسيه الجديد «سليمان عبد البر محمود» في مطعم الفندق الذي ينزل به، والذي دعا إليه عددًا قليلًا من كبار موظفي شركته، واثنين من المهندسين أحدهما إيطالي والآخر فرنسي.

انتهى العشاء وغادر الضيوف الحفل، كما صعد المهندس سليمان إلى غرفته التي لم يكن في حاجة إلى الكثير من الجهد ليكتشف أنها

فتشت تفتيشًا دقيقًا ومحترفًا... فابتسم وهو يرفع سماعة التليفون ويطلب من عاملة السويتش أن توقظه في الرابعة صباحًا... وكان هذا يعني ـ بلا تفاصيل ـ أن الغرفة فتشت، وأن الذين قاموا بالتفتيش محترفون... أعاد السماعة وبدل ملابسه ودس نفسه في الفراش وراح في نوم عميق.

أما السيد سليم أبو فودة، فلقد عاد من الفندق إلى قصره الصغير الذي يطل من فوق رابية عالية، على المحيط مباشرة.

وعندما وصل إلى القصر كانت الساعة قد تجاوزت السابعة بقليل... وفي ذلك الوقت، وصلت سيارة فرنسية صغيرة إلى منطقة معينة من الشاطئ لا تبعد كثيرًا عن قصر سليم أبو فودة... كانت الشمس تميل نحو الغرب وقد لامس قرصها مياه الأفق البعيد، وصبغ لون الشمس القاني مياه المحيط فتحولت إلى كرة بلّورية ساحرة... توقفت السيارة فساد السكون وران الصمت إلا من همسات المياه وهي تتمرغ على صدر الشاطئ الرملي في مداعبة كانت تضيف إلى الجو روعة أسطورية... هذه هي إفريقيا، إنها ليست سوداء كما يقولون، إنها أسطورية، ورائعة، وغنية، وجميلة... في داخل السيارة كان نديم يجلس بجوار الشاب الذي صمت لثوان، ثم فتح الباب المجاور له قائلا:

ـ اتفضل أخي.

راح الشاب يخترق الطريق بين عيدان نباتات تنمو بكثافة على الشواطئ في موسم الأمطار، تبعه نديم وهو يهبط منحدرًا شديدًا ومتعرجًا أوصله إلى الشاطئ الرملي... سار الرجلان عند سفح الربوة حوالي مائتي ياردة، انحنى بعدها الشاب إلى الأمام، ودفع بابا مصنوعًا من سيقان النبات حتى لا يعرفه إلا من يعرف أمره... سار نديم خلفه في ممر ممهد وسط شجيرات صغيرة لنبات لا يؤكل ثمره... ضاق الممر قليلًا ثم انفرج عن باب خشبي في السور الجانبي للقصر، بمفتاح

خاص فتح الشاب الباب ودخل فتبعه نديم... على بعد مائة ياردة، كان ثمة مرتفع صغير، فوقه مائدة فوقها أطباق الطعام... ولم يكن هناك سوى سليم أبو فودة... وعندما وصل إليه نديم وتصافح الرجلان في حرارة، كانت الشمس قد غربت تمامًا، تاركة وراءها على مياه المحيط، هذا اللون القرمزي الساحر.

انصرف الشاب وكانت الجلسة بين الرجلين هادئة... وجامل سليم ضيفه بأن تحدث معه مباشرة، بالعامية المصرية...

ـ أنا قلت أحضر لك لقمة تاكلها... إنت أكيد ما أكلتش طول النهار.

ضحك نديم وهو ينقض على الطعام، فلقد كان جائعًا... وراح الرجلان يتحدثان في كل الأمور، أراد سليم أن يعرف ـ ولم تكن هذه هي عادته ـ ما الذي يفعله المصريون في دكار حقًا... إن الظنون تروح به وتغدو لكنه...

ـ تفتكر حانيجي هنا دلوقت نعمل إيه يا سليم بك؟

ـ الحفار؟

ـ عشرة على عشرة.

ساد الصمت بين الرجلين فلقد غرق سليم في التفكير، وانغمس نديم في الطعام، وكان بين الحين والحين يختطف نظرة من وجه الرجل الذي كان الآن ينظر نحو المحيط نظرة من ألف الحديث مع المياه... وفجأة... قال سليم:

ـ أنا شربت القهوة مع السفير السوري النهارده العصر.

رفع نديم رأسه نحو الرجل، أيقن أن وراء ما قاله السفير خبرًا، فتوقف عن الطعام منتظرًا... استطرد سليم بعدها في كلمات واضحة وفي صوت جلي النبرات:

ـ أصل السفير كان بيزور وزير الداخلية النهارده الصبح.

توقفت يدا نديم عن الحركة، جمد في مكانه وهو يحملق في سليم:

ـ الوزير مندهش من عدد المصريين اللي دخلوا دكار في الأسبوع الأخير.

كانت الرسالة شديدة الوضوح، فكف نديم عن الطعام.

* * *

في ذلك الوقت دقت ساعة جامعة القاهرة تمام العاشرة والنصف مساء، وتوقفت أمام بيت أمين هويدي ـ مدير المخابرات المصرية ـ في مصر الجديدة، سيارة مرسيدس سوداء من ذلك النوع الكبير الذي لا يوجد منه في مصر سوى عدد ضئيل، أغلبه في رياسة الجمهورية... كان الوزير مريضًا، وكان طبيعيًا أن يزوره مجموعة من ولاة الأمور والوزراء... هبط من السيارة خمسة شبان لم تكن ملامحهم واضحة في الإضاءة القليلة في الشارع... بجوار الشرطي الذي عادة ما يحرس بيوت الوزراء في مصر، كان ثمة حارس يرتدي الملابس المدنية، تقدم الحارس منهم وصافحهم وقادهم إلى الباب، فتح الباب فاستقبل الشبان الأربعة خادم ريفي طيب الملامح، رحب بالضيوف وقادهم إلى الصالون البسيط الذي يواجه مدخل البيت... تركهم لدقيقتين، ظهر بعدها مدير المخابرات وهو يرتدي الروب ويمسك في يده منديلًا أبيض، وفي اليد الأخرى صندوقًا للمناديل الورقية... وقف الشبان لتحيته فانتابته نوبة سعال حادة... ظل الرجل واقفًا عند باب الغرفة لا يقترب، حتى استطاع التنفس، فقال:

ـ بلاش أسلم عليكم علشان العدوى.

كان الشبان الخمسة هم: الرائد خليفة جودت قائد المجموعة التي وقع الاختيار عليها للتنفيذ وهم: الملازم، والعريف، والمتدين ثم القرش... ساد الصمت لثوان كان المدير يبحث فيها عن مقعد بعيد، لكنه ما لبث أن هتف في تذمر المريض:

ـ يا عم مصطفى.

ـ نعم يا ابني.

ظهر الخادم إلى جواره فورًا، فقال هويدي مداعبًا:

ـ مش تخلي بالك مني شوية... أنا عيان.

ـ إنت تؤمر.

ـ حط لي كرسي هنا بعيد عنهم علشان ما يخدوش عدوى مني.

وضع الخادم المقعد في مدخل الغرفة، فغمغم المدير بلهجة جاءت ريفية رغمًا عنه: «الشاي».

وهرول عم مصطفى ليحضر الشاي، وجذب هويدي الباب المنزلق فأغلقت الغرفة.

تلك لحظات صمت لا بد منها، بدا فيها مريضًا حقًا، لكنه قال فجأة:

ـ أنا عارف إنتو تعبتوا قد إيه، وعارف كمان قيمة إنكم لحد دلوقت ما تعرفوش إنتوا مسافرين فين ولا رايحين تعملوا إيه.

بدا وكأن أمين هويدي لا يجد ما يقوله، فلقد نظر في ساعته بغتة، ومال نحو خليفة قائلا:

ـ الأخ.........

ولم يكمل، سدد إليه نظراته واستطرد:

ـ اسم الكريم إيه؟

فورًا رد خليفة في لهجة أردنية واضحة:

ـ محمد عويدات سيدي.

ـ الأخ محمد عويدات مسافر دلوقت، حايسبقكم، بعد نص ساعة حايكون في المطار.... وأي حاجة حاتكون ناقصة هو حايكملها قبل وصولكم، يعني باختصار... إنتوا حاتوصلوا علشان تلاقوا كل حاجة جاهزة، وحمايتكم قبل أي حاجة تانية.

أحس هويدي أن المرض يمنعه من التعبير عن نفسه لكنه استمر:

ـ كل اللي أقدر أقوله إن البلد حطت وراكم كل إمكانياتها... ورحلتكم بيتخطط لها من أسابيع طويلة، كل حركة فيها مدروسة ومعتنى بيها لأقصى درجات الاعتناء، أنا بس مش عاوزكم تنفذوا المهمة بنجاح، عاوزكم ترجعوا لنا بالسلامة... إنتو... إنتو ثروة قومية وطنكم بيعتز بيها، وإذا كنتوا في عنينا، لازم مصر تكون في عينيكم.

صمت المدير فجاشت نفوس الرجال... وتساءل القرش بينه وبين نفسه: إذا كان المدير لا يعرفهم ولا يعرف أسماءهم، فكيف عرف أن الرائد خليفة هو القائد، وهو الذي سيسافر بعد نصف ساعة؟

ـ كان لازم أشوفكم... كان لازم.

هكذا قال هويدي وكأنه يعتذر عن عدم قدرته على التعبير عن نفسه.

ـ ومعنديش حاجة أقولها غير ربنا معاكم.

ولم يكن المدير في حقيقة الأمر في حاجة إلى حديث، كان الرجال يشعرون به، بمسؤولياته، بمرضه، كان اللقاء، فقط هذا اللقاء، وتلك الجلسة، وذلك الإحساس الذي جمعهم، كفيل بأن يلهب مشاعرالرجال.

نهض أمين هويدي محاولًا أن ينفض عنه المرض، وواجه الرجال بصوته المجروح:

ـ أشوفكم إن شاء الله بخير... مع السلامة يا رجالة.

ثم مد يده ودفع الباب المنزلق... وكان عم مصطفى يحمل صينية الشاي على الجانب الآخر منه.

* * *

صعد الرائد خليفة جودت، أو المواطن الأردني محمد عويدات، إلى إحدى الطائرات المتجهة إلى المغرب، وكانت الساعة تقترب حثيثًا من منتصف الليل... في يده حقيبة «هاندباج» بها بعض الملابس الخاصة، كما كان موقنا أن رحلته لن تتوقف إلا في دكار بالسنغال... لم يعرف شيئًا عن وجهته إلا عندما أصبح داخل مطار القاهرة الدولي، دخل من باب جانبي، وأخذ إلى غرفة حكومية من غرف المطار، سلمه أحد الرجال جواز سفره الجديد، والغريب أنه كان جوازًا مستعملا... قال له إنه سيركب طائرة متجهة إلى الرباط ليصل إليها في حوالي الثالثة والنصف... وإنه سيجد في المطار ضابط مخابرات مغربيا اسمه «بو صابر» سيصحبه إلى طائرة أخرى متجهة إلى دكار، ليكون هناك في تمام السادسة صباحًا بتوقيت السنغال... وأن عليه في كل مراحل الرحلة، ومهما كانت الظروف، ألا يصنع شيئًا سوى انتظار من سيأتي إليه، ذلك أنه سوف يجد كل شيء معدًا لاستقباله على أحسن وجه.

كان الرائد خليفة جودت واحدًا من أفذاذ الضفادع البشرية الذين عرفتهم مصر... ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعهد إليه بعمل مثل هذا... ولذلك، وعندما صعد إلى الطائرة، لم يفكر في أي شيء سوى وجبة الطعام التي سيقدمونها، هل ستكفيه؟ وهل من حقه أن يطلب وجبة أخرى؟ ولما جاءت الوجبة، التهمها في ثوان، وكانت المفاجأة،

أن المضيفة رفعت الصينية الصغيرة الفارغة من أمامه، ووضعت مكانها واحدة أخرى، ثم همست:

ـ إذا حبيت طبق ثالث اطلب ما تنكسفش.

والتهم الوجبة الأخرى، ثم وضع رأسه فوق المسند... ونام.

* * *

بدا الموقف للرجلين شديد التعقيد.

كان نديم قلب الأسد يقف الآن، وفي اللحظة التي كان خليفة جودت يحلق فيها على ارتفاع عشرات الألوف من الأقدام فوق سطح الأرض... في بدروم الڤيلّا التي اختيرت في تلك الضاحية الراقية في دكار... كان يقف مع الباشا وهما ينقلان البصر هنا وهناك، في ذلك البدروم الذي أعد لاستقبال الرجال ابتداء من اليوم... كانت المعدات قد خرجت من مكمنها، وكل بذلة غطس، وضعت فوق سرير صاحبها، معها زعانفه ومعداته وكشافه وخنجره.

ـ أنا شايف إن الخناجر ملهاش لازمة.

هكذا قال الباشا، فرد نديم:

ـ وأنا ما أقدرش أنزلهم في مهمة زي دي من غير سلاح، وعلى الواحد منهم، عند أي اعتراض في أثناء التنفيذ أو بعده، إنه يتصرف وبسرعة.

كان قلب الأسد الآن يطفو على السطح ليحتل المساحة كاملة... كل شيء جاهز الآن تمامًا، لكن المناقشة لم تكف لحظة بين الرجلين... ولقد كان الباشا يعلم أن الكلمة الأخيرة هنا، لنديم، لذلك فلم يتوان في تقديم العون بالصورة التي يحبها نديم أو يراها... ومنذ ساعة كان الباشا هناك بأسلوب ـ أو بآخر ـ يعاين الحفار للمرة الثالثة عن قرب... وتأكد

هذه المرة أن الاسترخاء كان هو السمة الرئيسية للإسرائيليين... كان رأي الباشا أن الخطة قد أفلحت، وأن عدم ظهور أي رد فعل لاختطاف ليز ونورمان، قد جاء بنتيجة رائعة... أن أعصاب الإسرائيليين الآن أصبحت أكثر هدوءًا، ولقد سمح الحراس عصر اليوم لبعض الباعة من الوطنيين من الاقتراب من القاطرة ليبيعوا بعض ما حملوه من بضائع.

جاءتهما الأخبار منذ ساعة أو يزيد قليلًا أن ليز ونورمان ـ رغم عدم وصول رسالة طاهر إليهما بالاستسلام وعدم الاهتمام ـ قد تصرفا وكأن الرسالة قد وصلت فعلًا، فهما لم يبذلا أي جهد للمقاومة في أثناء عملية الاختطاف، بل لقد أصابهما ارتباك قد يكون حقيقيًا... وإنهما استسلما لسارة جولدشتاين وديڤيد ليڤنجر استسلام من لا يفهم ومن فقد الحيلة في نفس الوقت... ولا بد أن الإسرائيليين حاولوا استجوابهما وخرجوا صفر اليدين...ثم...ثم ذلك المهندس الذي فتشت غرفته تفتيشًا دقيقًا ومحترفًا ولم يبد عليه أنه لاحظ شيئًا، وأوى إلى فراشة طالبًا إيقاظه في الرابعة صباحًا... ولقد وصل المواطن إبراهيم سيد فرج الله في أثناء الحوار بنبأ يدعم ما ذهب إليه الباشا... قال إن «سارة جولدشتاين» شوهدت في مطعم فندق كبير، وهي تتناول العشاء وحدها، وأنها كانت تبدو ـ على غير عادتها ـ هادئة تمامًا، بدا هذا واضحًا في الأربعة كؤوس من النبيذ الفرنسي التي احتستها في أثناء العشاء بلذة واضحة.

استمع نديم لكل هذا فهتف:

ـ يلّا بينا.

سأله الباشا:

ـ على فين؟

ـ عاوز أشوف الحفار يا شوكت.

ـ تاني.

هكذا صاح الباشا ضاحكًا، وهو يستعد لمرافقة نديم.

* * *

همس الباشا مازحًا:

ـ تيجي نشتغل في السينما يا نديم؟

ـ اشمعنى؟

ـ اللي احنا عاملينه ده، ما بيتعملش إلا في السينما.

كانت بالفعل فكرة خيالية، لكنها قربتهما من الحفار بجرأة يحسدان عليها، وتعرضهما لخطر محقق... كانا الآن يجلسان في أحد قوارب الصيادين الذي استعاراه لساعة واحدة نظير مبلغ محترم من الفرنكات الفرنسية... وقد دهنا جسديهما باللون الأسود حتى أصبحا في تلك الملابس الوطنية المميزة التي يرتديها عمال الميناء، سنغاليان يسعيان وراء لقمة عيش حتى ولو كان الليل قد انتصف منذ ساعة وبعض الساعة... كان شوكت قد صور الحفار من قبل، ولكنه عاد يصوره الآن مرة أخرى، ورغم أن نديم قال له إن: «الصور مش حاتطلع»، فإن الباشا لم يتوقف عن التصوير، بينما كانت عينا نديم تدرسان كل موقع، وكل مكان، وكل زاوية، وكل ظاهرة من حول الحفار أو فوقه... كانت الصورة الآن مطابقة تمامًا لخياله الذي ظل يرسم فيه، وفي دأب، طوال الأسابيع التي مضت.

* * *

بعد ذلك بساعة، تغامز موظفو الفندق الذي ينزل فيه السيد عصمت كارجي رجل الأعمال التركي... فلقد عاد الرجل إلى الفندق مترنحًا كمن شرب برميلًا من الخمر... كان يترنح في وقفته وفي سيره تفوح منه

رائحة الخمر قوية... وعندما طلب مفتاح غرفته من موظف الاستقبال، ذكره هذا في أدب أن الآنسة ليليان في الغرفة لم تغادرها... لوح كارجي بيده في ضيق، وترنح حتى وصل إلى المصعد، واختفى فيه.

* * *

أما نديم هاشم فلقد حاول النوم دون جدوى .. أطفأ النور، وأغمض عينيه، وراح يعيد ترتيب الأمور في ذهنه من جديد، استعدادًا لاستقبال خليفة القادم بعد ساعتين على الأكثر.

كان نديم... قد اتخذ قراره بالتنفيذ.

* * *

كانت الساعة تشير إلى السابعة وخمس دقائق عندما تسلل نديم مع خليفة جودت، والذي كان قد وصل إلى دكار منذ ساعة واحدة، إلى ذلك القارب المائل... زحف الرجلان على السطح حتى وصلا إلى مكان مناسب، أشار نديم نحو الحفار دون كلمة، فساد الصمت.

ثم بدأ نديم الحديث بعد ذلك في صوت خافت وكلمات واضحة وبذهن مرتب تمامًا، ذكر لخليفة كل شيء عن المنطقة، ذكر له نتيجة معاينة الباشا، والمواطن إبراهيم، ثم بعض تلك المعلومات الثمينة التي نجدها دائمًا عند المتطوعين تفضلًا أو بالأجر.

وعاد الصمت بين الرجلين مرة أخرى.

في هدوء خلع خليفة سترته، فتح صدر قميصه، أخذ من قاع القارب كتلة من الأوساخ راح يكسو بها ملابسه، مزق سرواله، خلع حذاءه وشرابه، طلب من نديم أن يمزق له ظهر القميص ففعل... غادر السفينة إلى الرصيف وقد بدا بشعره القذر ومشيته العرجاء كواحد من المتسولين الذين يبحثون في تلك الأماكن عن شيء يسد رمقهم، في كل خطوة كان

يقيس زاوية الرؤية بالنسبة للحفار، حتى إذا ما وصل إلى الزاوية التي يبغيها، وجد هناك قاربًا قديمًا، فركع على الأرض، وتظاهر بأنه يقضي حاجته.

وفي جلسته تلك، كان يرى الحفار كاملًا.

وعندما عاد خليفة إلى القارب، قال لنديم: إنه تعود على أسلوبهم جيدًا، فهم دائمًا ـ حراس السفن الإسرائيلية ـ ما يحملون نظارات معظمة تكشف المساحة في دائرة واسعة من حولهم، وإن أي شيء، مهما كان تافهًا، كفيل بأن يجعلهم يتحركون وبسرعة.

ثم لزم خليفة الصمت حتى عاد مع نديم إلى السيارة... لم يكن هذا الأخير قد أنبأه بعزمه على التنفيذ، كان في الحقيقة، وقبل أن يعلن، يريد أن يسمع.

ـ عاوز تنفذ إمتى؟

تنفس نديم الصعداء، وابتسم:

ـ بكره قبل أول ضوء.

وهكذا اتخذ قرار تدمير الحفار «كينتنج».

* * *

ما أن طلع النهار وسبحت الشمس إلى كبد السماء، حتى شهدت دكار حركة غير عادية... وقص بعض عمال الميناء قصصًا حول ذلك التوتر الذي أحاط بالحفار «كينتنج» والقاطرة «چاكوب ڤان هيموكيراك»... وتضاحك بعض الوطنيين من عمال السفن وهم يحكون عن تلك السيدة الشرسة التي كانت تصدر الأوامر ذات اليمين وذات الشمال وبلا توقف وفي عصبية فائقة.

كان العمل في العطب الذي أصيبت به القاطرة في أثناء عبورها المحيط، وبعد مغادرتها جزر الأزورس وسط عاصفة عاتية، يتم ليل نهار دون توقف، منذ وصول القاطرة والحفار... غير أن بعض العالمين ببواطن الأمور، والقادرين على رصد الحركات في تلك العاصمة، قالوا: إن هذا التوتر الشديد، لم يظهر بصورته الملحوظة إلا بعد أن هبط مطار دكار موظفان شابان: أحدهما مغربي والآخر فلسطيني تابعين لإحدى شركات الملاحة المغربية... ولقد توجها فورًا إلى مكتب المتعهد الموكل إليه أمر سفن هذه الشركة... ثم، وبعد ساعتين، وصل شاب مصري على إحدى طائرات شركة أخرى للطيران قادمًا من روما... وكان هذا الشاب على موعد مع أحد الوزراء في السنغال، وفي نفس اليوم، لمناقشة إمكانية افتتاح خط جديد لطائرات شركة مصر للطيران التي كان الشاب مندوبًا عنها... وعلى شركة طيران ثالثة... وصل شاب لبناني رقيق اسمه «مازن الشدياق»، وكان أول ما فعله تحدث في التليفون من المطار طالبًا قريبه خليل المرعي الذي يعمل في السنغال منذ عام واحد... وطلب خليل من قريبه أن يركب سيارة أجرة، وأملاه عنوانه بالتليفون.

* * *

وفي ذلك اليوم استيقظ رجل الأعمال التركي عصمت كارجي من النوم متأخرا، وطلب الإفطار في غرفته... وعندما دخل الخادم بالإفطار عليه، كان لا يزال راقدًا في الفراش يعاني من صداع شديد... وكانت مس ليليان تقدم له كوبًا من اللبن وحبتي أسبرين، وكانت تؤنبه بفرنسية باريسية اللهجة على إفراطه في الشراب، وكادا يتعاركان، وسمعه خادم الفندق بعد أن جهز مائدة الإفطار وهم بالخروج، سمعه يطلب من صديقته أن تأمر السويتش بألا يحول إليه مكالمات... قال هذا ثم أردف:

- إني في حاجة للراحة ولو ليوم واحد.

وأخفى الخادم ابتسامته وهو يغادر الغرفة.

ما أن غادر الخادم الغرفة حتى قفز الباشا من فراشه بنشاط شديد، واندفعت ليليان نحو باب الغرفة كي تغلقه بالمزلاج، كانا يتحركان بسرعة شديدة وهي تساعده في ارتداء ملابس تبدو غريبة الشكل... ثم، وبينما هما منهمكين... دق جرس التليفون.

ساد الصمت في الغرفة إلا من رنين الجرس، لم تكن ليليان قد أبلغت السويتش بعد بعدم تحويل أية مكالمات للغرفة، فقال الباشا:

ـ ردي على التليفون... أنا عيان.

* * *

أما المهندس سليمان عبد البر محمود، فلقد قضى يومه كله، من الصباح الباكر إلى قرب الغروب بين الآلات في المعصرة، كان يفحص ويناقش ويدرس ويجهز لعمل شاق لا بد أن يبدأ من الغد... وطوال اليوم، لم يختف سليمان عن عيون الموظفين والعمال والمهندسين، وزوار أجانب جاءوا ليلقوا نظرة، وسمح لهم بالدخول ببساطة، ووقفوا دقائق، كان أحدهم يرمق المهندس سليمان في إمعان... حتى إذا انتهى يومه، أعادته سيارة الشركة إلى الفندق فورًا...وكان الرجل في حاجة إلى حمام ساخن، طلب بعده العشاء في غرفته، ثم أوى إلى فراشه.

* * *

ها هي اللحظة الرهيبة تقترب... كل دقيقة، بل كل ثانية تمضي من عمر الزمن، تقتصر المسافة بين الرجال وبين المهمة الموكولة إليهم... في الثالثة صباحًا كان بدروم الڤيلَّا يغص بما فيه من حركة ورجال، ولكن دون صوت، وإذا ما تحدث أحد تحدث بصوت شديد الخفوت... وبرغم أن البدروم لم تكن له نوافذ على الطريق، فإن الإضاءة فيه كانت

خافتة... وكان رجال الضفادع البشرية ـ القرش والعريف والمتدين والملازم، أي الفلسطيني والمغربي والمصري واللبناني الذين وصلوا صباح اليوم ـ يقفون حول مائدة صغيرة تتوسط المكان، فُردت عليها مجموعة من الخرائط... وكان نديم ومعه خليفة، يشرحان لهم كل ما يحتاجون إليه من معلومات... كان على كل رجل منهم أن يحمل عبوة ناسفة، وأن يضعها في مكان معين من قاع الحفار... جذب نديم خريطة هندسية تبين تركيب قاع الحفار، وكان قد ذاكرها في مصر حتى حفظها عن ظهر قلب، وراح يشرح لكل منهم المكان الخاص به... كان الرجال يستمعون في صمت وتركيز، حتى إذا انتهى نديم، وجه إليهم ذلك السؤال التقليدي:

ـ حد عنده أسئلة؟

وساد السكون تمامًا، ساد لفترة طالت حتى جثمت على صدر نديم الذي نظر في ساعته ولـم يكن باقيا على موعد بدء الحركة أكثر من خمس دقائق، جاشت نفسه بعشرات الانفعالات، وجاء صوته أجش:

ـ الحفار ده إسرائيل اشترته علشان تذلنا بيه.

عاد الصمت يجثم على المكان إلا من صدى صوت الرجل بين الحيطان العارية:

ـ وحتى لو كانت عايزاه علشان البترول... البترول ده بتاعنا، في أرضنا.

لمح نديم طبقة رقيقة من الدمع في عيني الملازم، فعصفت به الانفعالات فجأة:

ـ أنا عارف إنكم مش محتاجين للكلام ده..........

أرغم نفسه على التوقف عن الحديث، كان انفعاله كالإعصار يكتسح في داخله كل جمود، وها هي اللحظة التي عاش لها وبها ومن أجلها ثلاثة أشهر كاملة تأتي، وها هو الحفار على مرمى حجر من يده... وها هو كل شيء يبدو مكتملًا إلى حد يصعب تصديقه... ابتلع انفعاله وتغلب عليه مع السيجارة التي أشعلها، ثم نفث الدخان فاستعاد نفسه، وعاد يقول بصوت مبلل بدمع داخلي:

ـ أنا عارف إنكم مش محتاجين للكلام ده... بس... أنا لازم أقوله.

في صوت خافت هادئ كأنه الهمس، قال الملازم:

ـ تحيا مصر.

وكان هذا فوق قدرة نديم على الاحتمال، فأشاح عن الرجال خاطيًا إلى بعيد وهو يردد معهم الهتاف:

ـ تحيا مصر.

❊ ❊ ❊

و... و...

وحانت لحظة الرحيل، كان الرجال جميعًا، يرتدون ملابس من تلك التي يرتديها البحارة في كل العالم... وكان عليهم أن يفترقوا في ثلاث جماعات صغيرة تلتقي جميعها عند سفينة الصيد تلك المائلة على رصيف مهجور في أطراف الميناء.

وضع نديم خطة شديدة التعقيد للدخول إلى الميناء، كان يدرك أن توتر الإسرائيليين الذي عاد بعد الهدوء، وراءه ما وراءه... وأنهم الآن سيتحولون إلى وحوش ضارية... ولا بد أنهم وضعوا عيونهم في كل مكان، عند بوابات الميناء وفي مكاتبها وفي داخلها وعلى أرصفتها....

وكان لا بد للرجال من أن يدخلوا الميناء بسلام، ودون أن يلفتوا نظر أشد الناس ذكاء.

* * *

في الثالثة والنصف تمامًا... تسلل نديم مع خليفة من الحديقة الخلفية للڤيلا... قفزا السور في خفة وعبرا الطريق في خطوات قافزة... اختفيا داخل شوارع الضاحية، وراحا يخترقانها حسب خط سير معين، حتى إذا وصلا إلى ناصية عندها صندوق بريد، توقفا أمام الصندوق، نظر كل منهما في ناحية، ثم اندفعا نحو أبواب السيارة المفتوحة التي لم تكن تبعد عنهما بأكثر من خمس ياردات.

بعد عشر دقائق بالضبط، تحركت سيارة سبور من أمام الڤيلَّا مباشرة، وكان يقودها شاب صغير لا بد أن عائلته من الأثرياء، وبجواره شاب آخر ـ خلف الشابين ـ مقرفصًا في الدواسة، كان ثمة شاب ينظر إلى الطريق من خلال مقعدي الشابين، وهو يدل السائق على الاتجاه... كان الشابان، هما الملازم والقرش.

وتسلل المتدين والعريف إلى جراج الڤيلَّا، فتح المتدين النافذة الخلفية للجراج، وأطل منها إلى الخارج... ظل لثوان طالت بعض الشيء، لكنه ما لبث أن قفز إلى الخارج، ومن بعده قفز العريف... انحرفا يسارًا ولزما السير بجوار أسوار القصور الصغيرة حتى نهاية الشارع، وتحت شجرة وارفة تلقي بظلالها الكثيفة على الأرض، كان ثمة سيارة لا يكاد المار أن يراها، فلونها كان في لون الليل أو الظل... ما أن دخلاها حتى انطلقت هي الأخرى.

كانت الآن ثلاث سيارات تسعى في شوارع دكار، وكل منها تأخذ اتجاهًا مخالفًا، وربما كان مضادًا، لاتجاه السيارتين الأخريين.

* * *

وضع نديم نظارته المعظمة فوق عينيه، وراح من مكمنه داخل سفينة الصيد المائلة، يرقب الحفار قدمًا بقدم... في قلب السفينة كان خليفة مشغولًا بتجهيز اللمسات الأخيرة لمعدات الرجال... سمعا صوت خطوات، فقفز خليفة كالفهد من مكانه وهو ينزع من منطقته خنجرًا التمع نصله في الظلام... وتوارى نديم خلف حطام كابينة قيادة السفينة وقد انتزع مسدسه الذي ركب عليه كاتمًا للصوت... أصاخا السمع فإذا الخطوات تقترب، نظر كل منهما في ساعة يده وكانت تشير إلى الرابعة وعشر دقائق... كان القمر محاقًا والظلام دامسًا... بعد ثوان اقتربت الخطوات أكثر، وظهر شبحان يسيران على الرصيف في خطوات طبيعية وثابتة... قبل أن يصلا إلى القارب توقفا، وأشعل أحدهما سيجارة، فتنفس نديم وخليفة الصعداء.

وصل القرش والملازم... وبقي العريف والمتدين.

قال القرش وهو يرتدي ملابس الضفادع البشرية، إنهما كادا يتوهان في هذه الغابة من السفن والقوارب المحطمة... وخف توتر نديم وخليفة وهما يستقبلان العريف والمتدين... في خفة ويسر من فعل هذا آلاف المرات من قبل، ارتدى الرجال ملابسهم ومعداتهم.

راح خليفة يتمم على ملابس كل فرد... فقال في أثناء عمله:

ـ المسافة من هنا لحد الحفار مش طويلة وبس، دي طويلة ومليانة عقبات تحت الميه... وإذا كانت مصر حطت كرامتها في إيدينا، فلازم نفهم قبل كده، إن إيدينا دي هي اللي رفعت رأس مصر في إيلات من كام أسبوع.

شق الأفق البعيد ضوء الصباح الخافت.

وكان الرجال في وضع استعداد على الرصيف... في انتظار الأمر للنزول إلى المياه.

ـ جاهزين يا رجالة؟

هكذا قال نديم عندما هتف الملازم وهو يشير ناحية الحفار:

ـ مش ده الحفار؟

التفتوا جميعًا، والتفت نديم.

كان الحفار هناك بالفعل، في مكانه، تغمره الأضواء، قال نديم:

ـ أيوه هو ده الحفار.

ـ ده بيمشي يا فندم.

اندبت الكلمة في قلب نديم كالنصل الحاد... عاد ينظر للحفار فلم يلحظ أنه يتحرك... هم بالحديث عندما دوت في سماء الميناء صفارة متقطعة لسفينة، قال خليفة غير مصدق:

ـ دي صفارة قاطرة مش مركب يا رجالة، مش كده!

رد الملازم:

ـ ميه الميه.

ـ الصفارة بتقول إنهم ماشيين.

أطلقت القاطرة صفارتها الثانية المتقطعة فصاح خليفة في ضيق:

ـ ده بيقول مع السلامة.

ولم ينطق أحد بعد ذلك بكلمة، ظلوا جامدين في أماكنهم، وهم يشاهدون الحفار وهو يبحر خلف القاطرة مغادرًا ميناء دكار إلى عرض المحيط الواسع.

الفصل التاسع
عميلة اختطاف بارعة

«....... كان لا بد وأن يتم اختطاف إيخمان بأي ثمن، والخروج به من الأرجنتين... ولقد كلفنا هذا كثيرًا من الصراع الداخلي... أما عني، فلقد كان ضميري مستريحًا للقيام بعميلة سرية حتى لو كانت في دولة صديقة».

«إيسار هاريل»
من كتاب:
بين شارع غاريبالدي
اختطاف رودولف
إيخمان

يبدو الحديث الآن وكأنه نوع من السباحة في بحر مليء بالألغام في ليلة كان القمر فيها محاقًا.

الألغام هنا ليست ألغامًا قابلة للتفجير فقط، لكنها ترتفع إلى مستوى نوع من الأسرار التي تولد وتموت في صدور أصحابها، وفي ملفات لا تصل إليها يد إلا للضرورة القصوى، وفي كتمان شديد.

وبرغم هذا فلا مفر من الخوض في الحديث.. ولكن، على حد بالغ... ذلك أن الأسئلة تفرض نفسها فرضًا علينا ونحن نقلب في الأوراق والأقوال والأحداث معًا... نقارن بين ما أتيح لنا من معلومات وما لم يتح، ثم نستنتج في محاولة للاقتراب من الحقيقة بقدر ما نستطيع من جهد... برغم أننا نعلم أن ما سوف نصل إليه لا يمكن أن يكون «إجابة» عن الأسئلة، كما أنه لا يمكن أن يرتفع إلى مستوى «المعلومة» اليقينية... لأنه في البداية والنهاية ليس سوى «استنتاج» أو «اجتهاد».

كما أنه لا بد من التوقف لالتقاط الأنفاس، كما توقف الرجال استعدادًا لمرحلة أخرى وجولة قادمة... ولن يكون توقفنا للراحة أو الثرثرة، بل لرؤية الصورة كاملة والإلمام بها إلمامًا شاملًا.

كان المشهد في فجر يوم ١٩ فبراير عام ١٩٧٠، على هذا الشاطئ الإفريقي البعيد في ضوء فجر باهت يسعى حثيثًا إلى هذا الجزء من كوكب الأرض.. مخيفًا تقشعر له الأبدان، ستة من الرجال تسمروا في

أماكنهم ذاهلين، أربعة منهم يرتدون ملابس الضفادع البشرية السوداء مدججين بالسلاح والمتفجرات فبدوا وكأنهم أسماك متوحشة خرجت من قلب المحيط الذي كان اسمه ذات يوم «بحر الظلمات»... ثم اثنان: أحدهما يرتدي ملابس خاصة تخفي خنجرًا مرهف النصل من هذا النوع الذي يستعمله المحترفون... أما الثاني: فلقد غاب عن المشهد في تيار عاصف من الأفكار... فهو، هو وحده الآن الذي كانت الأسئلة تنفجر في رأسه كمدفع سريع الطلقات في يد مجنون لا يعي... وهو، هو وحده الآن صاحب القرار، ومهما كانت مشاعره أو شكوكه أو انفعالاته، فثمة أرواح مصيرها في كلمة قد تصدر عنه بلا روية فيحقق كارثة.

بدا الحفار على البعد وهو يتبع القاطرة، كالأمل يتبدد في الفضاء، سرى صوت آلات القاطرة المكتوم في سماء الميناء كالهدير البعيد... شبحان يتبع أحدهما الآخر، هدأت العاصفة في المحيط ومرت، فاستكانت مياهه حتى الأفق ككرة بلّورية في عالم مسحور، وجاء صوت نديم مغموسًا في حزن لم يستطع كتمانه:

ـ يلّا بينا يا رجالة.

* * *

كيف خرج الحفار؟

ولم خرج في هذا الوقت بالذات؟!

وما الذي دفع الإسرائيليين إلى التعجيل بالرحيل؟!

هل هي مصادفة؟!

أو أنه حدث مصنوع؟

وإذا كانت المصادفة قائمة كحدث ممكن، فهل يصلح مثل هذا الحدث أن يكون «مصادفة»؟!

كانت كل المعلومات التي تجمعت لدى الرجال في دكار تقول إن العطب الموجود في القاطرة «چاكوب ڤان هيمو كيراك» نتيجة لإبحارها من جزيرة سان ميجل في جو عاصف ـ يستلزم على الأقل أسبوعًا حتى يتم إصلاحه.. وهكذا راح المصريون يعملون بسرعة، ولكن في هدوء وثقة... ذلك أن مصدر المعلومات لم يكن واحدًا، بل كانت ثلاثة مصادر مختلفة، واحد منها من قلب الشركة التي تقوم بالإصلاح... فكيف أبحرت القاطرة وبها ما بها من عطب؟! كيف أبحرت وهي تسحب من خلفها حفارًا يحتاج إلى آلات قوية وسليمة ولا عطب فيها وفي هذا الوقت من السنة، حيث تنتاب المحيط نوبات هستيرية من العواصف والأمواج والرياح تدمر السفن وتتلاعب بها في وحشية.. وإذا كان هذا ممكنًا وهو ـ على المستوى الهندسي ـ ممكن بالقطع.. فلماذا خرج الحفار أصلا قبل أن يكتمل إصلاح القاطرة فيضمنون له السلامة؟! باختصار: هل عرف الإسرائيليون شيئًا؟هل «أحسوا» بالخطر يحوم من حولهم؟ أو أنهم «عرفوا» أن الخطر يهددهم؟

وإذا كانوا قد عرفوا أو حتى أحسوا بالخطر.. فمن الذي أمدهم بالمعلومة أو بالإحساس؟!

إن أحدًا لم يعرف بموعد التنفيذ سوى ثلاثة: اثنين منهم في القاهرة، والثالث يقف الآن على الشاطئ تتقاذفه رياح الفكر بوحشية تعصف برأسه عصفًا وهو يرى الحفار يفلت من بين أصابعه كالقابض على المياه.

ثم... هناك رابع علم أن العملية سوف تتم، وكان لا بد أن يعلم فهكذا جرى العرف وهكذا التقاليد، لكنه ـ أبدًا ـ لم يعلم بموعد التنفيذ... ذلك هو السفير المصري في السنغال.

وإذا كان السفير المصري في أي بلد من بلدان العالم هو المسؤول

عن المصريين في هذا البلد، وإذا كان ممثلًا أيضا لبلاده، فلقد جرى «العرف» أن يأخذ السفير في مثل هذه الحالات خبرًا.

ولقد حدث هذا في زيارة سريعة وسرية قام بها نديم هاشم لمقر السفارة في اليوم السابق، التقى بالسفير الذي كان من هذا النوع من رجال الدبلوماسية المصرية التقليديين.. هو نوع من السفراء الذين تراهم في الأفلام وبين سطور الكتب... رجل أنيق مهذب مثقف مجامل يعرف وزن كل كلمة تخرج من فمه، وهو يتقن عددًا لا بأس به من اللغات... باختصار كان الرجل دبلوماسيًا محترفًا.

كان اللقاء وديًا للغاية في بداية الأمر، حتى إذا عرج نديم على الموضوع بدا التوتر يسود اللقاء، ثم.. وعندما واجهه نديم بما هو مقدم عليه، ثار السفير وغضب.

كان ما قاله السفير: إنهم ـ أي الدبلوماسيين ـ يبذلون في ذلك الوقت بالذات جهودًا مضنية كي يقيموا علاقات حسنة وطيبة نحن في أشد الحاجة إليها مع كل دول العالم... وفي السنغال، في غرب إفريقيا بالذات، كان السفراء المصريون يبذلون جهودًا كبيرة للسير بالعلاقات في طريق بعيد عن الأشواك، خاصة وأن إسرائيل استطاعت أن تقيم مع بعض هذه الدول علاقات متينة بالفعل... ثم بعد كل هذا: «تيجوا إنتو تهدوا كل اللي احنا بنيناه».

ولم يقل نديم شيئًا، أعاد ما طرحه على السفير مرة أخرى... قال: إن المسألة مسألة كرامة مصر وأمن واقتصاد مصر وثروات مصر بل وأرض مصر... وإنه مقدر تمامًا لكل ما يقوله السفير، ولذلك فهو يعده وعد شرف، أن أحدًا لن يعرف أن المصريين هم الذين قاموا بالعملية وهو يلتزم أمام السفير بهذا الوعد، ثم قال أخيرًا وقد شعر أن السفير لم يقتنع:

ـ وعلى كلٍّ دي أوامر يا فندم.

وغادره نديم، وكان السفير لا يزال متذمرًا.

وحتى رجال الضفادع البشرية: خليفة جودت، والقرش والعريف، والمتدين ثم الملازم الذي كانت عيناه الآن تبرقان ببريق يصعب وصفه... حتى هؤلاء الرجال لم يعرفوا «هدفهم» ولا موعد التنفيذ ولا ما سيفعلون إلا منذ ساعة وبعض الساعة، وهم منذ أن عرفوا لم يغب أحدهم عن نديم أو أحد من زملائه.

هل وصل تعليق وزير الداخلية السنغالي للسفير السوري والذي ذكره سليم أبو فودة لنديم هاشم في جلستهما تلك في حديقة قصره المطل على المحيط، هل وصل هذا التعليق إلى الإسرائيليين؟ هل تحدث وزير الداخلية في هذا الموضوع، مع أحد غير السفير السوري؟ وهل تحدث السفير السوري مع أحد غير سليم أبو فودة؟ أو أن الإسرائيليين استطاعوا ـ عبر ثغرة ما ـ أن يصلوا إلى استنتاج دفعهم دفعًا إلى الفرار؟

هل باحت إليزابيث ستيل أو نورمان ويليامز، ولو بغلطة في الحديث بمهمتهما إلى ديفيد ليفنجر وسارة جولد شتاين بعد اختطافهما وتحت تهديد وضغط؟

أسئلة تجر أسئلة تولد أسئلة بلا نهاية.

ولقد كان المطلوب معرفة الحقيقة، بل لا بد من الوصول إليها... لكن نديم هاشم كان يعرف متى يركز تفكيره في أمر ويزيح أمرًا آخر مهما كانت خطورة شأنه إلى زاوية نسيان مؤقت.. لأنه كان لا بد له من اتخاذ قرارات بعقل ثلجي، ولا بد من اتخاذ هذه القرارات في زحام حركة بدأت على الفور بعد ثوان من جملته تلك التي قالها للرجال في حزن حاسم... بدأت الحركة على حسب خطة عدلت قليلًا نتيجة لتغيير الوقت لإعادة الرجال

إلى القاهرة في نفس اليوم، رجلا وراء الآخر، ودون إثارة أي نوع من أنواع الشكوك أو حتى الانتباه... فعلى مدار عشر ساعات غادر رجال الضفادع البشرية مطار دكار بجوازات سفر غير التي جاءوا بها... ووسط التفكير في إعادة المتفجرات أو نقلها أو التخلص منها أيها أفضل، ثم بحث الخطط والخطط البديلة مع الباشا والمواطن إبراهيم سيد فرج الله الذي كان الآن يستعد لمغادرة السنغال... ثم أولًا وقبل كل شيء كان على نديم هاشم أن يجري اتصالًا بالقاهرة لإبلاغهم بالنبأ.. فهذه هي بالضرورة مهمته الأولى.

* * *

دق جرس التليفون في غرفة طاهر رسمي فانتفض طاهر وعزت معًا وكأنهما لدغا... هبَّا واقفَيْن برغم أن التليفون كان في متناول يد أي منهما، التقت عيونهما في نظرة صارخة.. هذه هي اللحظة التي انتظراها لساعات بعد ساعات، ومنذ أن أشرقت الشمس على القاهرة وقبل أن تشرق على دكار بثلاث ساعات وهما جالسان صامتان منتظران، لا ينطقان حرفًا، ولا يكفان معًا عن التدخين برغم أن عزت لا يدخن... وطوال ست ساعات طويلة ومضنية لم يدق التليفون سوى مرة واحدة، وكان المتحدث هو المدير... ألقى أمين هويدي تحية الصباح على طاهر وكان صوته مختنقًا ببقايا الأنفلونزا، ثم سأله عن الأخبار، فقال طاهر:

ـ مفيش.

ـ أنا في المكتب.. إبقى اطلبني.

ـ وانتهت المكالمة، وعاد الصمت يجثم كسحابة ثقيلة بلا مطر... ثم ها هي دقة الجرس الثانية تمزق حتى الذكرى القريبة، قبل أن تنتهي الدقة اختطف طاهر سماعة التليفون اختطافًا ووضعها على أذنه ولم يقل شيئًا، بعد ثانية واحدة قال:

ـ تعال لي فورًا.

هذا هو الوقت بالضبط، وها هي الأنباء تأتي إليه.. بالفشل أم بالنجاح، أعاد السماعة ثم قفز من مكانه متسائلًا:

ـ يا ترى عملوها؟

في هدوء بارد قال عزت بلال:

ـ ليه لأ؟

التفت إليه طاهر:

ـ فيه مفاجآت واحتمالات!

بنفس الهدوء رد عزت:

ـ يبقى خيرها في غيرها.

في عنف صاح طاهر:

ـ لأ. مش ممكن. نديم أكيد عملها.

ـ احتمال.

كاد طاهر أن ينفجر من أسلوب زميله وصديقه الثلجي هذا. هم بالتقدم نحوه عندما سمع دقة على باب الغرفة فاندفع إلى الباب وفتحه بنفسه، واختطف الرسالة، وأغلق الباب وعاد إلى المكتب، وكان عزت في انتظاره... وكانت هذه هي اللحظات الوحيدة التي اجتاح فيها الانفعال ملامح عزت، الذي انكب مع زميله يقرآن الرسالة الشفرية معًا، ويحلان الشفرة فور القراءة في رأسيهما... انتهيا من القراءة ولم ينظر أحدهما إلى الآخر. قرآ الرموز فعرفا الحقيقة ولم يَفُهْ أحدهما بكلمة... فقط خُيل لعزت بلال ـ هكذا قال فيما بعد مازحًا ـ أنه كان يسمع دقات قلب طاهر وهي تصرخ غضبًا.

فجأة قال طاهر:

ـ يبقى نستعد للخطة التانية.

أكمل عزت:

ـ والتالتة معاها.

وعلى الفور ـ وبقدرة فذة على تجاوز أية عقبة ـ بدأ الرجلان العمل، فردا الخرائط ورتبا الأوراق، ووصلت حرارة المناقشة إلى ذروتها في ثوان..

كان أمام الحفار حتى يصل إلى رأس الرجاء الصالح «كيب تاون» ـ في جنوب إفريقيا، حيث يصبح هناك أبعد ما يكون عن الأيدي المصرية ـ عدد هائل من المواني التي لا بد له أن يدخل ـ على الأقل ـ إحداها، والتي لا بد وأن يضرب فيها. كانت هناك كوناكري في غينيا، فري تاون في سيراليون، منروفيا في ليبيريا، أبيدچان في ساحل العاج، أكرا في غانا، بروتونوفو في توجو... ولاجوس في نيجيريا... ثم يبقى احتمال ثامن وأخير، وهو أن يدخل الحفار ميناء بوانت نوار في الكونغو برازڤيل.

وفي دقائق طالت بعض الشيء ناقش الرجلان كل ما يمكن من احتمالات ليجدا نفسيهما يعودان إلى نقطة البداية... وهي أن الحفار لا بد وأن يدخل أبيدچان بالذات.

وبالتأكيد فلقد كانت هناك أسباب أهمها تلك العلاقات الوثيقة التي كانت تربط حكومة ساحل العاج بالحكومة الإسرائيلية... وكانت إسرائيل في هذه الأيام بالضبط، على وشك افتتاح فندق جديد في أبيدچان اسمه «لاڤوار» كانت قد بنته عنوانًا للصداقة بين البلدين... وكان معنى هذا أن دخول المصريين إلى أبيدچان سيكون محسوسًا ومصحوبًا بعلامات استفهام ومصاعب بلا حدود.

وثاني هذه الأسباب هو تلك الزيارة المتوقعة في خلال عشرة أيام لرواد الفضاء الأمريكيين، وبالطبع، فلسوف تكون هناك عيون مدربة للمخابرات المركزية الأمريكية في المدينة كلها، مما سيساعد بالقطع على حراسة الحفار ولو بطريق غير مباشر.

أما السبب الثالث فهو القاطرة «آلبي» التي أخذت حاجتها من الوقود والمياه في غاطس ميناء دكار، والتي كان من المفروض أن تسحب الحفار من أبيدچان إلى البحر الأحمر بدلًا من القاطرة «چاكوب ڤان هميو كيراك»... ولقد جاءت الأنباء من هناك، من الصحفية الهولندية «لونابايرن» بالتحديد، تؤكد وصول هذه القاطرة «آلبي» وتقول إنها تعرفت على قبطانها وبعض رجالها، وإن القاطرة رست على رصيف أحيط بحراسة تبدو غريبة... ثم تساءلت لُونا في النهاية إن كانوا متأكدين أن القاطرة المطلوبة هي «چاكوب ڤان هيمو كيراك» وليست «آلبي».

كان أهم ما في هذه الخطة الثانية، هي: لونا بايرن.

وكان أهم ما في هذه الخطة الثالثة، هي البعثة السينمائية التي تضم الفنانة الشهيرة «دلال شوقي».

كانوا منغمسين في العمل تمامًا عندما توقف عزت متسائلًا:

ـ مش حاتقول للمدير؟

وصمت طاهر رسمي، لا ترددًا، ولكن إشفاقًا على الرجل الذي غادر فراش المرض لأول مرة صباح اليوم... لكنه سرعان ما حسم الأمر، رفع سماعة التليفون، طلب المدير، جاءه صوت أمين هويدي ملهوفًا:

ـ إيه الأخبار يا طاهر؟

ـ الشيخ سافر.

ران الصمت لثوان من الصعب أن تحسب، جاء بعدها صوت هويدي حاسمًا:

ـ استمر.

وكان في هذا الكفاية... كل الكفاية.

* * *

منذ البداية تيقن طاهر رسمي من أن البروفسور إيزاك ديستان هو «ديڤيد ليڤنجر» رجل المخابرات الإسرائيلية الذي تخصص، منذ سنوات طويلة، في أعمال الخطف والعنف... والذي لم يكف برغم بلوغه الستين عن المشاركة في العمليات المهمة التي تقوم بها المخابرات الإسرائيلية... المشاركة بالتخطيط، والاشتراك أحيانًا في التنفيذ.

وبرغم أن «سارة جولد شتاين» أو «ليلى مسعود» أو «باربرا هوڤمان» تلميذته، فإنها، استطاعت أن تثبت جدارتها في القيام ببعض العمليات الصعبة وحدها، لذلك فهما لم يشتركا معًا في عملية واحدة من قبل... لم يحدث أن اشتركا في عمل من تلك الأعمال التي تقوم بها إسرائيل لصالحها أولًا ثم لحساب بعض الحكومات المعينة في أحيان أخرى...

فلماذا يشتركان معا في هذه العملية بالذات؟! كانت الإجابة الطبيعية تقول: لأنهم ـ أي الإسرائيليين ـ مصممون على دخول الحفار إلى البحر الأحمر بأي ثمن لتضطر مصر لضربه بالطيران فتنفذ على الفور خطة ما في إحدى خزائن الموساد...

وهو عندما قرر ألا يواجه العنف بالعنف، لم يتخذ قراره هذا خوفًا أو تجنبًا لمعركة... بل بحثًا عن أكثر الأوضاع مثالية لتدمير الحفار... ولقد كان واثقًا أن الإسرائيليين ـ مع الهدوء الذي أحاط رحلة الحفار

حتى الآن ـ سيقومون بعمليات استفزازية لجس النبض واختبار ما يحيط بهم من أجواء... إما لهذا، وإما لفرط العصبية التي جاءته الأنباء تقول إنها أصابتهم في الأيام الأخيرة في دكار بشكل واضح.

لذلك... فهو عندما استشعر الخوف على «إليزابيث استيل» و«نورمان ويليامز» ـ أي ليز ونورمان ـ قرر أن يفوت الفرصة على الإسرائيليين بأي ثمن... كان يعلم أن سارة سوف تصل إلى دكار على ظهر الحفار «كينتنج»، وأنها إذا ما التقت بأستاذها «ديفيد ليفنجر»، فلسوف يصنعان شيئًا تجاه الشابين الإنجليزيين، وعلى هذا فلقد أبرق إلى «علي» ذلك الشخص الذي استطاع نورمان أن يحقق معه اتصالًا في اليوم الأول لوصوله إلى دكار ـ يطلب منه أن يبلغ ليز ونورمان بألا يقاوما أي تصرف من بروفسور إيزاك ديستان الذي غالبًا ما سيصحب معه هذه المرة فتاة اسمها «باربرا هوفمان»... ومهما حدث، فإن المطلوب منهما الاستسلام الكامل والتصرف كأي شابين إنجليزيين، مهما كانت الضغوط، وأن يفعلا كل ما يطلب منهما، وألا يبوحا بكلمة عن الحفار «كينتنج»... ثم لا بد لهما أن يثقا ثقة بلا حدود، أنهما سيكونان دائمًا في حماية المصريين.

* * *

وصلت البرقية في مساء اليوم الثاني عشر من شهر فبراير (شباط)، وهو نفس اليوم الذي وصل فيه رجال الضفادع البشرية واحدًا بعد الآخر... كانت الساعة تقترب من السابعة مساءً، وكان هذا هو موعد عودة ليز ونورمان إلى الفندق على حسب الاتفاق معهما... لم يكن هناك وقت أمام الشاب الأسمر الرياضي الجسد ذي الوجه الباسم أبدًا كي يتصل بأحد رجاله الحارسين لليز ونورمان في كل خطوة وكل مكان

على حسب جدول شديد التعقيد... لذلك فلقد قرر مع إحساسه بخطورة الأمر أن يتصل بهما فورًا... وبنفسه.

لم يكن «علي» يملك سيارة في حقيقة الأمر، كان «المفروض» ألا يملك سيارة... وكان منذ يومين قد أخذ إجازة عاجلة من عمله لأمر هام حدث في القبيلة يستلزم سفره... لذلك، فلقد كان حريصًا ألا يراه أحد وهو يستقل سيارة أجرة، ويستحث السائق على الانطلاق بأقصى سرعة يستطيعها.

في السيارة التي راحت تنهب شوارع دكار في هذا الوقت من الغروب، كان «علي» يفكر في شيء واحد: كيف يتصل بهما دون أن يكسر حاجز الأمن ودون أن يراه أو يشعر به مراقبوهما من الإسرائيليين؟ كان في عجلة من أمره، وكان على حق... فما إن شارفت السيارة شارع الفندق الذي ينزلان فيه، حتى كان الأوان قد فات.

غادر السيارة وانتظر حتى انصرفت... ووقف على البعد يرقب عملية اختطاف بارعة تتم قبل غروب الشمس بقليل في وسط المدينة وشوارعها المزدحمة في ذلك الوقت من اليوم.. دون أن يشعر مخلوق أو يحس إنسان.

* * *

رغم أن الفندق الذي نزل به نورمان وليز كان متواضعًا بما يناسب ميزانيتهما بالطبع، إلا أنه - في يوم نزولهما فيه - شهد رواجا ملحوظًا... فبعد وصولهما بساعة جاء إلى الفندق رجل يوناني، ثم بعد دقائق جاء محام أمريكي رقيق الحال، ومن بعدهما جاء عروسان من الوطنيين متوسطي الحال يريدان قضاء أيام من شهر العسل في دكار... سر صاحب

الفندق ونشط فنشط عماله لتوفير كل سبل الراحة للزبائن، الذين بدوا بوضوح، غافلين عن كل ما يدور حولهم، مهتمين بأشياء أخرى.

كان اسم اليوناني في جواز سفره «خريستو ماتياس»، أما مهنته فهي «ميكانيكي»، وبدا للجميع منذ لحظة وصوله أنه من هذا النوع من الرجال الذين ينتقلون في الدنيا الواسعة من بلد إلى بلد بحثًا عن عمل سرعان ما يتركه إلى عمل آخر لسبب غير مفهوم.

وعندما وصل خريستو إلى الفندق، تحدث في التليفون من الاستعلامات، وكان صوته عاليًا وواضحًا ويتحدث الفرنسية بلكنة يونانية، كان يسأل عن أحد أقربائه الذين يعملون في إحدى الشركات، ولما علم أن قريبه على سفر ليومين أو ثلاثة، قال إنه يقيم في الفندق الفلاني، وإنه لن يغادره حتي يصل ويتصل به.

لكنه بين الحين والحين كان يجري مكالمة خافتة الصوت لا يسمعها من التصق به، ولكنه دائمًا ما يختمها بصوت عال قائلًا إنه في الفندق لن يبرحه... ثم يعود إلى المكان الذي اختاره في مدخل الفندق ليجلس فيه طوال وقته، وقد كان مكانًا مناسبًا لأن يرى منه كل من يدخل وكل من يخرج، وكل من حوله.

أما المحامي الأمريكي رقيق الحال فكان اسمه «سيمون ڤارتنيان»... كان يبدو محاميًا في كل حركة من حركاته، وبرغم رقة حاله البادية فإنه كان أنيقًا بشكل يلفت النظر، وكان يحمل حقيبة أوراق غريبة الشكل... لا يحدث أحدًا ولا يتحدث إليه أحد، لكنه عرف في الفندق على أنه جاء من الولايات المتحدة لتصفية بعض الخلافات بين الشركة التي يمثلها في ولاية بنسلفانيا وبين بعض الشركات في دكار.

أما الفتى السنغالي وعروسه، فلم يكن لهما موعد ولم تكن لحياتهما

سمات، كان سعيدًا بعروسه كما كانت هي سعيدة به، يخرجان ويدخلان إلى الفندق عشرات المرات في الساعة الواحدة... يمكثان في غرفتهما لدقائق، ثم يغادرانها وهما يضحكان... يحدثان الجميع، ويلقيان التحية على كل من يلقاهما، ثم يختفيان أو يبقيان.

وكان هذا كله طبيعيًا للغاية، لولا أنه لوحظ أن مستر ڤارتنيان المحامي، كان لا يغادر الفندق إلا بعد أن يغادره نورمان مع ليز، ولا يعود إليه إلا بعد عودتهما... كما لوحظ أن خريستو ماتياس لم يكن يغادر مكانه في مدخل الفندق إلا إذا خرجت ليز ونورمان، وأنه يعود إليه بعد عودتهما بثوان أو قبلهما بقليل.

كان واضحًا، ومنذ البداية، أن بروفسور إيزاك ديستان أو ديڤيد ليڤنجر، أصبح يشك في ليز ونورمان شكًا شديدًا... ولذلك فلقد كانا متبوعين في كل خطوة ومراقبين مراقبة شديدة الصرامة... وأصبح واضحًا أمام المصريين بجلاء أن الإسرائيليين غير حريصين على إخفاء الرقابة، بل على العكس، ربما كانوا حريصين على إعلانها وبشكل مستفز مليء بالتحدي.

ولا بد لنا أن نعترف أن الشابين الإنجليزيين كانا ذكيين إلى حد كبير... فلقد راحا يتصرفان ـ وقد شعرا بالقطع بكل ما حولهما ـ تصرفات من لا يشعر على الإطلاق بما يحيط به... كان البروفسور يفاجئهما فيرحبان به، ويصحبهما في جولاتهما فلا يعترضان ولا يظهران أي تذمر، ويدلهما على الأماكن التي يجب أن يزوراها فيطيعانه... لكنه لم يكف لحظة عن تحريضهما على زيارة مدينة «سانت لويس» التي تبعد عن دكار ببضعة مئات من الكليومترات... وهي تقع في أقصى شمال الساحل السنغالي، فهي مدينة أثرية ولها أهمية تاريخية، ولأنها كانت أول ميناء يبنيه الفرنسيون منذ ثلاثمائة عام على هذا الشاطئ، بالتحديد، في عام

١٦٥٩، وكانوا يريدون أن يصنعوا منها المركز المالي والثقافي في جميع أنحاء هذا الغرب الإفريقي.

كان بروفسور ديستان يلح، أما ليز ونورمان فكانا يعتذران لعدم وجود ميزانية تكفي لرحلة طويلة كهذه... وفي ذلك اليوم، كان بروفسور ديستان يتجول معهما في إحدى الأسواق الشعبية التي عشقها الشابان لما فيها من بساطة وطبيعية، وكان يتحدث عن «سانت لويس» ربما للمرة المائة، عندما قالت له ليز فجأة، وكان الأمر قد فاض بها:

ـ بروفسور ديستان... ألا ترى أنك أهملت عملك كثيرًا.

انطلقت من عيني البروفسور نظرة أحست بها ليز وكأنها رصاصة تخترق رأسها، وأحست بالخوف يعربد في كيانها، وزاد من خوفها. أن البروفسور غمغم بصوت بدا كأنه لرجل آخر:

ـ يبدو أنك على حق يا آنستي... ولا بد لي أن أعطي عملي اهتمامًا أكبر بالفعل.

أوحت لهجته بنذير غامض، وما لبث أن أحنى رأسه تحية وقال:

ـ إلى اللقاء.

وغاب في زحام السوق، والتصقت ليز بنورمان وهي تستشعر رجفة تسري في جسدها. وضحكت امرأتان سنغاليتان كانتا تشتريان بعضًا من الخبز الأوربي، وهما ترقبان الشابين وقد أحاط كل منهما الآخر بذراعه وكأنه يحتمي به من خطر غامض... همست ليز:

ـ إني خائفة.

وقال نورمان:

ـ هيا إلى الفندق.

ولقد ظلا متلاصقين طوال الطريق، لم يترك أحدهما الآخر، ولم يَفُهْ أحدهما بكلمة... وإن كان كل منهما مستغرقًا في دوامة من التفكير... اشتريا قليلا من الفول السوداني وراحا يتعشيان به وهما في الطريق إلى الفندق، حتى إذا اقتربا من الشارع الرئيسي، الذي إذا ما عبراه إلى الشارع الموازي له خلف مجموعة من العمارات العتيقة ذات الطابع الفرنسي، وصلا إلى الفندق... توقفا على الرصيف، ألقيا ببصرهما هنا وهناك، كانا يستشعران ذلك الخطر الغامض يحوم حولهما في الجو.. غير أن نورمان، قبل أن يخطو إلى أرض الطريق، غمغم كمن يطرد عن رأسه أشباحًا:

ـ إني أثق في المصريين.

هتفت ليز وهي ترفع رأسها إليه باسمة:

ـ كدت أقول لك ذلك ياحبيبي.

وكانت باسمة، فابتسم... ثم، وكأنهما توصلا إلى قرار، انتابتهما السعادة فجأة، فانطلقا يعبران الشارع عدوًا وهما يضحكان، ثم كان عليهما أن يختصرا الطريق إلى الفندق، كانا في عجلة من أمرهما يريدان الاختلاء ببعضهما، دلفا إلى ممر ضيق نصف مظلم فيما بين عمارتين من تلك العمارات الفرنسية الطراز العتيقة... اندفعت ليز تجري بكل قواها وهي تضحك في سعادة، واندفع نورمان خلفها يريد أن يلحق بها... تردد صدى ضحكاتهما بين الجدران الشاهقة، ثم... فجأة، توقفت الضحكات... وتبدد الصدى.

على الطرف الآخر من الممر، كان بروفسور إيزاك ديستان في

انتظارهما... كان باسمًا، وكانت ابتسامته ميتة، وكان يتقدم منهما، وكانت خطواته ثقيلة، ثم ما لبث أن توقف على بعد أمتار قليلة وهو يقول:

ـ يا لها من مصادفة.

ارتدّت ليز إلى صدر نورمان في عنف، لم تكن خمس دقائق قد مضت منذ أن غادرهما في السوق، أحاط نورمان كتفي حبيبته بذراعه وهو يتمتم في صوت وجل:

ـ بروفسور ديستان؟!

ـ لقد كنت أبحث عنكما.

هتفت ليز وكأنها طفلة تبدي تذمرها:

ـ لكنك لم تغادرنا إلا منذ دقائق.

ـ مفاجأة.

ـ لسنا في حاجة إلى مفاجآتك بروفسور ديستان.

ـ رحلة.

ـ ولا ينبغي أن نذهب إلى رحلات.

ـ سانت لويس.

وكأن الأمر قد فاض بليز، فلقد اندفعت تخطو نحو البروفسور دون أن تنتبه إلى الشبح الذي كان يخطو إلى الممر من خلفها، كانت غاضبة، وكانت كلماتها سريعة متلاحقة:

ـ بروفسور... لقد سبق أن عرضت علينا هذه الرحلة إلى سانت لويس مرات، فاعتذرنا لك لقلة نقودنا... ولست أدري ما الذي تر..........؟

توقفت ليز عندما أحست بحرارة جسد يقترب منها، كان الشبح قد اقترب منها، التفتت في عنف فإذا وجه به مسحة من جمال شرقي وشعر كأنه الليل ينسدل على الكتفين تتخلله شعيرات بيضاء مضيئة... ظن نورمان أن الفتاة تريد أن تعبر الممر فأفسح لها الطريق متمتمًا:

ـ عفوًا.

لكن الفتاة لم تتحرك... وقال البرفسور في صوت كحد سكين:

ـ نسيت أن أقدم لكما مس هوڤمان من بوسطن.

هم نورمان بتحية سارة جولد شتاين عندما استطرد البروفسور:

ـ إنها صديقة قديمة التقيت بها مصادفة بعد أن غادرتكما بثوان... وهي تملك سيارة فاخرة كانت لزوجها الغني قبل أن يموت، كما أنها تدعوكما لزيارة سانت لويس ـ دون أي مقابل ـ والنزول في ضيافتها في قصرها الهائل وسط مزارع الفول السوداني.

قالت ليز وكانت على وشك البكاء:

ـ كل هذا حسن ولكن...

ولكن ليز توقفت عن الحديث أمام تلك النظرة الوحشية التي انطلقت من عيني سارة جولد شتاين، كانت نظرة تشع نوعًا من البريق الشيطاني. وأدرك نورمان ما الذي يحدث تمامًا، فضغط في رفق على ذراع صديقته وهو يقول:

ـ مس هوڤمان، إنه ليسعدنا حقًا أن نلبي دعوتك ولكن...

ـ هيا بنا.

هكذا قاطعته سارة جولد شتاين وهي تومئ نحو المنفذ الآخر للممر.. فصاح نورمان:

ـ مهلًا.. لقد كنت أقصد......

ولم تمهله سارة هذه المرة أيضًا كي يكمل حديثه، كانت تعلق حقيبة يدها في كتفها الأيمن وقد وضعت يدها داخل الحقيبة التي دفعتها الآن بمقدمتها نحو الشابين اللذين تراجعا إلى الخلف حتى كادا يلتصقان بالحائط... وجاءت كلماتها قاطعة باترة:

ـ استمعا إليَّ جيدًا، فليس لدينا وقت نضيعه... إن في هذه الحقيبة مسدسًا صغيرًا ركب على ماسورته جهاز كاتم للصوت، وعلى طرفي الممر حراس أشداء لن يسمحوا لأحد بالمرور قبل أن نغادر نحن هذا المكان، وإذا ما انطلقت من المسدس رصاصة إلى صدر أحدكما، فلن يسمع صوتها أحد، ولن يشعر إنسان بما حدث إلا بعد أن نكون قد غادرنا المكان بزمن... فهل تطيعان؟

كانت ساقا ليز الآن ترجفان، وبدا الخوف على نورمان وهو يلتفت نحو إيزاك ديستان:

ـ بروفسور ديستان.. لقد كنت أظن أننا أصدقاء.

ضحك ديڤيد ليڤنجر في برود قائلًا:

ـ ولهذا أدعوكما لرحلة ممتعة.

همَّ نورمان بالحديث لكسب مزيد من الوقت فجاءه صوت سارة صارمًا:

ـ تحركا.

وكان المشهد في الشارع التجاري المزدحم في مثل هذا الوقت من الغروب عاديًا للغاية، مجموعة من الأوروبيين يركبون سيارة كانت في انتظارهم.. كانت السيارة معروفة تمامًا لأهل دكار.. وكان الذي يقف

إلى جوارها هو صاحبها «بيير فرانسوا»... فمن من أهل دكار لا يعرف بيير فرانسوا؟!

أغلب سكان دكار يعرفونه... بل إن بعضًا منهم كان يلقي عليه التحية وهو واقف في الانتظار... حتى «علي» الذي يراقب المشهد منذ بدايته، والذي أدرك ما يحدث، ولاحظ الحارس الذي يقف عند مدخل الممر... حتى إذا ما تحركت المجموعة في الداخل تحرك الحارس خلفهم وتبعه «علي» في خطوات واثقة تمامًا... كان «علي» يعرف «بيير فرانسوا» ربما أكثر من غيره من أهل السنغال... دلف إلى الممر ببطء كعابر سبيل لا يشغل باله شيء، وعندما عبر الممر كانت السيارة تبتعد وسط زحام السوق، وكان بيير فرانسوا هو الذي يقودها بنفسه... وكان «علي» يعرف تمامًا إلى أين هم ذاهبون، فلم يقلق، ولم يكن الأمر ليكلفه أكثر من مكالمة تليفونية.

* * *

في منتصف الطريق ما بين دكار وسانت لويس، يقوم قصر منيف بني منذ حوالي قرن من الزمان وسط مزرعة خصبة من مزارع الشمال القريبة من نهر السنغال... بنى هذا القصر ثري فرنسي كان اسمه «دانيال فرانسوا»... يقول التاريخ السنغالي إنه بدأ حياته في المنطقة بالاشتراك في اصطياده الرقيق وتصديره إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وجنى دانيال فرانسوا ثروة طائلة من وراء تجارة الرقيق، اشترى بها تلك المزرعة الهائلة، وبنى في وسطها ذلك القصر المنيف الذي يحاكي قصور أغنى أغنياء فرنسا... وعندما مات الرجل ورث ابنه «أرمان فرانسوا» ضيعته تلك الشاسعة وأملاكه وقصره، لكن أرمان كان مختلفًا عن أبيه تمامًا... كان صديقًا للسنغاليين يعتبر نفسه سنغاليًا بالموطن، فرنسيًا بالانتماء... وعندما استقلت السنغال عام ١٩٥٨ فضل الرجل البقاء في السنغال،

كانت السن قد تقدمت به فمات بعد الاستقلال بقليل، ليرث أملاكه ولده «بيير فرانسوا».

كان بيير فرانسوا منذ حداثته ولدًا فاسدًا متغطرسًا، كان يقضي أيامه في باريس ينفق في بذخ ويصادق ألوانًا من البشر، كان يدعوهم أحيانًا إلى ضيعته تلك في منتصف الطريق فيما بين دكار وسانت لويس، ولم يعرف أنه اختلط أبدًا بالإفريقيين... فأطلق عليه الوطنيون هناك، لقب: «المتغطرس».

ولقد رأى «علي» المتغطرس وهو يقود السيارة بمن فيها في ثقة من يعلم أن كل شيء على ما يرام... اختفت السيارة عن نظره فابتسم وهو يسرع الخطى نحو أقرب تليفون استطاع أن يصل إليه، كان يعلم أن رسالة طاهر رسمي - لم يكن يعرف اسمه بالطبع - لن تصل الليلة إلى الشابين الإنجليزيين، فأراد أن يطمئنهما... ولقد تمت المكالمة التليفونية بسرعة، كان يتحدث الفرنسية بالطبع، وكان آخر ما قاله:

- أنهما لن يستطيعا رؤيتي الليلة... ولذلك فإني أريدهما أن يطمئنا تمامًا، وأن يشعرا أني دائمًا هناك.

ثم وضع السماعة، ومضى مطمئنا.

* * *

كان قصر مسيو فرانسوا من ذلك النوع الذي تحيط به حديقة مترامية الأطراف يجوبها طوال الليل عدد من الحراس المسلحين، وعدد آخر من الكلاب المدربة... وبرغم ما فعله «علي»، فإن الليلة كانت عصيبة في بدايتها على ليز ونورمان... ذلك أن رسالة «علي» لم تصلهما إلا بعد ساعة كاملة من وصولهما إلى القصر... وعندما وصلت الرسالة كانا قد بلغا درجة من الإرهاق جعلت «حامل الرسالة» يشفق عليهما ويشفق

منهما في نفس الوقت... ولم تمكث سارة جولد شتاين وديڤيد ليڤنجر في القصر طويلًا... مكثا مع الشابين في حوار ناري ملتهب... بدأت سارة الحوار بعدما دخل الجميع إلى بهو القصر، وعبروه إلى غرفة من تلك الغرف التي انقرضت ولم تعد تظهر إلا في الأفلام التاريخية... وعند بوابة القصر كان عدد لا بأس به من الخدم في استقبالهم، أما بيير فرانسوا نفسه فكان على رأس مستقبليه كلب ضخم الجثة من هذا النوع الذي توحي مجرد ملامحه بوحشية بلا حدود... ومنذ تلك اللحظة، لم تشاهد ليز ولا نورمان مسيو فرانسوا دون هذا الكلب الذي يلازمه كظله.

كانت الغرفة التي اقتيدا إليها مفزعة، امتلأت حيطانها بأنواع مختلفة من الأسلحة التي كانت تتراوح ما بين بنادق صيد كبيرة وكلابات وكلبشات وقيود وسلاسل ومعدات صيد ورؤوس حيوانات متوحشة... لم يكن الأمر في حاجة إلى شرح، فهذا المتحف، أو هذه الغرفة، كانت تعرض في برود قاتل، تلك الأدوات الوحشية التي كان الأوربيون يصطادون بها العبيد... وما أن استقر الأمر بهم في الغرفة، حتى سار مسيو فرانسوا إلى ركن منها واختار مقعدًا كان واضحًا أنه المفضل لديه، فجلس، وبجواره جلس كلبه الهائل.

قالت ساره فجأة:

ـ إننا نعرف أنكما من الجيش الجمهوري الإيرلندي.

ردت ليز في تحد:

ـ وماذا في ذلك؟

ـ أعضاء هذا الجيش متعاطفون هذه الأيام مع العرب.

ـ هذا حقيقي.

ـ إذن فأنتما مناهضان للسامية.

ـ هذا غير صحيح.

ولساعة كاملة دار الحوار في هذا الفلك، كان واضحًا تمام الوضوح أن سارة جولد شتاين لا تعبأ بأن تعلن أنها إسرائيلية، ولم يكن هذا بالطبع غباء منها، بل كان نوعًا من الذكاء المدروس... فلو أن الشابين كانا يتعاونان مع العرب ـ وهذا ما كان يبدو أن سارة موقنة منه بأي شكل من الأشكال ـ فها هي فرصة ذهبية لإبلاغ المصريين رسالة تقول إن إسرائيل ليست غافلة، وإنها على استعداد لخوض المعركة مهما تكن شراستها... وإن لم يكونا ـ وهذا احتمال كان واردًا لديها دون شك ـ فهي رسالة أيضًا لمثل هذا النوع من الشباب الذي كان تعاطفه مع القضية العربية، أصبح يسبب صداعًا مريرًا لإسرائيل في كل أنحاء العالم.

وهكذا، تم تبادل القذائف الكلامية لساعة كاملة، أثبتت فيها ليز أنها تصلح لأن تكون ممثلة من طراز فريد... ذلك أنها تولت مناقشة سارة منذ البداية فلزم نورمان الصمت، ثم إنها حولت الأمر في براعة بدت سذاجة إلى قضية إنسانية، وراحت تقارع الحجة بالحجة. لا تخفي رأيها في أن إسرائيل تهدد من حولها من جيران، تحتل أراضيهم بالقوة... ثم...

ـ ثم فيم كل هذا، فيم هذا الاختطاف تحت تهديد السلاح؟! ولماذا؟ ولأي سبب ونحن في أرض بعيدة عن إسرائيل وعن العرب معًا؟ أرض لا يرى الإنسان فيها عربيًا واحدًا.

بعد أن مضت تلك الساعة الملتهبة بدا واضحًا أن «سارة جولد شتاين» قد وصلت إلى طريق مسدود، وأن اتخاذها لقرار ما أصبح صعبًا، برغم أنه حتمي... تبادلت النظرات مع ديڤيد ليڤنجر الذي كان قد اتخذ لنفسه مكانًا في طرف الغرفة وراح يدخن في صمت.. ثم التفت نحو بيير فرانسوا الذي كان يحتسي كأسه ويداعب كلبه... وتبادلت معه نظرة سريعة رفع بيير على أثرها كتفيه كمن يقول: «كما يحلو لكِ».. ثم بدا وكأن سارة قد استقر رأيها، فالتفتت نحو ليز ونورمان قائلة:

ـ ستكونان في ضيافة مسيو فرانسوا ليوم أو يومين، ولست في حاجة لأن أحذركما من أمرين، الأول: أن البيت محاط بحراسة من نوع لا يستطيع أحد اختراقه... أما الأمر الثاني: فهو أنكما لو فكرتما في إبلاغ السلطات هنا أو إثارة أي نوع من أنواع المتاعب لمسيو فرانسوا، أو تفوهتما بكلمة عما حدث... فلن تريا بلدكما مرة أخرى.

ثم التفتت نحو بيير فرانسوا قائلة:

ـ إني أتركهما لك... وأنت تعرف الباقي.

* * *

انصرفت سارة جولد شتاين مع ديڤيد ليڤنجر وصحبهما بيير فرانسوا وكلبه المتوحش حتى باب القصر، وكانت هذه هي الفرصة الوحيدة التي أتيحت لرسالة «علي» أن تصلهما... وإذا كانت ليز قد بدت في المناقشة رابطة الجأش شجاعة، فإن عينيها الآن أطلقتا نظرة رعب هائل وهي تلتفت نحو نورمان.. في تلك اللحظة دخل خادم ليرفع الكؤوس التي قدمت للجميع فارتجفت ليز لرؤياه... غير أن ما حدث بعد ذلك بدا لها ـ ولنورمان ـ كأنه حلم.

سار الخادم نحو المائدة التي تتوسط الغرفة ليرفع الكؤوس الفارغة ونصف الممتلئة في خفة ورشاقة من مارس هذا العمل طويلًا... وفجأة سرى صوته الخافت في إنجليزية ركيكة، قال:

«لا تقلقا».

في لهفة واضحة التفت الشابان نحوه وكان لا يزال يعمل، وسمعاه يستطرد:

ـ إن عليًا في القصر معنا، وهو يبلغكما تحياته.

ارتجفت ليز في سعادة من لا يصدق أذنيه، همت بالحديث فطالعتها عينا الرجل بنظرة تحذير رهيبة، وبرغم هذا كان يبتسم وهو يقف قبالتهما سائلًا بصوت واضح:

ـ أتريدان مزيدًا من الشراب.

ـ نعم.. أرجوك.

قالتها ليز في حماس من يريد أن يستبقيه لأطول فترة ممكنة، وبنفس الرشاقة راح الخادم يعد لهما كأسًا وهو يتمتم بصوته الخافت:

ـ اطمئنا تمامًا.

ثم... لم يكن هناك ما يقال... قدم الرجل لها كأسًا، ثم انصرف، غير أنه عاد بعد دقائق قليلة في صحبة مسيو فرانسوا وكلبه... بادرهما فرانسوا قائلًا:

ـ كنت أتمنى أن أتناول معكما العشاء لكن هذا يبدو غير ممكن... وعلى كل، فلسوف يحمل لكما حسين الطعام في غرفتكما... أتمنى لكما ليلة هادئة.

قال هذا وهو يومئ للخادم الذي انحنى لهما في أدب:

ـ سيدتي.. سيدي.

فتبعاه على الفور.

* * *

ولقد قضيا بالفعل ليلة هادئة لم يتبادلا فيها سوى كلمات تشي بأنهما متعبان، وأنهما مندهشان، وأنهما لا يفهمان ما يحدث، وأن هذا كله يبدو غريبًا لهما... قالا هذا عن عمد بعد أن حذرهما حسين بالإشارة والنظرة قبل أن يغادرهما، بما يعني أن حديثهما سيكون مسموعًا.

في الصباح حمل «حسين» القهوة إلى غرفتهما، لم يتبادل معهما حديثًا سوى تحية الصباح، وما إن تناولا القهوة حتى عاد ليخبرهما أن «السيد» في انتظارهما... في دهشة بالغة تبعاه، قادهما الرجل إلى البهو حيث كان بيير فرانسوا يقف بجوار كلبه في استقبالهما.

ـ أعتقد أنه لا بد لي من الاعتذار لكما.

ساد الصمت قليلًا ثم ابتسم مستطردًا:

ـ أخشى أني لن أستطيع اصطحابكما إلى سانت لويس، فإن لدي بعض الأعمال لا بد من إنهائها.

قال نورمان:

ـ مسيو فرانسوا، أنت تعرف أننا لا نريد الذهاب إلى سانت لويس في بساطة عاد الرجل الفرنسي يقول:

ـ إذن فلسوف يعيدكما السائق إلى دكار.

قبل أن يرد أحدهما أردف:

ـ وبالطبع، فإني أعتقد أني لست في حاجة إلى تذكيركما بتحذير مس هوفمان.

قالت ليز:

ـ لك أن تطمئن تمامًا.

غمغم بيير فرانسوا في ارتياح:

ـ هذا حسن للغاية... فإن لي سمعة في هذه البلاد يهمني أن أحافظ عليها.

ثم التفت نحو باب القصر مناديًا:

ـ علي.

ودلف السائق الذي كان يرتدي بذلة رسمية، ولم يكن السائق الذي أعادهما إلى دكار سوى «علي» شخصيًا.

وكان الثلاثة طوال الطريق يضحكون في مرح.

* * *

أبرق طاهر رسمي إلى «علي» في دكار برسالة يعرض فيها على الشابين «إليزابيث استيل»و «نورمان ويليامز»، أن يقضيا عطلة لمدة أسبوعين في أي مكان يشاءان في العالم تعبيرًا عن الامتنان... وكان رد الشابين: إن الأمر الطبيعي في مثل هذه الظروف أن يشعرا بالخوف، وأن يعودا للوطن إيثارًا للسلامة... وتصادف وجود سفينة بريطانية في الميناء، وكانت تستعد للإبحار في اليوم التالي إلى ليڤربول... استطاع الشابان أن يجدا عليها مكانين، لكنهما هذه المرة... سافرا في إحدى الكبائن، وليس على السطح.

ولقد قالا فيما بعد: إنهما تمتعا بالرحلة متعة فائقة، وإن ثقتهما في المصريين قد ازدادت.

الفصل العاشر
دلال شوقي تقع في الحب

شيء في قلبي يحترق
إذيمضي الوقت.. فنفترق
ونـــمـــد الأيـــدي
يـــجـــمـــعـــهـــا حـــب
وتـــفـــرقـــهـــا... طـــرق

أمل دنقل
من قصيدة: شيء يحترق

لم يكن إفلات الحفار هينًا على الرجال. هذه حقيقة لا بد من الاعتراف بها... كان رد الفعل قاسيًا عليهم.. خاصة وأنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من إتمام العملية... غير أن نديم هاشم بالذات ـ بالرغم من ضيقه وغضبه وجهده الذي تبدد في ثوان لأسباب كانت لا تزال مجهولة بالنسبة إليه ـ أحس والحفار يفلت ضاربًا في مياه المحيط مبتعدًا عنه، بسعادة غريبة وغامضة في نفس الوقت، فتنفس الصعداء.

وفي مثل هذا العالم الخفي قد يقتنع البعض بالحاسة السادسة والإلهام وما إلى ذلك، ولكن الحقيقة تظل دائمًا سيدة كل موقف، وكل تقدير لموقف... الحقيقة ولا شيء عداها... ومنذ وصول نديم إلى دكار، ومنذ معاينته للحفار والمكان الذي يرسو فيه، ثم اختياره لنقطة الانطلاق في ذلك القارب المائل فوق الرصيف النائي المهجور، وشيء ما يصده عن إتمام العملية، شيء غريب غامض كان يلح عليه إلحاحًا، إحساس مثير للضيق، لكنه منفصل عن الواقع المحيط به؛ فراح يعد العدة لتدمير الحفار... ربما كان تفسير هذا الإحساس هو موقع الحفار «كينتنج» بالقرب من زوارق الطوربيد الفرنسية، واحتمال ـ ولو واحد في المليون ـ أن يصاب واحد من تلك الزوارق نتيجة للتدمير، وما قد يجره هذا على مصر من مشاكل هي في غنى عنها... ربما كانت عصبية الإسرائيليين الزائدة، وهي عصبية من السهل الرد عليها بعنف؛ لولا القرار الذي اتخذ

في القاهرة ولا يملك هو أن يغيره... ولقد تمثلت عصبيتهم بوضوح في أسلوب الحراسة فوق الحفار ومن حوله، وتواجدهم الدائم في المدينة بحثًا عن وجه مصري، ثم مراقبتهم الشديدة للشابين ليز ونورمان اللذين لم يقتربا من الميناء ولم يريا الحفار منذ وصولهما، وتصل العصبية إلى ذروتها في خطفهما دون مبرر واضح؛ وإن كان المبرر كامنًا... ربما كان سبب إحساسه الغريب هو عنصر من هذه العناصر، وربما كانت هذه العناصر مجتمعة... المهم، أنه عندما رأى الحفار يمضي أمام عينيه، وبالرغم من خيبة الأمل، فلقد داخله ارتياح حقيقي... ارتياح ساعده ـ دون شك ـ على ترتيب ذهنه بسرعة، والتصرف بدقة جعلت اليوم المشحون بتلك الحركة المركبة التي كان عليه أن يخطط لها وينفذها ويتابعها لحظة بلحظة، يمضي في سهولة ويسر.

* * *

ودائمًا ما كان طاهر رسمي يقول ضاحكًا: «إن المآزق تخلق العبقرية» ... والمتتبع لأسلوبه في العمل، لا بد وأن يكتشف شيئًا غريبًا، هو أنه يصبح في أحسن حالاته إذا ما واجه مأزقًا خطرًا... ساعتها يدهش الذين يعملون معه لهذا الصفاء الذهني الغريب الذي يتمتع به وسط ضباب الأحداث وتراكمها بل وتلاحقها... في مثل هذه الحالات، قد يخلط طاهر رسمي أوراق اللعب كلها، وقد يقلب الخطط رأسًا على عقب، ليولد من هذا كله خطة جديدة... وعلى هذا، فلقد كان وهو يعمل الآن مع عزت بلال، ينتابه ذلك الإحساس الفائق اللذة، بأنه مقدم على خلط الأوراق، واللعب مع الإسرائيليين من جديد، بل... وتلقينهم درسًا في الخدمة السرية.

كان أهم ما يعنيه الآن، بعد أن أفلت الحفار وفشلت الخطة الأولى لمصادفة وقعت، أو ثغرة غفل عنها، أو لذكاء من العدو... فلقد كان هذا

ـ برغم خطورته الشديدة، وضرورة بحثه، ومعرفة أسبابه ـ في جانب ناء من رأسه وتفكيره... كان كل ما يعنيه الآن، هو جمع أكبر عدد ممكن من التفاصيل، كان ما يعنيه أن تكون أجزاء الصورة كلها متجمعة أمام عينيه... ولذلك، كان أول ما فعله هو إرسال برقية إلى نديم هاشم، يطلب منه فيها التصرف بسرعة، و«تنظيف» المكان، والعودة فورًا.

أجزاء من الصورة تجمعت لديه الآن، وبقي ذلك الجزء الأهم، الذي يستطيع نديم هاشم، ونديم هاشم وحده، أن يكمل به الصورة كأشد ما تكون الدقة.

لقد عرف تفاصيل ما حدث مع ليز ونورمان قبل أن تمضي أربع وعشرون ساعة... تسلم شريطًا مسجلًا بصوتيهما، خرج الشريط من دكار مع واحد من ركاب إحدى طائرات «إير أفريك» المتجهة إلى باريس... والغريب، أن حامل الشريط تخلص منه فور وصوله إلى مطار أورلي بإلقائه في إحدى سلال المهملات بالمطار، ثم جاءت عاملة نظافة إفريقية لتفرغ السلة فورًا، ثم استقر الشريط بعد ذلك، في حقيبة يد كبيرة لإحدى السيدات كانت تغادر باريس في هذا اليوم إلى القاهرة، وكعادة المصريين يسرفون دائمًا فيما يحبون، فلقد كانت الحقيبة الكبيرة لتلك السيدة ذات المظهر الشديد البراءة، مليئة بأشرطة موسيقية وغنائية للمطرب الفرنسي شارل أزنافور، ومطربة لم تكن قد عرفت بعد في العالم العربي هي «ماري ماتيو» ... كانت السيدة البدينة البريئة المظهر مسافرة على إحدى طائرات شركة مصر للطيران، لذلك، كان التفتيش روتينيًا، فلم يكن يعني رجال الأمن في مطار أورلي، أن يصعد أحدهم إلى طائرة مصرية وهو يحمل شحنة ناسفة.

استمع طاهر رسمي وعزت بلال للشريط مرتين متتاليتين، فتوقفا عند بضع نقاط، وأبدى كل منهما رأيه في كل واحدة منها... لكن نقطة بعينها

جعلتهما يتوقفان ويتساءلان ويحللان ويدققان... ولم تكن هذه النقطة سوى تلك الجملة التي قالتها «سارة جولد شتاين» في قصر مسيو فرانسوا قبل أن تغادر ليز ونورمان: «إنكما ستبقيان في ضيافة مسيو فرانسوا ليوم أو يومين».

كان معنى هذه الجملة، أنه حتى تلك اللحظة التي سبقت إبحار الحفار ببضع ساعات، لم تكن سارة تعرف موعد إقلاع الحفار بالضبط.

هذه هي الحقيقة الأولى التي أمسك بها طاهر رسمي، ثم راح يقرأ بعدها تلك الرسالة التي وصلته من دكار بخط اليد ـ وبلا شفرة ـ لم يكن هناك وقت وكان لا بد من المجازفة، ولقد أثار هذا خلافًا شديدًا وأزمة حادة، وعوقب مرسل الخطاب عقابًا رادعًا ـ والتي كانت تحكي بالضبط، ماذا حدث منذ أن غادرت سارة وديڤيد قصر مسيو فرانسوا إلى أن اختفيا من دكار بطريقة غامضة وكأنهما تبخرا.

* * *

غادرت سارة جولد شتاين وديفيد ليڤنجر قصر مسيو فرانسوا في تمام الساعة العاشرة والدقيقة الثالثة والعشرين من مساء يوم ١٨ فبراير عام ١٩٧٠، كانا يجلسان في المقعد الخلفي للسيارة الفاخرة التي كان يقودها واحد من أعوان «علي»... في السيارة كانا صامتين أغلب الوقت، لكنهما تبادلا حديثًا قصيرًا بلغة لم يفهمها السائق، ويرجح أنها كانت العبرية.

قبل وصولهما إلى الميناء بحوالي نصف ساعة، لاحظ عمال الميناء الذين طلب منهم منذ أن دخل الحفار إلى دكار، أن يكونوا على أهبة الاستعداد... لاحظوا حركة غريبة فوق ظهر الحفار، ثم وصلت سيارة رمادية اللون يقودها رجل صعد إلى الحفار مباشرة، وكان بصحبته مدير

الشركة الهندسية التي تقوم بإصلاح العطب في القاطرة «ڤاكوب ڤان هيمو كيراك»... تبادل الرجل الحديث مع بعض رجال الحفار، ثم انتقلا إلى القاطرة وأجريا حوارًا مع المهندس المشرف على إصلاح العطب، والذي كان يبدو عليه التعب والإرهاق... ثم عاد الرجل مع مدير الشركة إلى الحفار وراحا يتناقشان في حدة، ولكن في صوت خافت، وكان واضحًا أنهما ينتظران أحدًا، حتى إذا وصلت سارة وديڤيد، دخل الجميع إلى إحدى الكبائن التي أغلقت عليهم، وبدءوا اجتماعًا لم يحضره القبطان «ڤان كيرك» قائد القاطرة، والذي قيل إنه لم يكن يكف عن الشراب والدمدمة في غضب... وتهامس البحارة مع بعض عمال الميناء أنه كان يسب ويلعن ويقسم ألا يتعاون مرة أخرى مع هؤلاء القوم.

بعد ساعة وبضع دقائق غادر الجميع الكابينة، لتبدأ على الفور الحركة استعدادًا للإبحار مع أول ضوء للفجر... أما سارة جولد شتاين وديڤيد ليڤنجر، فلقد غادرا الحفار مع صاحب السيارة الرمادية، واختفى الجميع داخل السيارة التي انطلقت مغادرة الميناء إلى حيث لا يدري أحد وكأنها تبخرت في الهواء.

لم يتعود طاهر رسمي أن يهون من قيمة خصمه أو من ذكائه، ولقد كان أكثر ما يضنيه ـ طوال سنوات عمله كضابط في المخابرات ـ تلك الاستهانة التي كانت ترسمها الصحف المصرية للإسرائيليين، في وقت كانت الحرب الخفية بينهما محتدمة احتدامًا مروعًا، وعلى العكس، كان يرى أن قليلًا من المبالغة في قيمة الخصم، تحرك العقل للإبداع والانتصار... لذلك، فلقد كان واضحًا أمامه الآن، أن سارة وديڤيد اللذين لم يغادرا دكار فوق ظهر الحفار، واللذين ـ أيضًا ـ لم يغادراها في إحدى الطائرات، قد وضعا في اعتبارهما ـ برغم كل المظاهر التي كانت تشير إلى عدم وجود المصريين ـ أنهم هناك بشكل ما، ثم راحا يتصرفان على

هذا الأساس... فاستغلا ـ ولا بد من الاعتراف بهذا ـ انشغال المصريين برحيل الحفار، واختطاف ليز ونورمان ـ حتى ولو لم تكن لهما علاقة بهما ـ في إبعاد الأنظار عن خطتهما الخفية لمغادرة السنغال... ولقد أفلحا.

كانت الحقيقة التي توصل إليها طاهر رسمي في تلك الليلة التي خفت فيها موجة البرد في القاهرة، وارتفعت درجة الحرارة قليلًا، فأغلق جهاز التكييف وفتح نوافذ الغرفة التي تطل على تلك الحديقة الصغيرة، كانت الحقيقة التي توصل إليها، هي أن الإسرائيليين أصبحوا موقنين بأن المصريين هناك... ولو حتى للرصد والمراقبة.

وإذا كانت التحليلات والمناقشات بينه وبين عزت بلال قد أوصلته إلى أن أنسب الموانئ لدخول الحفار هي «أبيدچان» في ساحل العاج... فماذا لو أنهم حاولوا التفكير من موقع المصريين كما يحاول هو دائمًا أن يفكر من موقعهم؟ إنهم لو فعلوا، فلسوف يصلون بالقطع إلى هذا الاستنتاج... ثم... ألا يفكرون في ألا يدخلوا بالحفار إلى أبيدچان واختيار ميناء آخر؟!

وكان هذا احتمالًا، وهو احتمال يجعل الميناء التالي المرشح لدخول الحفار هو «لاجوس» في نيجيريا.

قال عزت بلال:

إن هذا أيضًا وارد... ولكن، ماذا لو دخلوا أبيدچان؟!

رد طاهر:

ـ تبقى لونا بايرن في خطر.

ولا بد من الاعتراف أن طاهر رسمي كان على حق في شكوكه... في أبيدچان كانت الصحفية الهولندية «لونا بايرن» قد حققت الكثير من الانتصارات... حققت اتصالات وثيقة مع بعض رجال السفارة

الأمريكية، وقبلت دعوة للعشاء مع مسؤول الإعلام فيها، وكان شابًا رقيقًا ومهذبًا لكن ذكاءه بدا لها من نوع خطير... ولكنه، ما إن انتهى العشاء، حتى كان قد اقتنع أن لونا باير صحفية من طراز ممتاز، وأبدى استعداده الكامل لمساعدتها في اللقاء برواد الفضاء، ووعد ببحث أمر لقاء أحدهم برجل من رجال القبائل.

كما حققت لونا صداقة متينة مع واحد من المسؤولين في ساحل العاج، ويوم أن قبلت دعوة قائد الميناء على الشاي، أرسلت برقية تقول فيها: إن القاطرة البلجيكية «آلبي» ستدخل إلى أبيدچان في ضحى اليوم التالي، وإنهم أفردوا لها رصيفًا كاملًا... وإن هناك ـ من الآن ـ حراسة مشددة ـ وإن كانت خفية ـ قد فرضت على هذا الرصيف.

فهل كان هذا استعدادًا لاستقبال الحفار، أو أنه نوع من الخداع يراد به لفت أنظار المصريين إلى الميناء التالي؟!

وإذا كانت سارة جولد شتاين قد راودها الشك في فرناندو بالديرا بجزر الأزورس، وإذا كان شك ديڤيد ليڤنجر قد تصاعد مع ليز ونورمان إلى درجة الاختطاف... فما الذي يمكن أن يفعلاه مع لونا بايرن التي كانت تقطع أبيدچان بالطول والعرض؟!

وهكذا، تقرر ـ على الفور ـ أن توضع لونا تحت الحماية الكاملة... ولم يكن هناك سوى «زاكري» أو زكريا ـ الذي كان لا يزال في القاهرة، وسرعان ما اتصل به طاهر رسمي، وطلب منه أن يوافيه على الفور، وبأسرع ما يمكن.

* * *

كان الليل قد انتصف، وهبت من النافذة نسمة باردة أنعشت طاهر الذي كان يقف محملقًا في «حديقته الصغيرة» كما أسماها، عندما سأل عزت بلال فجاة:

ـ إيه أخبار دلال شوقي؟

نهض عزت إلى مائدة القهوة وهو يقول: إن العمل في الفيلم يجري في انتظام.

ـ وإيه أخبار الصواريخ؟

ـ طلعت على المركب «نجمة يوليو» من يوم ما دخلت لاجوس.

ـ والزوارق؟

ـ اتشحنت بعد وصول المركب بثلاثين ساعة.

ـ هي نجمة يوليو بقى لها قد إيه في لاجوس؟

ـ أربعة أيام.

وصمت طاهر، والتفت عزت نحوه، كان يعلم أن صديقه على علم بكل ما سأل عنه، وأن لا شيء من هذا كله كان خافيًا عليه، لكنه ـ في لحظات بعينها ـ عندما يكون في حالة «ولادة» خطة جديدة، يحاول التفكير بصوت عال... ولقد كان عزت على حق، فلقد التفت طاهر نحوه قائلًا:

ـ إحنا دلوقت قدامنا سكّتين.

لم يرد عزت، فقط، استدار نحو صديقه... فاستطرد طاهر:

ـ السكة الأولانية إنهم يدخلوا أبيدچان.

ـ والسكة الثانية؟

ـ إنهم يفكروا بأسلوبنا، فيأخذوا قرار إنهم ما يدخلوش أبيدچان.

ـ طب إحنا عاوزين إيه؟

ـ هو ده السؤال.

ـ أبيدچان تحولت إلى قلعة.

ـ بس تقارير المعاينة الأولانية بتقول: إن التنفيذ فيها احتمالاته ممتازة.

هَمَّ عزت بالنطق فأردف طاهر:

ـ أحسن من دكار.

لزم عزت الصمت فغمغم طاهر:

ـ وأحسن من خطة لاجوس.

ثم ساد الصمت الآن تمامًا، بدا واضحًا أن طاهر في حالة اتخاذ قرار، وأن عواصف الفكر في رأسه بدأت تهدأ لتكون جسدًا متكاملًا اسمه «خطة»... ذلك أنه ما لبث أن قال:

ـ إحنا نبعت للاجوس نقول لهم يجهزوا نفسهم للخطة التالتة.

كان المنطق غريبًا... وإذا كانت أبيدچان بالنسبة للمصريين هي أفضل الأماكن للتنفيذ، كما أنها ـ أيضًا ـ أفضل الأماكن لرسو الحفار بالنسبة للإسرائيليين... فإن معنى هذا أن المباراة سوف تشهد نوعًا فريدًا من اللعب... هذا النوع الذي يعشقه طاهر، وفي بعض الأحيان يسعى إليه... فلماذا إذن يستعد للخطة الثالثة في لاجوس؟!

ترى... ماذا وراءه؟!

ربما جال هذا بذهن عزت بلال، لكنه ـ في مثل هذه الأحوال ـ لم يتعود أن يناقش صديقه، إن «الأمن» في مثل هذه الحالة ـ يسري حتى عليه.

❊ ❊ ❊

في ذلك الوقت بالضبط، كانت الساعة في دكار قد جاوزت التاسعة مساءً بقليلٍ، وكان نديم هاشم قد ألقى بنفسه فوق أحد الأسِرّة في بدروم تلك الڤيلّا الكائنة في إحدى الضواحِي، وكان يشعر بالألم يسري في كل أعضاء جسده... كان متعبًا منهكًا، مضت ساعات اليوم ـ منذ إبحار الحفار مع خيوط الفجر الأولى، وحتى ساعته هذه ـ في عمل متواصل، وجهد دفعه إلى الرقاد مفتوح العينين.

كانت مهمته الأولى ـ بعد رحيل الحفار ـ أن يعيد الرجال كلهم إلى القاهرة، وفي نفس اليوم... ولقد حدث هذا برغم خطورته الشديدة، فلم تكن ملاحظة وزير الداخلية السنغالي لرجل الأعمال السوري الأصل«سليم أبو فودة» عن كثرة عدد المصريين الذين دخلوا دكار بعد وصول الحفار بيوم قد غابت عن ذهنه بالقطع... وكان خروج المصريين أنفسهم بعد رحيل الحفار، يجعل أي طفل محدود الذكاء يفهم... وليلة أن أخبره سليم أبو فودة بما قاله وزير الداخلية، طلب من أحدهم تجهيز خمسة جوازات سفر جديدة لخليفة ورجاله... ولقد أعدت الجوازات في وقت قياسي، وسافر بها الرجال بالفعل... لكن الغريب في الأمر، أن واحدًا من هذه الجوازات، لم يكن مصريًا.

كان أول من غادر دكار هو«العريف»، الذي استقل الطائرة المتجهة إلى المغرب في الساعة السابعة وخمسين دقيقة من نفس الصباح الذي رحل فيه الحفار... وكان آخرهم هو خليفة جودت الذي غادر العاصمة السنغالية في طائرة «إيرفرانس» المتجهة إلى باريس، وكان عليه أن يغير الطائرة في مطار شارل ديجول، ليستقل طائرة نفس الشركة إلى چنيف.

أما المواطن إبراهيم سيد فرج الله، الذي جاء إلى دكار بحثًا عن وظيفة مدرس للغة العربية، فلقد قرر السفر في اليوم التالي، بعد اجتماع عقده مع نديم هاشم ومحمود شوكت، وبعد أن وصله عرض للعمل في

«ليبيريا»، التي تفصلها عن السنغال ثلاث دول هي: غينيا، وغينيا بيساو، وسيراليون... لكنها مشتركة في الحدود مع ساحل العاج... كانت ثمة رسالة قد وصلته من«منروڤيا» عاصمة ليبيريا تقول: إن قبيلتي «آل فاي» و«آل ماند» المسلمتين، قد افتتحتا مدرسة في مدينة «جرينڤيل» في أقصى جنوب الساحل الليبيري، والشديدة القرب من شواطئ ساحل العاج، وإنهم في حاجة ماسة إلى مدرس للغة العربية... وكان الأجر مجزيًا، مما دفعه إلى الموافقة على الفور، وإرسال برقية بموعد وصوله إلى منروڤيا عاصمة ليبيريا وميناؤها الكبير.

* * *

وها هو كل شيء قد عاد كما كان، أصبحت«دكار» نظيفة تمامًا كما طلب طاهر رسمي في برقيته، وخلا البيت الآمن إلا من نديم ومحمود شوكت... وكان على نديم ـ حسبما جاء في البرقية ـ أن يعود إلى القاهرة، فأجرى اتصالًا تليفونيًا مع سليم أبو فودة لم يستغرق أكثر من دقيقة... ولكن، ماذا بالنسبة للباشا؟

لم يكن«الباشا» فقط هو الذي يشغل بال نديم، فمنذ يومين أرسل متعهد السفن «كيوبيدو بارتيني» برقية إلى أبيدچان، يطلب فيها من متعهد السفن الألماني «مانفريد جايجر» أن يحجز جناحًا لرجل الأعمال التركي، السيد عصمت كارجي، في فندق «لاڤوار» الذي بنته إسرائيل هدية منها إلى ساحل العاج، والذي كان مقررًا أن ينزل فيه رواد الفضاء الأمريكان في أثناء زيارتهم للعاصمة أبيدچان.

قال نديم محذرًا محمود شوكت:

ـ المخاطرة في أبيدچان صعبة يا محمود.

قال الباشا متهكمًا:

ـ ولا يهمك.

ـ اللوكاندة حاتبقى ملغمة.

ـ وأنا باحب الألغام.

قالها ضاحكًا لكن نديم لم يضحك، كان بالفعل مشغولًا على زميله وصديقه الذي كان يبدو شديد المرح وكأنه مقبل على نزهة... لكن انشغاله الأكبر كان ـ في حقيقة الأمر ـ على المتفجرات.

هتف محمود شوكت:

ـ ما لها المتفجرات؟!

قال نديم:

ـ إلا ما لها... لازم أرجع بيها مصر.

ـ وماله، ترجع بيها مصر وكل حاجة، إنما ليه؟

برغم حياته الغربية المتقلبة والباريسية، فإن الباشا ـ أبدًا ـ لم يفقد لهجته الريفية التي كان يتقن الحديث بها... لكنه ما إن قال ما قال وبرغم التعب، حتى قفز نديم هاشم من رقدته وراح يخطو في البدروم بين الأسِرّة وهو يتحدث بلا توقف، قال:

ـ إن بقاء المتفجرات في دكار ـ مهما كان سياج الأمن من حولها قويًا ـ أمر لا يبعث على الارتياح، لقد جاءت هذه المتفجرات لغرض لم يعد قائمًا الآن، فلا بد إذن من عودتها إلى مصر.

ـ وليه مصر يا أخينا؟

التفت إليه نديم في حدة:

ـ إنت عاوز تقول إيه؟

ـ هو إحنا مش حانحتاج للمتفجرات دي في أبيدچان؟

ـ قصدك إيه؟

ـ أنا أطلع لك بيها من هنا على هناك بدل من اللف والدوران ووجع القلب.

ـ على رقبتي.

هكذا هتف نديم، وهكذا احتدم الجدل بين الرجلين... كان نديم يرى أن الإسرائيليين والأمريكيين سوف يملأون أبيدچان، إن لم يكونوا قد ملئوها بالفعل، فموعد زيارة رواد الفضاء يقترب، ودخول الحفار أصبح مسألة أيام... وأن أية مخاطرة سوف تدمر كل شيء، وقد تضيع كل فرصة لو أنها ضبطت أو اكتشف أمرها.

استمع الباشا في هدوء وهو يبتسم، أشعل في أثناء حديث نديم سيجارًا فاخرًا راح يتلذذ به، وعندما انتهى نديم من حديثه راح يحملق في السيجار الطويل الذي كان الآن ينفث دخانه في حلقات، وانتبه محمود شوكت لنظرة نديم، فنهض من مقعده ملوحًا بالسيجار في وجه زميله:

ـ ما تبصليش قوي كده... السيجار ده بالذات من حر مالي.

ضحك نديم مداعبًا:

ـ والسيجار اللي بتدخنه في اللوكاندة؟

صاح الباشا:

ـ من حر مال الشعب... ده شغل يا سيد.

وضحك الرجلان، واكتفيا بهذه الضحكة المرحة استراحة من عناء التفكير، ذلك أن الباشا بدأ يتحدث في هدوء من فكر في الموضوع طويلًا وقتله بحثًا... وإذا كان لا بد من عودة المتفجرات إلى القاهرة،

فإن المرور بها من دكار إلى باريس أو روما أو چنيف أو إلى مطار أوربي، أو... لا يقل مخاطرة عن مخاطرة دخوله بها إلى ساحل العاج... بل إن مخاطرة دخوله أبيدچان بالمتفجرات تقل كثيرًا... ذلك أن حقائب مليونير تركي جاء بمشروعات لتنشيط أحوال البلاد الاقتصادية، لا بد أن تعامل معاملة تختلف عن معاملة مصري جاء يبحث عن عمل.

قال الباشا هذا ثم أردف:

ـ وإذا سمعت كلامي، سيب لي كمان الملابس والمعدات بتوع الضفادع البشرية.

وتأثر نديم لعرض زميله، بدا له الباشا بقامته الفارهة وصوته العريض، يوحي بثقة بلا حدود، اقترب منه نديم باسمًا، كان ممتنًا، وكان معجبًا، وكان يريد أن يقول شيئًا فلم يستطع... كل ما فعله أنه ربت على ذراع صديقه في ود، وعاد إلى فراشه دون كلمة فصاح الباشا:

ـ هيه... قلت إيه يا أخينا؟

تمتم نديم وقد سرى الخدر في جسده:

ـ كفاية عليك إنت المتفجرات... أنا حارجع مصر بالمعدات.

وهكذا ودع الرجلان كل منهما الآخر. وغادر رجل الأعمال التركي عصمت كارجي البيت الآمن من الباب الخلفي، ثم اختفى في شوارع العاصمة السنغالية... وكان نديم هاشم الآن، يغط في نوم عميق.

* * *

كل الذين شاهدوا دلال شوقي في تلك الأيام التي كانت تصور فيها المشاهد الخارجية لفيلم «امرأة في الأحراش» بغابات نيجيريا، أجمعوا على شيء واحد... هو أن دلال لم تكن هي دلال التي عرفوها أو سمعوا

عنها... ويحكي عزوز جابر أن أحدًا لم يعرف متى بدأ هذا التغيير الغريب في تصرفات النجمة المصرية الشهيرة... ففي الأيام الأولى لاحظ الجميع، لا على دلال وحدها، بل على كل بعثة هذا الفيلم الغريب، علامات صحة وحيوية كان سببها بالقطع ذلك الجو المنطلق في الغابة برغم الحرارة والرطوبة... وذلك الإحساس الدافئ الذي جمع الكل في بوتقة واحدة من الألفة والمحبة.

كان مدحت صبري دمثًا صبورًا مهذبًا إلى درجة تخجل الجميع، أما «سعاد الحكيم» مساعدة المخرج الغامضة والتي لم يسمع عنها أحد، فكانت كالدينامو الذي لا يكف عن الحركة... ولطالما تحملت مشاق الطريق بالسيارة الچيب مع عزوز جابر من موقع التصوير إلى مدينة «أويو» القريبة حتى لاجوس لشراء بعض ما يحتاج إليه الفيلم أو العاملون فيه برغم وجود مدير إنتاج، فلقد كان مدحت صبري يثق فيها ثقة بلا حدود، وكانت هي تفهم تمامًا ما الذي يريد بالضبط... لكن المنتج عزوز جابر عندما يحكي عن تلك الأيام، لا يستطيع أن يغفل بعض الملاحظات الغريبة وبعض التصرفات التي لم يفهمها والتي كانت تصدر عن «سعاد الحكيم»... فلقد كانت تبدو وكأنها تعرف كل شبر في لاجوس، تعرف من أين تشتري هذا الشيء أو ذاك، تعرف الطرق والمسالك، وعندما سألها ذات يوم إن كانت قد جاءت لاجوس من قبل، ابتسمت متسائلة في دهشة:

ـ إمتى كنت حاجي لاجوس... وليه؟!

أما دلال، فمع التورد والحيوية وذلك البريق الذي كان يشع من عينيها، فلقد بدا أنها راحت تجنح إلى الانطواء... لم تعد عصبية كما

كانت دائمًا، وأمام الكاميرا بدت مطيعة لينة العريكة سريعة التفاهم والفهم لكل ما يجري وكل ما يريده المخرج، وفي الليالي التي كان الجميع يقضونها في سمر ومرح بعد يوم شاق، كانت تبدو خير رفيق، عذبة الحديث حلوة اللسان... وإذا ما تجمعوا لمناقشة مشهد أو موقف كانت تستمع في اهتمام وتناقش في جدية... ودفعت هذه المناقشات المخرج مدحت صبري إلى اقتراح بإدخال بعض التعديلات على السيناريو... وكان إعجاب دلال صارخًا عندما طلبت منه أن يدخل التعديلات بنفسه فرفض، وأرسل برقية إلى كاتب السيناريو في القاهرة يطلب منه رأيه في التعديلات، وإدخالها لو أنه اقتنع بها.

قالت دلال ذاهلة:

ـ للدرجة دي إنت بتحترم شغلك يا مدحت؟!

التفت نحوها وقال:

ـ طب أحترم نفسي إزاي؟!

ومضت أيام كان العمل يجري فيها بانتظام، وعندما كان عزوز يبدي قلقه لتأخر وصول التعديلات، كان مدحت يبتسم قائلًا: إن التأخير معناه أن الكاتب قد اقتنع بالتعديل، وعلينا أن ندفع ثمن ما طلبناه منه، فهو ليس آلة كاتبة، إنه فنان يبدع.

كان الكلام حلوًا، ولكن عزوز صاح منبهًا:

ـ إنت عارف يا أستاذ لو التعديلات ما وصلتش في ميعادها، اليوم هنا بيكلفنا كام؟

رد مدحت:

ـ وإنت عارف لو عملنا تعديلات وطلعت وحشة، حانخسر قد إيه؟

وهكذا شعر جميع العاملين في الفيلم أنهم لم ينتقلوا من مصر إلى نيجيريا لتصوير المشاهد الخارجية لفيلم مصري، لكنهم كانوا يشعرون أنهم انتقلوا من عالم إلى عالم آخر... وكان أكثر الناس تأثرًا بهذا الجو الشديد الاحترام الذي أشاعه مدحت صبري، هي دلال شوقي على وجه التحديد.

* * *

لا أحد يعرف ما الذي كان يدور في ذهن دلال شوقي في تلك الأيام، أيقن البعض أنها وقعت في الحب، ولاحظ عزوز جابر أنها كانت تسرح في أحيان كثيرة وقد تعلقت عيناها بمدحت صبري في أثناء عمل أو حديث أو سمر أو اجتماع دون أن يشعر هو بها... لكن أحدًا لم يرها مرة وقد اختلت به، أو اختفت معه أو جلست إليه منفردة... كانت دائمًا هناك، وكان مدحت صبري دائمًا هنا... وتساءل الجميع بلا استثناء، تساءلوا همسًا وفيما بينهم وبين أنفسهم: ما الأمر إذن؟

لا أحد كان يعرف أن دلال شوقي برغم حيويتها ونضارتها، وعقارب السن التي عادت بها إلى أيام الشباب الأولى، أيام أن ظهرت كبطلة في إحدى القصص التي اشتهرت في مصر في الخمسينيات وأثارت جدلًا بين النقاد... وكانت تبدو وقتها مثل ثمرة طازجة لم تقطفها يد الأضواء من فوق غصنها الأخضر بعد... لا أحد كان يعرف أنها برغم كل هذه المظاهر، كانت تمر بأزمة نفسية حادة.

كانوا على حق عندما ظنوا أنها وقعت في حب المخرج مدحت صبري، لكنها كانت كالمجنونة... تتساءل بينها وبين نفسها: ما هذا الذي يحدث في داخلها؟!

كان الذي تشعر به ليس حبًا كالحب الذي عرفته من قبل، كان نوعًا

من الضياع الهاجع إن صح التعبير، كان نوعًا من الصلاة في محراب لم تطأه قدمها من قبل.

وهي عندما تزوجت لأول مرة كانت صغيرة، بل كانت طفلة... عقد قرانها في بيت والدها المهندس يوم أن بلغت الثامنة عشرة من عمرها، وفي سنوات زواجها الأولى كانت تحتفل بعيد ميلادها وعيد زواجها في يوم واحد...

... وكان زوجها الأول شابًا يكبرها بثلاث سنوات فقط، يعمل مهندسًا في أحد المشروعات الكبرى التي أقامتها الثورة، عاشت معه قصة حب كتلك التي كانت تمثلها في أفلامها الأولى، قصة رومانسية ساذجة على حد تعبيرها، وعندما أرادت العمل في السينما، لم يكن هذا جديدًا على الزوج الشاب، فلقد كان التمثيل هوايتها وحبها وحلمها منذ أن شبت عن الطوق... لكنه أبدًا ـ كما قال لها في اللحظات الحاسمة من حياتهما ـ لم يأخذ الأمر مأخذ الجد، ولم يفكر فيه ولم يخطر بباله... لذلك، فلقد حدث الخلاف بينهما واحتدم يوم أن عرض عليها أحد المخرجين العمل في السينما... كان نوعًا من المخرجين الذين عاشوا في الخارج سنوات، دليلهم الوحيد على ذلك، تلك الكلمات الأجنبية التي ينطقونها بفجاجة، وذلك اللسان الملتوي بلا سبب إلا أن يكونوا خواجات... وبقدر ما بهرت هي بهذا المخرج، بقدر ما اشمأز منه زوجها، كان العرض جادًا، فطارت هي من الفرح، ووافقت، وتشبثت... ورفض الزوج، وأصر على الرفض... فانفصلا.

واندفعت دلال تعيش حياتها الجديدة وهي لم تتعد الرابعة والعشرين، كان والدها قد توفي منذ عامين، وانتقل زوجها للعمل في السد العالي، ومارست ـ لأول مرة في حياتها ـ هذا الإحساس الغامر بالحرية... في تلك الأيام عرض عليها الحب ألوانًا، وارتمى تحت قدميها نجوم

ورجال أعمال وكتاب وشعراء وصحفيون وأدباء وفنانون من كل لون... لكنها أبدًا لم تحس بهذا الإحساس الذي كانت تتوق إليه وتنتظره، ذلك الإحساس الذي يحرك كوامنها... وكم من ليال باتت فيها مسهدة متعبة تفكر في «حازم» ـ زوجها الأول ـ وأيامها معه، هل كان حبًا رومانسيًا كما كانت تدعي «مكابرة»، أو أنه كان قدرًا متربصًا؟! واكتشفت بعد عامين من الوحدة أن «حازم» ما زال يعيش في قلبها، وعندما ذهبت ذات رحلة مع مجموعة من الفنانين لزيارة السد العالي، كانت تتوق فعلًا لرؤية هذا الصرح العظيم الذي كانت مصر قد دخلت من أجله أعنف المعارك... لكنها أيضًا، كانت تعلم أنها سوف تلتقي بحازم... وكم انتظرت هذا اللقاء على أحر من الجمر... وكم تخيلت كيف سيكون، والحوار كيف سيدور... موقنة هي أن حازم يحبها، إنه لا يمكن إلا أن يحبها، وإنه لا يزال يحبها... كأن الأيام لم تمض، وإلا، فما معنى هذا الذي كانت قد اعتزمته ووطنت نفسها عليه... كانت قد اعتزمت أن تعود إليه، وأن تهجر الحلم.

في السد العالي سألت وسألت، حتى التقت بحازم، لكنه لم يكن وحده، كانت زوجته الجديدة معه، فتاة شقراء رائعة الحسن، كانت تعمل مهندسة چيولوچية تبحث عن الكنوز في تراب مصر.

وعادت دلال من رحلة السد العالي كسيرة القلب، وكان زوجها الثاني هو أول من تقدم إليها؛ فقبلته لا لأنها تحبه ولا لأنها تريد الهروب من ذكريات تحطمت على صخور السد العالي.. ولكن لأنها كانت قد يئست من الحياة بلا رجل.

ولم يدم زواجها سوى بضعة أشهر ـ وإن كان قد دام أمام الناس لعامين متصلين ـ بذلت فيهما كل ما تملك من جهد كي تعيش... ذات ليلة بكت بين يديه عذابًا وهي تشكو له قلبها المغلق... هي لم تعد تشعر

بشيء، كرهت السينما، وكرهت الفن، وكرهت الحياة، وكادت تكره الناس... ولقد أرادت أن تعطيه حقوق الزوج فيها فأبى... كان يسعى منذ البداية إلى قلبها.

ولم تكذب دلال، صارحته بالحقيقة... وتقبل الحقيقة في صمت، وهكذا فتحت عينيها ذات صباح لتجد أن كل شيء لم يعد له معنى، كانت متزوجة، تعيش مع رجل وقلبها تعصف به أنواء الشوق إلى رجل مجهول... وكان هو كريمًا، عرض عليها الطلاق فقالت إنها في حاجة إليه... ورجته أن يظل إلى جوارها... فوافق.

في تلك الأيام ظهر ضابط المخابرات فريد ذهني في حياتها، التقت به في بيت إحدى صديقاتها الفنانات والتي قدمته لها على أنه رجل أعمال، ولا تدري كيف اختلط الحابل بالنابل في تلك الحفلة لتجد نفسها تقف في الشرفة المطلة على ذلك الميدان الجديد المضيء، وكانت مع فريد وحدها.

ـ بلبل قالت لي إنك رجل أعمال.

ـ أيوه.

ـ بتشتغل في إيه؟

ـ في المخابرات.

وصعقت. وظنته يهزل، ظنته يداعبها، لكن وجهه كان جادًا هادئًا باسمًا... راحت تحملق في وجهه لثوان فسألها:

ـ إيه الغريب في اللي أنا قلته؟

ـ أصلي باكرهكم.

ـ ليه؟

ـ وباخاف منكم.

ـ للدرجة دي؟

ـ وما أحبش أقف معاك لوحدي.

وتركته ومضت، وغادرت البيت متعللة بأنها أصيبت بصداع مفاجئ، لكنها لم تنم طوال الليل، أحست بالخوف يعصف بها... ثم أحست أنها إنسانة بشعة، فظيعة، جلياطة، قليلة الذوق... وفي الوقت نفسه كان هو مهذبًا صامتًا... غادرت فراشها على أطراف أصابعها حتى لا توقظ زوجها، هبطت إلى البهو وطلبت صديقتها التي كانت لا تزال مستيقظة:

ـ بلبل... هو الراجل اللي اسمه... اسمه..........

اكتشفت أنها نسيت اسمه، وجاءها صوت صديقتها ساخرًا:

ـ فريد ذهني.

ـ نمرة تليفونه كام؟

ـ ما تتعبيش نفسك.

ـ انتي مش فاهمة.

ـ لأ فاهمة.

ـ يا بلبل أنا أصلي..........

قاطعتها صديقتها ضاحكة:

ـ ما تحاوليش تشرحي لي حاجة... المشكلة إني ما اعرفلوش نمرة تليفون ولا عنوان ولا حاجة.

ـ أمال بتتصلي بيه إزاي؟

ـ هو اللي بيتصل بي.

وقضت دلال ساعات قلقة... في الصباح، دق جرس التليفون، رفعت السماعة وكانت نصف نائمة، وجاءها صوت فريد ذهني:

ـ سمعت إنك بتسألي عليّ.

ـ عاوزة أعتذر لك.

ـ وأنا عاوز أشرح لك.

وعلى مدى خمس ساعات بعد ظهر ذلك اليوم، واجهت دلال فريد ذهني بكل ما قرأته عنهم، وبكل ما سمعته... وكان يستمع في هدوء حتى إذا انتهت، لم يدافع، إنما راح يحلل ويشرح ويقارن ويدقق، إن لكل عمل عظيم أخطاء لا بد عظيمة مثله، المشكلة التي كان يعاني منها أن:

ـ الناس مش فاهمة يا دلال هانم إحنا شغلتنا إيه.

ـ بلاش حكاية هانم دي وفهمني.

ولقد فهمت.. ودهشت.. وأبدت إعجابها، وصاحت:

ـ طب ما انتوا كويسين أهه.

قال:

ـ علشان كده أنا قلت لك إمبارح أنا مين... محدش من اللي كانوا في الحفلة ـ ولا حتى بلبل ـ تعرف أنا مين.

ـ واشمعنى أنا اللي قلت لي؟

ـ لأن البلد محتاجة لك.

ـ البلد؟!

وهكذا بدأت دلال شوقي علاقتها بجهاز المخابرات المصري، ووجدت نفسها غارقة في حب مصر، بل كلما اشتركت في عمل ما ازداد

حبها لهذا البلد الذي كانت ملامحه تتضح لها يومًا بعد يوم، وكانت دائمًا ما تقول:

ـ إحنا بنقول إن الشعب المصري شعب عظيم، بنقول ده لأننا منه، بنمجد في نفسنا... لكن لو أننا عرفنا الحقائق، وعرفنا الشعب ده كله بيعمل إيه... حاتعرف هو عظيم إزاي... وده الأهم.

رأت دلال أناسًا يعيشون ويموتون في حب مصر دون أن يشعر بهم أحد، رأت رجالًا تهون أرواحهم في لحظات تشيب لهولها الولدان بالفعل... واقتنعت، عندما قارنت ما عرفته بما سمعته قبل أن تعرف فريد ذهني، أنهم برغم بطولتهم ونكرانهم لذواتهم، بشر أولًا وأخيرًا... وأنهم قد يقعون في الخطأ... لكن الأهم، هو: أنهم يمنعون عنا جرم الخطيئة.

أحست دلال أنها أصبحت تنتمي إلى كيان هائل كبير.. لدولة عظمى حاولت الأحداث سحقها لكنها أبت إلا أن تظل مرفوعة الرأس... وفوجئ زوجها ذات صباح، وكانا على مائدة الإفطار، فوجئ بها ساهمة:

ـ ما لك يا دلال؟

ـ عاوزة اتطلق.

قالت ما قالته وهي تنتظر كل شيء وأي شيء غير هذا الذي حدث.. في صمت شديد مد الرجل يده إلى جهاز التليفون القريب، رفع السماعة، أخرج من جيبه رقمًا، أدار القرص، واكتشفت أنه كان يتحدث في مثل هذه الساعة المبكرة من اليوم، إلى المأذون.

طلب منه الحضور لإتمام الطلاق، ثم أعاد السماعة وراح يكمل إفطاره.

أحست دلال أن الإهانة تنغرس في لحمها وتسحق عظامها، ظلت صامتة لدقائق كانت تنظر فيها إليه ذاهلة، كل ما استطاعت أن تقوله:

ـ إنت كنت شايل نمرة المأذون في جيبك؟!

فغمغم وهو ينهي إفطاره:

ـ كنت عارف إن اليوم ده جاي.

* * *

وها هي تقع في الحب.

ها هو الكنز الذي ظلت العمر تبحث عنه بين يديها، لكنها لا تملك حتى أن تهمس له بما يعتلج في ثناياها... لا... لم يكن حبًا كالذي عرفته من قبل، كان ما تشعر به الآن، وبعد أيام لم تتعد الأسبوعين، نحو مدحت صبري شيئًا خاصًا، نسيج وحده.. كان إحساسًا جارفًا كفيضان يكتسح كل ما في طريقه، هو نوع من الضياع الهاجع إن صح التعبير، هو نوع من الصلاة في محراب لم تطأه قدمها من قبل.

وليس هذا ما كان يضنيها في الأمر.

ليس هذا وإلا هان الأمر، وتقدمت، وعبرت الجسور، وحطمت الأسوار وأعلنت حبها حتى ولو قوبل إعلانها بالرفض، فليس الحب عيبًا وليس جريمة، وليس عارًا... ولو عرف الناس قيمة الحب لما كفوا عن الصلاة ليل نهار شكرًا لله، لأنه منحهم القدرة على الحب... كان الذي يضنيها ويعذبها، أنها تحب رجلًا لا تعرف من هو.

كان عمل مدحت صبري خلف الكاميرا، ومناقشاته مع الفنانين والفنيين، يصرخ بأنه مخرج... وكانت تصرفاته تؤكد أنه رجل مخابرات.

ذات يوم اكتشفت شيئًا... اكتشفت أن أحدًا لا يعرف شيئًا عن مدحت صبري، فهو أبدًا.. لم يتحدث عن نفسه، لا أحد يعرف أين يسكن، من

أبوه، من عائلته، أعزب هو أم متزوج، ما رقم تليفونه... اكتشفت دلال شوقي أنها تحب شيئًا في صورة رجل.

هكذا كانت أيامها في أحراش نيجيريا، تنام وتصحو على فكر يدور في حلقة مفرغة... حتى حدث ما قلب الدنيا رأسًا على عقب، وجذبها، وجذب الآخرين، بعيدًا بعيدًا عن ذواتهم.

* * *

ذات يوم كان على سعاد الحكيم، مساعدة المخرج، أو «الدينامو» كما أطلق عليها الجميع أن تسافر إلى لاجوس مع عزوز جابر ومدير الإنتاج لشراء بعض مستلزمات البعثة من العاصمة... غادر الثلاثة الموقع في السيارة الچيب في السادسة صباحًا، وعادوا بعد غروب الشمس يحملون نبأ هامًّا... لقد وصلت التعديلات المطلوبة من القاهرة، كتبها المؤلف، وأرسلها، في الحقيبة الدبلوماسية إلى السفارة المصرية في نيجيريا.

وإذا كان الأمر قد مر مرور الكرام على الجميع، فهو لن يمر على دلال بطبيعة الحال وهي تعرف ما لا يعرفه الآخرون... كانت سعاد الحكيم قد اختلت بمدحت صبري كي تعطيه تقريرًا عما فعلوه، ثم أخذا يراجعان التعديلات التي أرسلت... على كل، فلقد شعرت برغم ما كانت فيه، أنه قد آن الأوان للقيام بالعمل الذي من أجله جاءت إلى هذه البقعة النائية من الدنيا.

كانت التعديلات تستلزم تصوير بعض المشاهد في شوارع لاجوس، وفي أحد أقسام البوليس فيها، وفي الميناء، وفي أحد الفنادق الكبرى، ثم فوق سطح السفينة التي كان المفروض ـ في الفيلم ـ أن تصل عليها سيدة الأحراش مع زوجها.

باختصار... أعلن مدحت صبري، بعد مناقشات دامت بينه وبين سعاد الحكيم لوقت ليس بالقصير، أن عليهم أن يشدوا الرحال ـ من الغد ـ إلى لاجوس.

وصرخ عزوز جابر:

ـ والمشاهد اللي فاضلة لنا هنا يا أستاذ؟!

في هدوء رد مدحت:

ـ المسؤولون في السفارة أخذوا الإذن بالتصوير لمدة أسبوع يبدأ من بكرة.

ـ يعني نروح لاجوس ونرجع هنا تاني؟!

ـ لاحظ أننا في دولة أجنبية يا أستاذ عزوز.

ـ وليه ما نكملش هنا، ليه المصاريف، ليه المرواح والمجي، دول كلهم يومين تلاتة ونخلص اللوكيشن ده ونروح.

و... ولم تكن هناك جدوى من المناقشة، حاول عزوز أن يكسب دلال لصفه، لكنها كانت مشغولة عن هذا بمراقبة مدحت صبري، وتصرفاته، وأسلوب مناقشته في هذا الموقف بالذات... وبرغم أن كل أعضاء البعثة أيدوا عزوز جابر فيما ذهب إليه، فإن مدحت أصر على موقفه... ليلتها... أوت دلال إلى خيمتها ولم تنم، فقد أيقنت أن الحلم تبدد قبل أن يبدأ، وأن مدحت صبري، هذا المخرج الذي حلمت بأن يصنع للبلد أفلامًا عظيمة... ليس سوى ضابط مخابرات.

* * *

من الصعب أن نعرف على وجه اليقين كيف دخل الباشا بثمانين كيلو جرامًا من المتفجرات إلى تلك العاصمة الجميلة من عواصم غرب إفريقيا، والتي يعتبرها البعض ـ بالرغم من جوها الإفريقي ـ جزءًا

من أوربا... فالفرق بين أبيدچان وبين العواصم الأخرى المتناثرة على هذا الساحل، يبدو شاسعًا... كانت المدينة قد تحولت في الوقت الذي وصل فيه الباشا، إلى قلعة تحرسها ذئاب بشرية انتشرت في كل مكان تتشمم رائحة أي شيء... وبالقطع، فلقد كان للأمريكيين عذرهم في حماية رواد فضائهم، وهذا حقهم المشروع الذي لا يجادل فيه أحد... أما الإسرائيليون، فلقد كانوا هناك علنًا، ودون مواربة، وفي استفزاز يفقد أشد الناس حلمًا حلمه... كانوا بالتأكيد في انتظار حدث متوقع، أو... كانوا ـ بأسلوبهم هذا ـ يسدلون ستارًا على ما كان يجري بعيدًا عن هذا المكان.

وحتى اليوم، وبرغم مضي السنوات، فإن الباشا لم يبح بعد بالطريقة التي أدخل بها المتفجرات إلى هذه القلعة، بتلك السهولة المذهلة.

غير أنه فيما بعد، عندما مضت سنوات عشر أو يزيد قليلًا، تحدث محمود شوكت عن أسلوب اتبعه ذات يوم في أحد مطارات أوربا... ونحن لا نملك إلا أن نصدقه، أو نستنتج، أو نقارن... ثم نجتهد بعد ذلك في الاقتراب من هذا الأسلوب الفذ الذي يصبح من المستحيل أن يبوح به ضابط مخابرات ـ أو جهاز مخابرات ـ فمثل هذه الأساليب التي تدرس لضباط المخابرات في تلك المعاهد والأكاديميات ذات الشهرة العالمية ـ دون أن يعرف أحد ما الذي يدور خلف جدرانها ـ على أنها تاريخ عليهم أن يعوه ويتعلموا كيف يطورونه ـ كل بملكاته الخاصة ـ إلى ما يلائم العصر.

وعندما صعد رجل الأعمال التركي عصمت كارجي إلى الطائرة المتجهة إلى أبيدچان في مطار دكار... كان قد شاهد نديم هاشم، قبل هذا بنصف ساعة في نفس المطار وهو يصعد إلى طائرة الخطوط الجوية الفرنسية، وفي توديعه رجل الأعمال السوري الأصل «سليم أبو فودة» وبعد أن شحنت حقائبه بسهولة، وعرف الجميع أن الحقائب مليئة بقطع

غيار للطاحونة والمعصرة، والتي كان على المهندس «سليمان عبد البر محمود» أن يغيرها أو يصنع غيرها في باريس... وكما كان صعود نديم هاشم سهلًا ميسورًا، كذلك كان صعود الباشا الذي كان في وداعه ذلك المسؤول الكبير في الميناء، ومعه متعهد السفن الإيطالي «كيوبيدو بارتيني» الذي لم يكف عن ترديد أن الهر «مانفريد جايجر» سيكون في انتظاره في مطار أبيدچان، وأنه أبرق إليه بأنه حجز جناحًا بالفعل في فندق لاڤوار له وللآنسة «ليليان».

كان مع عصمت كارجي وليليان أربع حقائب وضعت على الميزان أمامهما في دكار، ولصقت على تذكرة السيد عصمت أربع قطع من الورق تحمل أرقام الحقائب الأربع، واختفت الحقائب، وكان الوداع حارًا.

وفي أبيدچان، كان الهر «مانفريد جايجر» في انتظاره بالفعل... وكان سعيدًا باستقبال عميل كهذا، لكنه كان في ضيق من ذلك السياج المخيف من الأمن الذي ضرب حول كل شيء في أبيدچان منذ أن اقتربت زيارة رواد الفضاء... ومن وجهة نظر «مانفريد جايجر» كان هذا منطقيًا، لولا أنه كان يعلم بقرب وصول الحفار «كينتنج» والقاطرة «چاكوب ڤان هيموكيراك» القادمين من حيث لا يعلم المبحران فيما بعد إلى حيث لا يدري.

وبالأمس، وصلت قاطرة بلجيكية تدعى «آلبي» رست على رصيف خصص لها، ووضعت عليها حراسة خفية وصارمة لسبب لا يدريه، ولقد قام مكتبه بتزويدها بكل ما تريد برغم السياج الكثيف الذي أحاطوها به... فلماذا؟! وما الذي يحدث؟! وما هذا الذي يفعله هؤلاء القوم في كل أنحاء الدنيا؟! وبينه وبين نفسه، كان «مانفريد جايجر» يلعن هؤلاء القوم ليل نهار، إنه مضطر للرضوخ لكل ما يطلبون ومنذ سنوات هددوه بإفشاء سره، وبأنه كان نازيًا متعصبًا... وهو لم يكن كذلك في أي يوم من أيام حياته، ولكن: كيف يستطيع أن يثبت هذا؟! بينما هم قادرون على

إثبات أنه كان «هتلر» نفسه... لذلك، فلم يطل الأمر بينه وبين نفسه، كان قد قرأ عن إيخمان وما فعلوه به، وسمع عن عشرات القصص التي كانت تصله عبر السنين من أوربا وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة... ولم يطل الأمر بينه وبينهم أيضًا فلقد رضخ وأطاع.

ولكن، بالنسبة لرجل أوربي مثل «مانفريد جايجر» يعيش في أبيدچان منذ سنوات طويلة، ويعرف حركة السفن والمال فيها جيدًا، فإن عميلًا مثل عصمت كارجي من الصعب التفريط فيه، ولو كان قد وصل في وقت آخر لفعل من أجله الكثير.

وفي مطار أبيدچان لم تلحظ «ليليان» أن أوراق الحقائب الأربع التي كانت ملتصقة بتذكرة صديقها عصمت كارجي، كانت قد أصبحت ورقتين فقط... لم تلحظ هذا، ولكنها لاحظت أن الحقائب الأربع التي وضعت على الميزان أمام عينيها في دكار، أصبحت حقيبتين فقط... أشار إليهما عصمت كارجي فأسرع الحمال الذي كان الهر مانفريد قد خصصه له، برفعهما.

لم تكن «ليليان هيجو» ـ وهذا هو اسمها في جواز السفر ـ تعرف عن صديقها الثري شيئًا، ولم يكن هذا ليعنيها في كثير أو قليل... كل ما تعرفه أنها جميلة جمالًا صارخًا، وأنها غبية غباء بلا حدود... عرفت هذا في وقت مبكر من حياتها، فتعودت عليه، بل أحبته واطمأنت إليه... ذلك أنها اكتشفت في أثناء حياتها الممزقة في باريس، أن الذكاء يجر على صاحبه الكثير من المتاعب، وهي لم تكن تأنس إلى المتاعب وتنفر منها نفورًا شديدًا... لذلك فعندما رأت عصمت كارجي يشير إلى حقيبتين فقط... ركنت إلى غبائها، وأقنعت نفسها بأن تأثير شراب الليلة الماضية جعلها ترى الحقيبتين أربعًا.

تعلقت ليليان بذراع صديقها التركي وهي تقول:

ـ ألن نغادر المطار يا عزيزي؟!

وتمتم عصمت بكلمات بلا معنى وهو يخطو نحو المنطقة الجمركية في تؤدة من ليس على عجلة من أمره... وفي حقيقة الأمر، فلقد كان هو مشغولًا، طوال الدقائق التي مضت، بمراقبة مواطن سنغالي وصل إلى أبيدچان على نفس الطائرة، كان هذا المواطن قد أصيب بارتباك شديد عندما سقطت منه واحدة من حقيبتيه الثقيلتين فانفتحت أقفالها وتبعثر ما كان على السطح فيها من ملابس إفريقية وبعض مستلزمات منزله الجديد في أبيدچان وبعض الهدايا للأصدقاء... حاول في ارتباك بالغ إغلاق الحقيبة ففشل، ولم يجد أمامه سوى أن يخرج حبلًا وربط به الحقيبة ـ وكان الغريب أن الحقيبتين تشبهان حقيبتي السيد كارجي الناقصتين لولا بعض البقع والأوساخ التي علقت بهما ـ ثم هرول الرجل وقد تدلت من الحقيبة التي فتحت، أطراف ملابسه وأشيائه، وكان منظره مثيرًا للرثاء حقًا وهو يتقدم من المنطقة الجمركية والعرق يتصبب من وجهه خجلًا... وعندما وقف أمام ضابط المطار كان هذا مشغولًا عنه بمراقبة القادم الجديد إليه، الذي تتعلق بذراعه غادة فرنسية شديدة الحسن، بين أسنانه سيجار فاخر، وخلفه حمال يحمل حقيبتين... وقبل أن ينطق الضابط بكلمة، بدأ المواطن السنغالي في فك الحبل من حول حقيبته، لكن هذا لوح له في لا مبالاة بأن يمضي، فأسرع هذا شاكرًا يعيد ربط الحقيبة، ويغادر المطار لا يلوي على شيء.

وهكذا خرجت المتفجرات.

أما حقيبتا السيد عصمت كارجي، فلقد فتشتا تفتيشًا دقيقًا لم يخف على عين الباشا الذي كان يرقب الأصابع المدربة وهي تتحسس جدران الحقيبة وقاعها وغطاءها... وازدادت ابتسامته اتساعًا عندما سمح له

الضابط بالمرور، فشكره بأدب بالغ وفرنسية رفيعة جعلت ليليان تنظر إليه في دهشة من تعود أن يحدثها بفرنسية دارجة.

خارج المنطقة الجمركية، كان الهر «مانفريد جايجر» في انتظاره، معتذرًا عن عدم قدرته على دخول المنطقة الجمركية... وراح يحدثه في إسهاب عن الأمن الذي يزداد صرامة في العاصمة كلما اقترب موعد وصول رواد الفضاء الأمريكيين، لكنه بالطبع، لم يتحدث إليه بكلمة عن الحفار «كينتنج».

* * *

التأم الشمل وتجمع الفرسان الثلاثة مرة أخرى وكان اللقاء حارًا... عادت درجة الحرارة إلى الانخفاض في الخارج، لكن دفء اللقاء أنسى الرجال تشغيل جهاز التكييف، كان السكون شاملًا إلا من صوت نديم وهو يحكي لطاهر وعزت بدقة بالغة تفاصيل كل الذي حدث في دكار.. عندما وصل إلى مطار القاهرة الدولي منذ يومين. وجد رسالة من طاهر رسمي تطلب منه أن يتوجه إلى البيت فورًا، وأن يأخذ إجازة ليومين كاملين يقضيهما مع الأولاد... ظن نديم في البداية أن شيئًا حدث لأحد ولديه فسأل في فزع:

ـ العيال بيهم حاجة؟

جاءه الرد مشفوعًا بابتسامة مطمئنة بأن كل شيء على ما يرام... فقط، عليه أن يرتاح تمامًا، وأن ينام ملء جفنيه. فثمة أيام قادمة لن يعرف للنوم فيها طعمًا.

لم يكن هذا هو الأسلوب المتبع في مثل هذه الأحوال، ولقد كان الأمر أخطر من الركون إلى الراحة لمدة يومين... لكن طاهر رسمي كان له رأي آخر: أن الحفار الآن في المحيط وأمامه على الأقل ستة أيام كي

يدخل أبيدچان إن دخلها أصلًا ـ وأن الإجازة سوف تفيد نديمًا أكثر مما لو واصل العمل وهو مرهق بعد رحلة صعبة.

وقضى نديم ثمان وأربعين ساعة في الفراش، كان سعيدًا لشفاء ولديه، وكان سعيدًا أنه عاد إلى أسرته، لم يغادر الفراش إلا لتناول الطعام أو الجلوس ـ بالبيچاما ـ أمام التلفزيون... وكم كان إحساسه بالامتنان عميقًا لكل ما كانت تقدمه زوجته، أراد أن يقول لها شيئًا فمسحت على رأسه في حنان وهمست:

ـ لو شفت نفسك وإنت داخل علينا، حاتعرف أنا بعمل كده ليه.

وعندما انتهى اليومان، دق جرس التليفون في الصباح الباكر لليوم الثالث، وجاءه صوت طاهر رسمي وهو يصيح بأن الإجازة انتهت... تبادل الرجلان الضحكات، وأسرع نديم يقطع الطريق بسرعة أوصلته ـ برغم بعد المسافة ـ إلى مبنى جهاز المخابرات المصري في عشرين دقيقة.

* * *

التأم الشمل وتجمع الفرسان الثلاثة مرة أخرى وكان اللقاء حارًا، بعد ثلاث دقائق بالضبط كان نديم قد بدأ يحكي ويضع بين يدي طاهر وعزت، تقريره.

كان حديثه مرتبًا واضح المعاني سلسًا وكأنه تحول إلى فنان يرسم اللوحة، لا ضابط مخابرات يقدم تقريرًا، هذا شأن نديم قلب الأسد عندما يندمج في العمل فلا يرى في حياته سواه... ختم حديثه بأن قال إنه لم يغضب بالقدر الكافي لرحيل الحفار، بل انتابته راحة عميقة عندما رآه يمضي مبتعدًا... لقد اعتبر كل ما حدث ليس سوى «بروفة» لما لا بد أن يحدث في المرة القادمة.

ـ فين؟

هكذا سأله طاهر رسمي فرد على الفور:

ـ في أبيدچان بالتأكيد.

ـ وإيش عرفك إنهم حايدخلوا أبيدچان؟

ـ ده أنسب وقت، وأنسب مكان ليهم.

سأله طاهر وهو يميل نحوه:

ـ واحنا عارفين كده؟

ـ طبعًا.

ـ منين تضمن إنهم ما عرفوش إننا عارفين؟

وساد الصمت عميقًا لثوان مضت كدهور، أضاءت الصورة في ذهن نديم هاشم مرة واحدة.. وقفز عزت بلال من مكانه مقتربًا من طاهر رسمي الذي كان الآن يجلس إلى مكتبه هادئًا تمامًا... كان طاهر ـ بعودة نديم ـ قد استرد كل أسلحته، فبدأ في جلسته تلك كالثعلب يتربص بفريسته... قال نديم وهو ينتقل إلى مقعد قريب:

ـ ونويت على إيه؟

ـ إنت اللي تقول يا نديم.

وهكذا انكب الثلاثة، بحثًا عن الخطوط الرئيسية، للخطة الجديدة.

الفصل الحادي عشر
بدلًا من القرصنة

«صمتت لأنها أدركت أن فريد لن يقول إلا ما ينبغي عليه أن يقول... وصمت فريد لأنه وجد في الصمت مخرجًا من المأزق الذي خاض فيه بالرغم عنه».

من الحمق أن نحاول معرفة الأسلوب الذي فكر به طاهر رسمي وزميلاه في وضع الخطة النهائية لتدمير هذا الحفار المنكوب... لكننا نستطيع ـ بما توفر لدينا من معلومات ـ أن نحاول الاقتراب ـ ولكن في حذر بالغ ـ من هذا الأسلوب الفذ في التفكير، والذي نتجت عنه تلك الخطة التي أريد بها، لا أن تحكم الحصار حول الحفار فقط، بل وتطارده في الوقت نفسه.

كانت فكرة «المطاردة» هي العنصر الجديد الذي دخل حرب العقول هذه التي تأججت في تلك الأيام الأخيرة من شهر فبراير عام ١٩٧٠، وهي فكرة كانت تعتمد، لا على انتظار أو تحين الفرصة لضرب الحفار، ولكن على تحديد المكان وربما الزمان أيضًا.

لكن الغريب في الأمر، أن الرأي استقر على أن أنسب الأماكن لتدمير الحفار هي أبيدچان، التي كانت قد تحولت في الوقت نفسه، إلى قلعة أمريكية إسرائيلية حصينة، والتي تقول كل الحسابات: إن تدمير الحفار بها أمر يكاد يكون مستحيلًا.

كانت الخطة الثالثة ـ الخاصة بلاجوس ـ والتي وضعها طاهر رسمي في البداية، والتي أوحى له بها ذلك الفيلم من أفلام القرصنة الذي عرضه التلفزيون المصري ذات ليلة... تعتمد بالفعل على القرصنة... كانت تعتمد على اصطياد الحفار في عرض المحيط في أثناء سيره، والانقضاض عليه وإغراقه بعيدًا عن كل عين، وكل شاطئ.

قبل ذلك بشهور كان طاهر رسمي قد سمع عن نوع جديد من الصواريخ الصغيرة التي ابتكرتها العقول المصرية بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧، والاستعداد لعبور القناة... في البداية كانت هناك خطط ـ أو تصورات ـ عديدة لعبور القناة، منها خطط تعتمد على النزول في أماكن متفرقة من شبه الجزيرة المصرية ـ شرم الشيخ مثلًا ـ عن طريق البحر... وكان الأمر يحتاج إلى نوع من الصواريخ التي يمكن إطلاقها من زوارق مطاطية ذات تصميم خاص، لتطلق منها هذه الصواريخ على أهداف بحرية أو برية لتدميرها... ودخلت الصواريخ والزوارق العديد من التجارب، حتى أثبتت في نهاية عام ١٩٦٩ نجاحها وإمكانية استعمالها بكفاءة عالية.

وما إن رأى طاهر هذا الفيلم في تلك الليلة الشديدة البرودة، حتى واتته الفكرة.

فماذا لو استخدمنا سفينة تجارية مصرية، تزود بعدد من الصواريخ والزوارق، لتصطاد الحفار في عرض المحيط، كما كان يفعل القراصنة تمامًا، لتدمره وتبعثه إلى الأعماق؟

لذلك، كان الاتصال في البداية بالمصانع الحربية والاتفاق معها دون الإفصاح بالطبع عن المهمة المطلوب لها هذا النوع من الصواريخ، ولذلك كان الاتصال بالقوات البحرية ـ دون الربط بين هذا الاتصال وبين الاتصال الخاص بالضفادع البشرية، أو حتى هذا الاجتماع الذي تم في مبنى المخابرات لمعرفة كل شيء عن الحفار وإمكانية تدميره ـ ولذلك أيضًا كان استدعاء السفينة التجارية المصرية «نجمة يوليو» لتقطع رحلتها إلى هامبورج وتغير مسارها لتدخل ميناء لاجوس.

واكتملت الخطة الثالثة بوصول البعثة السينمائية المصرية ومعها هذان الصندوقان اللذان قيل إنهما يحويان معدات خاصة بالتصوير استوردها المخرج مدحت صبري، وفي كل منهما صاروخان على درجة

عالية من كفاءة التدمير، وصعد الصندوقان إلى السفينة نجمة يوليو في نفس ليلة وصول البعثة إلى لاجوس ووضعا في مكان آمن ذي درجة حرارة معينة، وتحت حراسة خفية لكنها مشددة... وبعد ذلك وصلت الزوارق وبقية المعدات اللازمة يومًا بعد يوم... وكانت تشحن تباعًا على ظهر السفينة وسط بضائع عديدة ومتنوعة؛ كانت تشحن في وضح النهار وأمام الجميع... أما البعثة، فلقد كان مطلوبًا في البداية، أن يلفت وجودها النظر في حدود معينة، واختير لها مكان يبعد عن لاجوس كثيرًا لتصوير المناظر الخارجية للفيلم... ولقد رصدت المخابرات المصرية عددًا من العيون التي كانت تتلصص على أعضاء البعثة في الغابة. وتتبع حركاتهم وتحركاتهم يومًا بيوم، بل ربما ساعة بساعة، بل، لقد نما إلى علم المخابرات المصرية، أن أحد الأجانب الذين كانت البعثة تستأجرهم لأداء خدمات فنية، كان يرسل تقريرًا يوميًا عما تفعله البعثة إلى إحدى السفارات الإسرائيلية في دولة مجاورة... وإمعانًا في التحدي، فلقد كان هذا الشخص بالذات، يطلب منه أن يصحب عزوز جابر وسعاد الحكيم في أي مشوار لهما إلى العاصمة كي يرصد كل ما يفعلان بأي أسلوب يشاء. وعلى كل... فلقد كان المفروض إذا ما أفلت الحفار في دكار وأبيدچان، أن تصعد البعثة السينمائية المصرية إلى السفينة «نجمة يوليو» على أن يصعد معها ـ دون أن يشعر حتى أعضاء البعثة أنفسهم ـ أربعة من أفراد القوات المسلحة الذين دربوا تدريبًا كافيًا على استخدام هذه الزوارق والصواريخ... حتى إذا ابتعدت السفينة بقدر كاف عن الشواطئ انطلقت إلى نقطة بعينها وسط المحيط، نقطة بعيدة عن مسارات السفن، لتغير لونها بالكامل في مدة قدر الخبراء أنه من الممكن اختصارها إلى ست عشرة ساعة، ثم ترفع علمًا مجهولًا لدولة لا وجود لها على خريطة الكرة الأرضية، ثم تنطلق بعد ذلك في أثر الحفار، حتى إذا التقت به، أنزلت الزوارق المطاطية بالصواريخ الأربعة التي كانت كافية تمامًا لإغراق الحفار وإرساله إلى عمق المحيط.

كانت خطة جهنمية بالفعل كما أطلق عليها عزت بلال.

وكان مستوى الأمن فيها من الكفاءة بحيث ثبت فيما بعد أن الإسرائيليين لم يرصدوا شيئًا يخص الحفار على الإطلاق في لاجوس قبل تلك الأيام الأخيرة من فبراير.

والآن... أصبح مطلوبًا أن تظل هذه الخطة تحت التنفيذ، حتى إذا فشلت الخطة الجديدة التي وضعها طاهر مع زميليه، نفذت بالكامل... ولذلك، وصل إلى لاجوس في اليوم التالي لوصول البعثة السينمائية من الأحراش المحيطة بمدينة «أويو» الرجال الأربعة المدربون على قيادة الزوارق المطاطية وإطلاق الصواريخ... ولكن، بعد تعديل طفيف حتمته الظروف، في أسلوب ظهورهم على المسرح.

* * *

وجد عزت ونديم نفسيهما أمام قرار نهائي وضعه طاهر رسمي أمامهما، هذا القرار هو: لا بد من ضرب الحفار في أبيدچان، وأبيدچان بالذات.

بدا القرار لأول وهلة غريبًا كل الغرابة... ذلك أن العناصر التي كانت تجمعت في الميناء الإفريقي، تبدو كلها عناصر «طرد» وليست عناصر «جذب»... بل، إن الأمر بدا مستحيلًا برغم أن المعاينة المبدئية التي قام بها محمود شوكت، أو الباشا، أو رجل الأعمال التركي عصمت كارجي، أكدت أن القيام بالعملية في هذا الميناء بالذات، مناسب تمامًا، وإن كان يبدو من سياج الأمن المضروب حول الميناء، وفي الفنادق والشوارع وكل مكان من الممكن أن يوجد به مصري واحد، مستحيلًا.

امتلأت المدينة برجال المخابرات المركزية الأمريكية ـ الذين ليس بالضرورة أن يكونوا أمريكيين ـ ثم إنها امتلأت ـ وعلنًا ـ برجال

الموساد... ثم كانت هناك تلك العناصر السياسية الشديدة الأهمية التي تمثلت في تلك الصداقة الوطيدة التي استطاعت إسرائيل أن تبنيها مع حكومة ساحل العاج، وهي صداقة اتخذت في ذلك الوقت أشكالًا متنوعة، تبدأ بالتسليح، وتنتهي بالسياحة وبناء الفنادق.

وكان معنى هذا، أن الجو العام كله كان مشحونًا «ضد» الوجود المصري أيًا ما كان.

ـ علشان كده، لازم نضرب الحفار هنا.

قالها طاهر وهو يدق بإصبعه فوق كلمة «أبيدچان» المكتوبة على شاطئ الساحل العاجي فوق الخريطة المعلقة أمام الرجال... فسأل عزت:

ـ وإذا ما دخلش أبيدچان؟

ـ إحنا نخليه يدخلها غصب عنه.

كان سؤال عزت مبنيًا على حقائق معلومة، وكان رد طاهر مبنيًا على خطة لا تزال تختمر في ذهنه.

كان سؤال عزت مبنيًا على حقائق تقول إن الأيام تمضي دون أن يدخل الحفار إلى أبيدچان أو أي ميناء من الموانئ المنتشرة بطول الساحل الإفريقي... وإذا كان الحفار قد غادر دكار في فجر يوم ١٩ فبراير (شباط) عام ١٩٧٠، فإن سفينة دانيماركية قد غادرت لاجوس في نفس اليوم، ولقد بُثت رسالة من فوق ظهر هذه السفينة، إلى إحدى موانئ غرب إفريقيا فيما بين لاجوس ودكار، تقول: إن الحفار شوهد ـ بعد ثلاثة أيام ـ وهو مبحر نحو الجنوب... وإذا كانت أبيدچان تقع في هذا المنعطف الحاد لساحل القارة الغربي، فإن مساره بدا وكأن وجهته ليست أبيدچان بأي شكل من الأشكال.

كانت هذه هي أولى الحقائق التي لفتت أنظار الرجال الثلاثة... أما الحقيقة الثانية فلقد كانت أغرب بكثير، فرغم اختفاء سارة جولدشتاين وديڤيد ليڤنجر في نفس يوم رحيل الحفار، فهما لم يظهرا في أبيدچان، ولا في لاجوس... ليس هذا فقط، بل إنهما لم يظهرا في كوناكري ولافري تاون ولا منروفيا ولا حتى رأس بالماس الموجودة على الحدود ما بين ساحل العاج وليبيريا... فأين ذهبا إذن؟!

ثم كانت هناك حقيقة ثالثة أغرب من سابقتيها... فلقد أرسلت الصحفية الهولندية لونا بايرن برقية تقول إن القاطرة «آلبي» الراسية في أبيدچان، والتي كان المفروض أن تحل محل القاطرة «چاكوب ڤان هيمو كيراك» التي تسحب الحفار، تستعد بشكل سري للغاية لمغادرة أبيدچان، وإن المعلومات التي حصلت عليها لونا تقول إن القاطرة ستبحر في وقت يجعل الإحساس برحيلها صعبًا، ذلك أن سلطات الميناء بالتعاون مع آخرين لا تعرفهم لونا ـ وإن كانت ترجح أنهم إسرائيليون ـ يحاولون العثور على قاطرة أخرى في أي ميناء قريب كي تحل محل «آلبي» بحيث إذا أبحرت هذه في جوف الليل حلت القاطرة الجديدة محلها ورفعت علمًا بلچيكيًا، فلن يشعر أحد بفارق كبير، بل قد لا يشعر أحد على الإطلاق.

هذه الحقائق الثلاث ـ مع حقائق أخرى لا نملك الإفصاح عنها ـ كانت توحي بأن الحفار لن يدخل أبيدچان، وأن كل ما يحدث في الميناء العاجي من تحركات ليس وراءه سوى هدف واحد، هو إبعاد الأنظار عن الميناء الحقيقي الذي سيدخله الحفار.

قال نديم هاشم وهو يحملق في الخريطة:

ـ على العموم لو ما دخلش أبيدچان، حايبقى قدامه أكرا ولومي وبورتو نوفو ولاجوس».

صاح طاهر رسمي:

ـ إحنا ليه بنفكر في الموانئ الكبيرة بس؟

قال طاهر هذا، فهوى الصمت في الغرفة كقنبلة بلا صوت.

في الحقيقة، إن صيحة طاهر رسمي لم تأت من فراغ، فلقد كانت هناك «ملاحظة» في رسالة لونا بايرن، بدت وكأنها إضافة نشطة من الصحفية الهولندية... كانت الملاحظة تقول إنها سمعت ـ في أثناء تناول العشاء مع مسؤول الإعلام الأمريكي ـ كلمة عابرة في أثناء لقائه بأحد أصدقائه في المطعم، وإنها لم تعرف مدلولها... هذه الكلمة هي: «بورت هاركوت».

ـ إيه بورت هاركوت دي؟

ـ آهيه.

كان السؤال من نديم، وكان الرد من عزت الذي وضع يده عند نقطة في أقصى الجنوب الشرقي للساحل النيجيري... ولم تكن «بورت هاركوت»، سوى ميناء صغير لا يصلح لرسو السفن الكبيرة يقع عند مصب أحد فروع دلتا نهر النيجر... وإن كان ما يرسو فيه، ليس سوى بعض سفن الصيد، أو السفن الصغيرة.

ـ الحفار والقاطرة مش مراكب كبيرة، ومش محتاجين لغاطس كبير، وبالتالي، مش مهم إنهم يدخلوا ميناء كبير.

هذا ما قاله طاهر فعاد الصمت بين الرجال لثوان لكن نديم عاد يسأل عزت:

ـ برضه إيه بورت هاركوت دي يا عزت؟

قال عزت:

ـ ميناء صغير، والمكان كله مستنقعات، وأي حركة فيه مهما كانت، حاتبان وتلفت النظر.

كان الأمر يبدو مثل مأزق... وإذا كانت هذه الملاحظة العابرة من لونا بايرن هي السبب المباشر الذي دفع طاهر رسمي إلى خلط الأوراق والتعديل والإضافة والتبديل والتحدي، ثم خلق هذه الخطة الجديدة التي كانت تعتمد، أشد ما يكون الاعتماد، على دفع الحفار دفعًا إلى دخول أبيدچان... فإن الأمر قد بدا الآن وكأن الخطوة الأولى، هي «تطفيش» الحفار بعيدًا عن بورت هاركوت، ولن يتأتى هذا إلا بإشعار الإسرائيليين بتواجد مصري كثيف في نيجيريا... ليس في لاجوس وحدها، بل في بورت هاركوت بالذات.

* * *

كان وصول البعثة السينمائية المصرية إلى لاجوس عاصمة نيجيريا، بمثابة مهرجان فني اهتزت له المدينة... فلقد أقام السفير المصري، ليلة وصول البعثة من مدينة «أويو»، حفل عشاء دعا إليه عددًا كبيرًا من الصحفيين والإعلاميين وأعضاء السفارات والمسؤولين في نيجيريا... وكانت دلال شوقي هي نجم هذا العشاء الذي بهر الأنظار؛ كانت في تصرفاتها وبشاشتها ـ التي بذلت جهدًا هائلًا حتى تبدو طبيعية تمامًا ـ نموذجًا للفنانة التي تشرف أي دولة تنتمي إليها... وخرجت صحف اليوم التالي تحمل صور دلال شوقي والمخرج مدحت صبري الذي بدا في الصور كنجوم السينما، وحفلت الصفحات بمقالات وتعليقات عن الفن المصري والسينما المصرية، كما حفلت بالعديد من مشاهد الفيلم التي صورت في الأحراش، والتي التقطتها مساعدة المخرج سعاد الحكيم بكاميرا لم تكن تغادرها طوال فترة عملها في الفيلم.

وفي يوم وليلة أصبحت البعثة السينمائية المصرية حديث الناس في

لاجوس، وزاد من ذيوع الأمر، تلك المشاهد التي حشدت لها وزارة الداخلية النيجيرية عددًا هائلًا من رجال البوليس الذين كانوا يضربون حول البعثة نطاقًا يمنع عنها الجمهور الذي تقاطر كي يشاهد التصوير الذي كان يتم في الشوارع والفنادق وفي الميناء وما حولها وفي أماكن كثيرة كان يتم اختيارها بأسلوب بدا للعاملين في الفيلم ـ خاصة عزوز جابر ـ غامضًا كل الغموض.

كانت التعديلات التي وضعها كاتب السيناريو في القاهرة، تستلزم وجود عدد من الممثلين الثانويين ـ أو الكومبارس ـ وبالتحديد أربعة منهم... أربعة من هؤلاء الفنانين الذين تجدهم دائمًا وبكثرة، في قهوة «بعرة» الكائنة في شارع توفيق القريب من ميدان التوفيقية في وسط مدينة القاهرة، وعندما قرأت دلال التعديلات، أثارت مع مدحت مشكلة عدم وجود فنانين في نيجيريا يصلحون لتلك الأدوار... لكن مدحت رد عليها بأسلوبه الواثق الهادئ إنه قد طلب من سعاد أن تقرأ التعديلات في لاجوس، وأن ترسل برقية تطلب فيها من القاهرة إرسال الفنانين الأربعة على وجه السرعة.

ورغم أن رد مدحت بدا مقنعًا، فلابد من الاعتراف أن هذه كانت نقطة ضعف في الخطة التي وضعها طاهر رسمي على وجه السرعة... فإن وصول الفنانين الأربعة في اليوم التالي مباشرة لوصول البعثة، كان أمرًا مثيرًا للشك، ثم... كان تصرف سعاد الحكيم، بطلب الأربعة وبمواصفات معينة دون الرجوع إلى المخرج تصرفًا ـ بالتأكيد ـ غير مألوف، وفوق هذا وذاك، كان السؤال المطروح: لمن أرسلت البرقية والمنتج المسؤول ـ المفروض أنه عزوز جابر ـ موجود مع أفراد البعثة في نيجيريا، ومكتبه في القاهرة لم يتلق طلبًا من أي نوع؟

أضف إلى هذا كله، أن الرجال الأربعة الذين وصلوا، كانوا من رجال القوات المسلحة المكلفين بإطلاق الصواريخ على الحفار في عرض

المحيط، والذين تلقوا تدريبًا سريعًا على يد أحد أساتذة التمثيل في المعهد العالي للفنون المسرحية، الذي رحب بالمهمة عندما قيل له إنهم سيلعبون هذه الأدوار في فيلم يكتبه ويخرجه ويمثله أفراد من القوات المسلحة... إذا كان الأمركذلك، فلقد فات طاهر رسمي أن هذا النوع من «الكومبارس» معروف لا للفنانين والمنتجين فقط، ولكن لعامة الناس من أفراد الشعب، نتيجة لظهورهم في عدد هائل من الأفلام، حتى أصبحت وجوههم معروفة، بل مألوفة أيضًا.

ولقد دهش عزوز جابر عندما رأى الممثلين الأربعة الذين وصلوا، وفي الحقيقة فإنه لم يهتم كثيرًا أن الأمر تم دون استشارته، بل كانت دهشته لسرعة وصولهم من ناحية، ولعدم معرفته بأحد منهم من ناحية أخرى... لذلك، فلقد راح يسأل كلًا منهم عن الأفلام التي ظهر فيها، والمخرجين الذين عمل معهم، وكان سهلًا أن يرد عليه هؤلاء بما لقنوا به في القاهرة تلقينًا حفظوه عن ظهر قلب.

أما دلال شوقي، فرغم الأزمة النفسية الحادة التي كانت تمر بها، فلقد ابتسمت بينها وبين نفسها، وأدركت أن القادمين الجدد ليسوا ممثلين من بعيد أو قريب، وأنهم رجال سيلعبون دورًا في المهمة التي من أجلها جاءت إلى هذه البلاد... ومن ثم، فلقد قررت أن تساعدهم على أداء أدوارهم بقدر ما تستطيع.

وقال الذين شاهدوا الفيلم بعد ذلك، إنها أفلحت، وأكملت ما بدأه أستاذ الأداء التمثيلي في القاهرة.

* * *

وكان اليوم التالي لوصول البعثة السينمائية إلى لاجوس، يومًا شاقًا بكل المعاني... فلقد أصر المخرج مدحت صبري، أن ينتهي من تصوير مشاهد بعينها قبل سفر البعثة إلى مدينة اسمها «بورت هاركوت» في أقصى جنوب الساحل النيجيري... وراح أعضاء البعثة يتساءلون عن

«بورت هاركوت» هذه، وطلبوا من بعض المعجبين من المواطنين خريطة لنيجيريا، وأخذ المواطنون يتسابقون في شرح مكان «بورت هاركوت» وما يحيط بها من مستنقعات، ويتحدثون عن دلتا نهر النيجر، وعن التماسيح وحيوانات البحر التي تكثر بشدة في هذه البقعة... ومع تنقل الكاميرا من مكان إلى مكان، من أحد الشوارع الرئيسية وسط المدينة، إلى مدخل الميناء، إلى بهو فندق من فنادق الدرجة الأولى، إلى مطاردة في شوارع إحدى الضواحي... ثم ـ وقبل الغروب بساعة ـ إلى إحدى الأسواق الشعبية، حيث صورت دلال شوقي مشهدًا رائعًا بينها وبين أحد هؤلاء الممثلين المزيفين، الذين عوملوا من الشعب النيجيري معاملة النجوم... حتى إذا انتهى عمل اليوم، كان خبر وجود المصريين في لاجوس قد أصبح في كل بيت، بل، وفي كل كوخ.

عند الغروب عاد الجميع إلى الفندق، ما عدا مدحت صبري الذي كان على موعد، بصحبة أحد رجال السفارة المصرية في لاجوس، مع أحد المسؤولين في إحدى الإدارات الحكومية.

كان المخرج المصري يريد إذنًا بالتصوير في ميناء «بورت هاركوت» لتصوير بعض المشاهد في قرى الصيادين المنتشرة وسط مستنقعات دلتا نهر النيجر... ولقد دهش المسؤول النيجيري لاختيار بورت هاركوت بالذات، فهناك العديد من قرى الصيادين القريبة من لاجوس، والمنتشرة بطول الساحل... فلماذا هذا الميناء البعيد عن لاجوس؟!

لكن مدحت كان مقنعًا تمامًا عندما قال للمسؤول النيجيري: إن قصة الفيلم مأخوذة عن رواية فرنسية بعنوان «سيدة الأدغال» وإن أحداث الرواية تدور في أحراش نيجيريا، كما تدور في لاجوس، وفي منطقة المستنقعات حيث تكثر التماسيح... وعندما ذكر له مدحت أسماء بعض القرى والأماكن هناك، والتي قرأها في الكتاب، اقتنع الرجل،

بل تحمس، وأعطى الإذن للبعثة بالسفر إلى الميناء الصغير.. وعندما أضاف الدبلوماسي المصري الذي صحب مدحت رجاء نقله عن السفير شخصيا، بالإبراق إلى السلطات في «بورت هاركوت» خاصة سلطات الميناء بتسهيل مهمة البعثة ومساعدتها طوال مدة إقامتها التي تستغرق أسبوعًا أو أسبوعين.. أبدى الرجل حماسه البالغ، وأجرى اتصالًا تليفونيًا خرجت على أثره برقية من لاجوس مع توصيات جهات عليا في الحكومة، إلى كل السلطات في الميناء الصغير، بتوفير كل مساعدة ممكنة للبعثة التي قدر لها أن تغادر لاجوس في غضون يومين أو ثلاثة.

ولما كان الطريق من لاجوس إلى بورت هاركوت بالقطار يستغرق وقتًا طويلًا فوق مشقته، إذ كان الخط الحديدي الذي يصل المدينتين، يأخذ مسارًا يتجه نحو أقصى شمال البلاد عند مدينة «كادونا» على مشارف هضبة «بوتشي» ثم يعود جنوبًا إلى بورت هاركوت... فلقد تم استئجار أوتوبيس من إحدى شركات تأجير السيارات، كما تم استئجار سيارتين ليموزين، خصصت إحداهما لدلال شوقي والمخرج مدحت صبري، وتقرر أن تسافر السيارة الثانية في صباح اليوم التالي مباشرة، تحمل ثلاثة من العاملين في الفيلم ـ لم يعرف أحد عنهم شيئًا على الإطلاق ـ وكانوا يحملون خطاب توصية إلى حاكم المدينة، للسماح لهم بمعاينة أماكن التصوير.

* * *

وصلت البرقية إلى «بورت هاركوت» فأحدثت ـ برغم تأخر الوقت ـ موجات متلاحقة من الأنباء والاستعدادات لاستقبال المصريين القادمين... وتحدث بعض الذين عرفوا بأمر البرقية من المواطنين في دهشة... عن الأهمية التي ظهرت فجأة لمدينتهم بالنسبة للأجانب.

وفي الساعة السابعة وعشر دقائق هبطت في مطار لاجوس إحدى طائرات شركة «إير فرانس» وعليها ثلاثة من الدبلوماسيين المصريين المكلفين ببعض المهام في السفارة.. والغريب في الأمر، أن اثنين من الثلاثة كانا دبلوماسيين فعلا، بل ومعروفين في لاجوس، ولقد توجهوا جميعًا من المطار مباشرة إلى مبنى السفارة المصرية التي ظلت نوافذها مضاءة طوال الليل.

وباتت لاجوس، كما باتت بورت هاركوت، ولا حديث فيهما إلا عن المصريين.

و......

وكان هذا هو كل ما يريده طاهر رسمي... ثم جلس ينتظر النتائج.

* * *

في هذا اليوم عادت دلال شوقي إلى الفندق منهكة، ما إن هبطت من السيارة التي خصصت لها حتى استقبلتها مظاهرة صغيرة من المعجبين والمعجبات الذين التفوا حولها طالبين توقيعها في أوتوجرافاتهم، واستجابت دلال لمطالبهم فالتقطت لها عشرات الصور معهم... كانت تفعل هذا وهي تبتسم وتضحك وتحدثهم بفرنسية سليمة زادت من إعجابهم وانبهارهم بشخصيتها، وبينما كانت هي تطلق ضحكاتها المرحة وتوزع ابتسامتها التي بدت خلابة، كان قلبها يتمزق ألمًا، وكانت تهفو إلى لحظة تختلي فيها بنفسها علها تستطيع أن تنفس عما بها، لعلها تستطيع أن تبكي.

أخيرًا دخلت دلال غرفتها، أغلقت الباب وألقت بنفسها فوق أحد المقاعد وراحت تفكر فيما حدث... كانت تتساءل عما ألم بها، هل برح بها الحب إلى الحد الذي كانت تهفو فيه إلى كلمة من مدحت، هل نسيت نفسها فراحت تطارده أينما ذهب وحل، بينما كان هو مستغرقًا تمام الاستغراق في عمله هذا المضني؟! كل ما تعرفه أنها أرادت أن تتبادل معه حديثًا، أي حديث... أن يقول لها أي شيء أو تقول له أي

كلام... وحاولت دون جدوى... حتى إذا كانت مرة فيما بين مشهدين، أعادت المحاولة فالتفت نحوها بأدبه الشديد، ومال عليها هامسًا:

ـ ممكن نأجّل الكلام لبعد التصوير يا مدام؟

لم يخطئ مدحت، لا لم يخطئ... ولم يقل شيئًا مهينًا أو خارجًا، لا لا... لم يفعل ذلك، لكنها أحست بالإهانة تلسعها كصفعة دوت فسمعها الكون كله، ارتجفت، انسحبت متعثرة، اقترب منها عزوز وتحدث إليها فلم تسمعه، من أعماقها تصاعد هذا الإحساس المروع بالمهانة لسبب لا تدريه... قاومت وعملت وصورت ومثلت وكانت تهفو إلى لحظة تختلي فيها بنفسها، عادت إلى الفندق تحدوها رغبة جارفة في البكاء، وها هي تجلس في غرفتها وحيدة تبحث عن الدمع فلا تجد سوى حريق يلهب جفونها... خلعت ملابسها استعدادًا لحمام بارد أرادت أن تطفئ به نارًا راحت تتأجج في جوانحها، خطت نحو الحمام خطوة ثم تسمرت بلا سبب، أحست أنها تحترق فضغطت زر المروحة الهائلة المدلاة من السقف فصنعت المروحة مع جهاز التكييف موجات من الهواء رطبت جسدها... ثم انزاح كل شيء ليأتي فيض من الحزن فيغمرها... حزينة هي لا لأنها تحب مدحت صبري، ولا لأنها تعلم ألا أمل في هذا الحب، لكنها حزينة لذلك الإحساس المميت بالعجز الذي احتواها منذ التقت بهذا الرجل فراحت تمضغ عجزها في صمت المستسلم... تذكرت جملة مدحت فانسحب الحزن ليحل محله غضب هائل، فصرخت في الجدران الأربعة فيما حولها:

ـ إنت فاكر نفسك مين... دانا دلال شوقي.

كانت تقف الآن وسط الغرفة تنتفض، اختلطت الأفكار في رأسها فراحت تتساءل عمن تكون دلال شوقي الآن... وعادت تصرخ ملتاعة:

ـ طظ... طظ.

جلست على حافة الفراش وقد تداخل جسدها وأرادت لنفسها أن

تهدأ... دق جرس التليفون فانتفضت، مدت يدها إلى السماعة ورفعتها في محاولة للسيطرة على نفسها، قالت بفرنسية سليمة:

ـ وي.. آلو.

ـ إزيك؟

جمدت ذاهلة وقد فجر الصوت في صدرها شيئًا.

ـ باقول إزيك يا دلال.

جاشت نفسها بكل ما فيها من عذاب فهمست غير مصدقة:

ـ فريد...

ـ أيوه.

ـ بتتكلم منين؟

ـ من السفارة.

بالحنين عندما يتفجر من القلب كالطوفان، اندفعت الدموع كالشلال من قلبها إلى عينيها وكأنها كانت في انتظار إشارة بدء غامضة، حاولت أن تنطق فخافت أن يفضحها صوتها أمام الصديق الذي أرسله القدر... طال الصمت فعاد صوت فريد ذهني ينادي عبر السماعة:

ـ دلال.

أين هي ممن يمسح الآن على رأسها في حنان، كان لا بد أن تنطق فخرجت كلمة «فريد» من بين شفتيها مبللة بالدمع ممزقة بهوان بلا حد... سمعت صوت فريد وكان قلقًا:

ـ ما لك يا دلال؟

فليعلم كل الناس الآن أنها مهزومة فما عادت تحتمل انفجرت في نشيج حاد، وراحت كلماتها تتبعثر بلا رابط:

ـ تعال يا فريد... تعال لي من فضلك.

* * *

حتى عصر يوم ٢٦ فبراير (شباط) لم يكن الحفار قد ظهر بعد... وبالرغم من ذلك، فلقد شهد هذا اليوم، أجمل اللحظات التي مرت بطاهر رسمي منذ أن احتل غرفته تلك قبل ما يزيد على الستة أسابيع.

ففي عصر هذا اليوم، وبالتحديد في الساعة الرابعة بعد الظهر بتوقيت القاهرة، وصلت إلى وزارة الخارجية المصرية رسالة من سفارتنا في لاجوس عن طريق التلكس الدولي الذي يستطيع أي إنسان في العالم أن يلتقط رسائله... كانت الرسالة فيما يبدو تخص أحد أفراد السفارة، وتتحدث عن أمور شخصية، ومرسلة إلى أحد زملائه في القاهرة، وكان الحديث يدور حول البيت والعائلة والانتقال والسفر وما إلى ذلك... وفي الرابعة وخمس عشرة دقيقة، غادرت إحدى السيارات فناء وزارة الخارجية لتصل إلى مبنى المخابرات العامة حاملة تلك الرسالة الغريبة.

عندما تسلم طاهر الرسالة كان يجلس وحده، راحت عيناه تجريان على السطور بسرعة، لكنه عندما وصل إلى منتصفها اعتدل في جلسته كمن لا يصدق عينيه، وسرعان ما فتح درج مكتبه وأخرج النسخة الوحيدة من دفتر الشفرة التي كان يحفظها عن ظهر قلب، لكنه إمعانًا في التأكد، راح يحل رموز الكلمات كلمة كلمة... حتى إذا انتهى، كانت الابتسامة قد اجتاحت كل ملامحه.

كانت الرسالة تقول: إن سارة جولدشتاين وديڤيد ليڤنجر وصلا إلى ميناء بورت هاركوت في مساء يوم ٢٠ فبراير (شباط) ـ أي اليوم التالي لرحيل الحفار من دكار ـ تحت اسمي «باربرا هوفمان» و«إيزاك ديستان» وقدما نفسيهما للسلطات هناك على أنهما صحفيان أمريكيان جاءا

لعمل تحقيق صحفي عن الصيادين في المستنقعات... وكانا يحملان جوازي سفر أمريكيين، وخطاب توصية من العاصمة... وفي صباح يوم ٢١ فبراير استأجرا زورقًا طافا به في الميناء لساعات والتقطا عددًا هائلًا من الصور... وفي الأيام التالية، قاما بجولات مكثفة في المدينة وصورا الصيادين في أكواخهم وقواربهم ومعداتهم... لكنهما فجأة، وقبل منتصف ليلة ٢٤-٢٥ فبراير (شباط) - أي في نفس الوقت الذي أرسلت فيه البرقية من لاجوس إلى سلطات بورت هاركوت بخصوص البعثة السينمائية المصرية - تلقيا برقية بدت شديدة الأهمية، فلقد حزما أمتعتهما وحاولا مغادرة المدينة في جوف الليل لولا تعذر الأمر لرداءة الطريق ولعدم وجود قطارات في مثل هذا الوقت... فانتظرا حتى الصباح، وغادراها مع أول أضواء الفجر، وكانا يبدوان في عجلة من أمرهما.

كانت سعادة طاهر رسمي حقيقية وغامرة، لا لأن الكلمة التي أرسلتها الصحفية الهولندية «لونا بايرن» عفوًا، كانت مفتاح لغز محير، ولكن لأن تقديراته كلها أثبتت دقتها إلى حد يبعث على الإعجاب... وأكثر من هذا، كان معنى ما حدث، أن خطته في «تطفيش» الحفار من نيجيريا، ودفعه دفعًا إلى ساحل العاج، قد أفلحت.

في سرعة من أصبح واثقًا من موقع قدميه راح طاهر يكتب برقية بثت في الحال إلى أزمير في تركيا، ثم خرجت من أزمير عن طريق التلكس الدولي إلى رجل الأعمال التركي عصمت كارجي الذي ينزل في فندق «لاڤوار» الإسرائيلي بأبيدچان عاصمة ساحل العاج... وكانت البرقية تطلب منه أن يجري اتصالًا بالصحفية الهولندية لونا بايرن التي تنزل معه في نفس الفندق، وأن يخبرها بأسرع ما يمكن أن «زاكري» سوف يصل في خلال الأيام القادمة... ثم طلب منه البحث عن سارة جولد شتاين وديڤيد ليڤنجر وأن يضعهما بمجرد عثوره عليهما تحت رقابة شديدة الصرامة.

أرسل طاهر البرقية ثم رفع سماعة التليفون وطلب رقمًا:

ـ زكريا... تعال لي من فضلك.

كان زكريا، أو «زاكري» كما تسميه لونا بايرن من الرواد الأُوَل الذين سكنوا مدينة نصر، ولذلك... فبعد أقل من نصف ساعة، كان يجلس أمام طاهر الذي بادره بالقول:

ـ إنت ممكن تسافر إمتى؟

ـ دلوقت إذا حبيت.

قال عزت بلال الذي كان قد عاد من مهمة خارج الغرفة وعلم بأمر البرقية فانتابته حماسة بالغة:

ـ فيه طيارة حاتقوم الليلة على باريس.

ـ آخدها.

ـ حاتفضل في مطار «شارل ديجول» لحد الساعة اتنين بعد نص الليل، وبعدها حتاخد طيارة تانية من نفس المطار توصلك أبيدچان وش الصبح.

ـ وهو كذلك.

ـ آدي الباسبور، وآدي الفلوس.

هتف طاهر وهو يلوح في وجه زكريا:

ـ زكريا.

التفت نحوه زكريا فاستطرد طاهر منذرًا:

ـ إذا كانت سارة جولد شتاين وصلت أبيدچان، لونا بايرن حاتبقى معرضة لخطر أكيد.

* * *

في ذلك الوقت كانت لونا بايرن تمر بلحظات عصيبة بالفعل، داهمها إحساس مفزع بقلق غامض لم تدر له سببًا، تحولت أبيدچان في الأيام الأخيرة التي سبقت وصول رواد الفضاء إلى مسرح محموم لحركة مجنونة، غصت شوارع المدينة الجميلة بسيارات أمريكية وأخرى ألمانية وشخصيات ووجوه لم تألفها العاصمة العاجية من قبل... وكان أكثر الفنادق ازدحامًا هو فندق «لاڤوار» الإسرائيلي الذي لم يكن قد افتتح بعد، وتقرر أن يكون حفل افتتاحه هو حفل استقبال رواد الفضاء الأمريكيين، بدا هواء الفندق وكأنه يحمل شحنات توتر مرعب، امتلأت ردهاته وقاعاته وممراته برجال أمن كانت ستراتهم تنتفخ بما تحتها من أسلحة جاهزة دائمًا للإطلاق... أرادت مغادرة الفندق فأجرت مكالمة تليفونية مع مسؤول الإعلام في السفارة الأمريكية، وطلبت مقابلته لوضع الخطوط النهائية للتحقيق الذي ستجريه مع أحد رواد الفضاء، رحب بها الرجل فخرجت لا تلوي على شيء وكانت كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

عند الباب اصطدمت بذلك الرجل التركي الفظّ الذي يملأ الفندق بالضجيج.. ابتسم الرجل محاولًا الاعتذار، لكنها رمته بنظرة احتقار هائل، ومضت، فمضى هو إلى الداخل وكانت خطواته متعثرة لكثرة ما شربه من كحول... كانت البرقية التي أرسلت إليه من أزمير قد وصلت منذ ساعات وقبل أن يغادر الفندق، لكنها لم تسلم إليه في وقتها لسبب مجهول، وجد البرقية في انتظاره فراح يقرؤها في لامبالاة من لا يعنيه الأمر، كانت البرقية تتحدث عن صفقات ومواعيد وشركاء ووصول وسفر و... و... ويبدو أن السيد عصمت كارجي لم يعجبه في البرقية شيء فلقد كورها في قبضته بغضب وألقى بها إلى الأرض ومضى إلى البار.

ولقد بقي عصمت كارجي في بار الفندق فترة طويلة، وعندما لحقت

به صديقته ليليان، انتقلا إلى بهو الفندق، وكان الرجل يبدو سكران تمامًا.

* * *

في مكتب مسؤول الإعلام بالسفارة الأمريكية راحت لونا تراجع مع الرجل الخطوط الأخيرة لذلك التحقيق الغريب الذي كانت تزمع القيام به... فجأة، اقتحمت الغرفة فتاة ذات مظهر غريب، خطت خطوة، وهمت بالحديث عندما رأت لُونا، فتراجعت، لكن رجل الإعلام الأمريكي رحب بها في سعادة، فقدمها للونا على أنها صحفية مغربية اسمها «ليلى بو مسعود»، وأنها جاءت إلى أبيدچان لتغطية أخبار رواد الفضاء... وبالنسبة للونا كان اقتحام الفتاة للغرفة ـ مع وجود سكرتيرة ـ مثيرًا، وكان تراجعها أكثر إثارة.

كان اقتحامها للغرفة اقتحام زميل أو صديق أو صاحب بيت، وكان تراجعها تراجع غريب وفد كي يأخذ إذنًا أو يحصل على خبر... فما الخبر؟!

تبادلت معها كلمات ود بلا طعم، عرفت أنها تنزل في نفس الفندق فانغرست مخالب القلق أكثر في عقلها، مضت الدقائق ثقيلة وكان واضحًا أن الفتاة لن تغادر المكان قبلها، استأذنت وانصرفت، قبل أن تصل إلى الباب حانت منها نظرة نحو الفتاة المغربية، فأحست برغبة شديدة في التقيؤ.

في الطريق إلى الفندق تساءلت لونا بينها وبين نفسها: كيف تقتحم صحفية عربية مكتبًا في السفارة الأمريكية بمثل هذا الأسلوب... ثم، وبفرض أن المغرب على علاقة وطيدة بالولايات المتحدة، فكيف تنزل صحفية عربية في فندق إسرائيلي حتى ولو كانت بلادها تغص باليهود.

توقفت عند أحد التليفونات العمومية وكانت تشعر بخوف غامض، أرادت أن تتصل برجل طاهر رسمي الذي تعودت اللقاء به، فقيل لها إنه سافر، اجتاحها رعب بالغ فسألت متى يعود؟ وفي برود جاءها الرد بأن صديقًا له سوف يتصل بها قريبًا.

تلك لحظات لن تنساها لونا بايرن ما عاشت، أحست وهي تعيد سماعة التليفون أنها تقف في الشارع عارية تمامًا... منذ جاءت أبيدچان واتصلت برجل طاهر رسمي هذا وهي تشعر أنها في أمان، أن هناك من يحميها ويقف خلفها، لذلك راحت تعمل بجرأة وحماس... لكنها الآن... الآن...

دلفت إلى بهو الفندق فكأن أثقالًا تمنع قدميها من الحركة، ألقت بنفسها فوق مقعد فأحست وكأن هناك من ينظر إليها فتلسعها نظراته، رفعت رأسها فوجدت ذلك التركي الفظّ يجلس قبالتها وهو يحملق فيها بنهم... منذ وصوله إلى الفندق، عرفت أن اسمه عصمت كارجي، وأن اسم صديقته هو ليليان... عرفت هذا لأنه قدم نفسه إليها، ولكن لأن سيرته كانت على كل لسان، وفضائحه تزكم الأنوف، هربت من نظراته إلى المطعم، راحت تهرول بحثًا عن مهرب، طلبت عشاءً خفيفًا ولم تكن لها رغبة في الطعام، طلبت كأسًا من النبيذ لعلها تطفئ بها نار القلق المتقدة في صدرها، في انتظار الطعام تشاغلت عن مخاوفها ببعض الأوراق التي راحت تقلب فيها، عادت النظرات الوقحة تلسعها فرفعت عينيها فإذا عصمت كارجي في المائدة المقابلة، وعلى وجهه ابتسامة ذئب جائع، ارتبكت، تمنت لو أنها استطاعت أن تصرخ، تمنت أكثر أن تنهض إلى هذا التركي الفظ لتضع كل قلقها في صفعة تهديها إلى صدغه.

عادت إلى الهرب من جديد قبل أن يأتيها العشاء، ما كادت تخطو إلى غرفتها حتى أدركت أن هناك من اقتحمها وفتشها تفتيشًا دقيقًا..

لم تدرك هذا لأن شيئًا انتقل من مكانه، أو لفوضى حلت بالغرفة، لكنها أدركته عندما وقعت عيناها على أدوات زينتها فأحست أن يد امرأة أخرى قد عبثت بها.

ولا تدري لونا بايرن لم تذكرت في تلك اللحظة بالذات «ليلى بو مسعود».

لم يعد الخوف شكًا، وقفت وسط الغرفة كالحبيسة، لو أن صديق زاكري - رجل طاهر رسمي - كان هناك للجأت إليه، فلمن تذهب إذن؟ كان الصمت في الغرفة مخيفًا والوحدة جنونًا، اندفعت عائدة من حيث جاءت، وقفت أمام المصعد تتعجله في قلق، فتح الباب فدلفت إليه، وعندما هبط بها المصعد كانت تتنفس بصعوبة... توقف المصعد فخطت إلى الخارج لكنها اصطدمت مرة أخرى بهذا التركي الفظّ... رفعت إليه عينين تنفثان غضبًا بلا حدود، همت بالحديث فجاءها صوته شديد الخفوت وكأنه الهمس:

- مدموازيل بايرن.

همَّت بأن تصرخ فيه بأن يتحضر ويكف عن ملاحقتها.

- استمعي إليَّ جيدًا.

لم لا تصفعه وتنهي الموقف بفضيحة يتحدث بها نزلاء الفندق.

- ثم نفذي ما سأقوله بالحرف الواحد.

تخطى هذا الجلف كل الحدود، فلتلقنه درسًا لا ينساه.

- إني صديق زاكري.

اهتزت حتى الأعماق وتلاشى الغضب في لمح البصر فجاءها صوته مؤنبًا:

ـ اغضبي أيتها الآنسة ولا تفرحي.

استجابت الآن دون إرادة.

ـ زاكري سيصل قريبًا فلا تقلقي.

كادت دموع الفرح تطفر من عينيها.

ـ والآن اصفعيني.. اصفعيني بعنف.

كانت تتمنَّى أن تفعل هذا منذ دقائق.

ـ اصفعيني أيتها الآنسة وبغضب شديد.

كانت كلمته أمرًا فأطاعت.

ودوّى صوت الصفعة في الردهة المزدحمة فالتفت كل من فيها، وهوى السكون على الجميع.

ـ والآن... انصرفي وأنت تسبين وتلعنين.

وانصرفت لونا بايرن وهي تسب وتلعن، لكن فرحتها كانت تزغرد في صدرها، وبدأت نار الشوق تتقد في صدرها، في انتظار ملهوف للغد.

❊ ❊ ❊

في مساء ذلك اليوم بثت رسالة من أبيدچان إلى القاهرة مباشرة ـ بطريقة ما ـ ووصلت إلى يد طاهر رسمي في الثالثة صباحًا، كان الباشا يقول في رسالته إن سارة جولد شتاين ظهرت في فندق لاڤوار كصحفية مغربية اسمها «ليلى بو مسعود»، لكن ديڤيد ليڤنجر لم يظهر بعد، ويرجح أنه مختف في السفارة الإسرائيلية وليس في فندق آخر، وأنه أبلغ الرسالة إلى لونا بايرن فتلقى منها صفعة عنيفة تعبيرًا عن الشكر... أما عن الحفار، فليست هناك أخبار بالمرة.

❊ ❊ ❊

على بعد آلاف الأميال، كانت دلال شوقي تغادر باب الفندق في لاجوس إلى سيارة السفير المصري في نيجيريا، والتي كانت تقف في انتظارها، وقد علم الجميع أن السيدة حرم السفير قد وجهت لها دعوة للعشاء... كانت دلال ترتدي فستانًا ذا لون هادئ، وقد بدت وهي تدلف إلى سيارة السفير مشرقة سعيدة وعندما صفق لها بعض المارة في الطريق هزت رأسها في تحية مقتضبة.

وصلت السيارة إلى مبنى السفارة وكان ثمة من ينتظرها هناك ليقودها إلى الجناح الذي يقيم فيه السفير... تبعت الموظف إلى بهو واسع عبراه معًا إلى باب في الصدر، ما أن اختفت خلفه دلال، حتى انثنى الموظف إلى ممر ضيق يقود إلى سلم صغير معدود الدرجات صعدته دلال، فإذا بها أمام باب مغلق، دق عليه الموظف دقتين، ثم فتحه وتنحى عن الطريق، لتدلف دلال... وكان فريد في انتظارها هناك.

تسمرت دلال في مكانها فور رؤيتها لفريد... سمعت صوت الباب يغلق من خلفها فقاومت تلك الرغبة الجارفة في البكاء، مد لها فريد يده مصافحًا، فارتمت فوق صدره وجسدها يهتز ببكاء طال إلى دقائق.

بكت دلال، بكت كما لم تبك من قبل، وصمت فريد، تركها تنفس عما في صدرها، كان واحدًا من الدبلوماسيين الثلاثة الذين وصلوا إلى لاجوس، وكان، قبل أن يلتقي بدلال، يعرف كل شيء منذ وصول البعثة السينمائية إلى نيجيريا حتى اللحظة التي التقى فيها بدلال شوقي الآن.

وبرغم أن فريد ذهني ضابط مخابرات محنك، وبرغم صداقته الوطيدة لدلال وإعجابه البالغ بشخصيتها ومعرفته الوثيقة بها، فإنه لم يستطع حتى أن يكتم دهشته البالغة وهو يستمع إلى مساعدة المخرج «سعاد الحكيم».

كانت سعاد قد وصلت إلى السفارة في السيارة الچيب التي تستعملها البعثة... دخلت السفارة بملابسها البسيطة تلك، والمكونة من بلوزة وبنطلون چينز وحذاء خفيف... وكانت تحمل ـ كعادتها ـ مجموعة من الأوراق الخاصة بالفيلم أو احتياجات البعثة... لكنها ما إن دخلت إلى مكتب الموظف المختص الذي نهض مرحبًا بها، حتى أغلق خلفها، وقادها الموظف إلى باب جانبي في طرف الغرفة كان يؤدي إلى غرفة جانبية، وهناك التقت بفريد ذهني الذي كان قد وصل إلى لاجوس منذ ساعة وبعض الساعة.

اندفع فريد نحو سعاد مرحبًا بحرارة:

ـ إيه الأخبار يا ثريا؟

وكانت «ثريا جمعة» التي رافقت البعثة السينمائية تحت اسم «سعاد الحكيم»، ضابط مخابرات ذا مواصفات خاصة، فهي تجيد الملاحظة إلى الحد الذي يصبح من المستحيل أن يخفى عليها شيء مما يجري حولها... وكانت منذ بضعة أعوام، ولظروف خاصة، قد التحقت بمعهد السينما قسم الإخراج تحت اسم «سعاد الحكيم»، وعرفت سعاد ـ أو ثريا ـ في المعهد، على أنها طالبة من ذلك النوع الذي ليس له في الفن من بعيد أو قريب، كانت تنجح بتقديرات جيدة لكنها ما إن تخرجت حتى اختفت، وقيل يومئذ إنها قنعت بوظيفة زوجة سعيدة.

استمع فريد إلى ثريا في اهتمام ودهشة، حتى إذا انتهت، قال وهو يشعر بالمأزق الذي وضعته فيه الظروف:

ـ إنتي متأكدة يا ثريا؟

ابتسمت ثريا في غضب وهي تتمتم:

ـ وبعدين معاك يا فريد.

نهض فريد في قلق متسائلًا:

ـ مش دي حاجة غريبة؟

هتفت في انفعال:

ـ إيه هو اللي غريب ده؟

ـ دلال شوقي تحب؟

ـ هي مش إنسان؟

ـ أيوه... بس...............

توقف فريد عن الحديث أمام نظرات زميلته التي بدا أنها متحمسة لجنسها اللطيف، وكانت تنظر في ساعتها قائلة:

ـ أنا لازم أمشي.

كان فريد يعي أن وراء ثريا مهامًا أخرى أكثر خطورة وأهمية، ودعها شاكرًا وبقي في الغرفة وحده يقلب الأمر على كل وجوهه، كان مطلوبًا منه ألا يتصل بدلال شوقي إلا إذا رأى أهمية لذلك الاتصال، وجد نفسه أمام طريق واحد لا بديل له، تقدم من التليفون وطلب دلال.

في حنان حقيقي قال فريد:

ـ ما لك يا دلال، إيه اللي حصل؟

كانت دلال تمسح الدمع الآن، وكان هو يتحسس الطريق وسط أشواك بلا نهاية... تمتمت دلال وهي تهز رأسها عجبًا:

ـ مش عارفة يا فريد... مش عارفة.

كان يعلم مدى اعتزازها بكبريائها فاعتمد تمامًا على هذا الكبرياء، احتاج الأمر إلى فنجانين من القهوة المصرية الخالية من السكر...

وحديث مصطنع المرح عن الأحراش والوحوش، حتى قالت دلال فجأة وهي تطرق الموضوع في حذر من يبغي أن تظل رأسه مرفوعة:

ـ فريد... أنا حاسألك سؤال وعاوزاك تجاوبني عليه.

ـ إسألي يا دلال.

ـ مين هو مدحت صبري؟

قال فريد في ثبات من يعلم ألا بديل لرده:

ـ مدحت صبري هو مدحت صبري.

أنذرته دلال في تحفز:

ـ فريد.

في صدق من يوصد في وجهها كل الأبواب قال:

ـ ده كل اللي أقدر أقوله.

وكان في هذا الكفاية، هذه هي دلال شوقي... صمتت، فصمت.

صمتت لأنها أدركت أن فريد لن يقول لها إلا ما ينبغي عليه أن يقول، وألا سبيل غير ذلك، وصمت فريد لأنه وجد في الصمت مخرجًا من المأزق الذي خاض فيه بالرغم عنه.

نهضت دلال في تثاقل من جثم اليأس على صدره، سارت حتى النافذة التي كانت تطل على أحد شوارع لاجوس... كانت الآن قد أدركت أن فريد لا يريد الخوض في الموضوع وإن كان يعرف تمامًا كل شيء... قررت أن تحمل همها وحدها وهي تلتفت إليه في محاولة لاستعادة ذاتها:

ـ إنت جاي ليه؟

ـ عندي شغل.

ـ طلبتني ليه؟!

ـ علشان أطمئن عليكي.

نفثت عيناها نظرة غَضْبَى فاستطرد كمن يعتذر:

ـ وعلشان أطلب منك طلب.

ـ إيه هو؟

ـ فيه احتمال إنكم تطلعوا على مركب مصري موجود في الميناء هنا اسمه «نجمة يوليو»... المركب ده حايسافر، وحاتحصل عليه حاجات مش مطلوب أكثر من إنك تنسيها بعد ما تسيبي المركب.

مدت دلال يدها إلى حقيبة يدها استعدادًا للانصراف فاقترب منها فريد في ود:

ـ ما سألتيش عن الحفار؟

رفعت إليه رأسها ساخرة:

ـ وإذا سألتك حاتقول لي؟

في عتاب هتف:

ـ دلال.

أرادت اختصار الموقف:

ـ إيه أخبار الحفار؟

ـ هرب مننا في دكار.

وكأنها تلقت صفعة فوق صدغها فلقد رفعت إليه رأسها محملقة فيه بغضب، فاجتاحت فريد فرحة طاغية... فهذه هي دلال شوقي أخيرًا تعود إليه:

ـ هرب إزاي؟

في بساطة قال فريد:

ـ مش المهم هرب إزاي، المهم إنه ما يهربش تاني.

ـ إزاي؟

ـ بأنك ترجعي دلال شوقي اللي أنـا أعرفها، تعملي اللي عليكي وبس.

ولقد كانت دلال شوقي عند حسن ظنه... فرغم ما كانت تعانيه، فلقد بدت فيما تلا هذا من أيام. متألقة إلى الحد الذي جعلها حديث الناس... بلغ مرحها وتألقها حدًا جعل الناس ـ حتى أعضاء البعثة ـ يتهامسون بأنها وقعت في الحب، وأنها ستتزوج في القريب من المخرج مدحت صبري.

لكن أحدًا لم يعرف، كم كان الحزن يعتصر تلافيف القلب فيها.

* * *

انقضى شهر فبراير (شباط)، ومضى اليومان الأول والثاني من مارس (آذار) دون أن يظهر أي أثر للحفار... وشعر طاهر رسمي أن في الأمر شيئًا لا يزال خافيًا... كانت عشرة أيام قد انقضت منذ رحيل الحفار من دكار دون أن يدخل واحدًا من الموانئ التي امتلأت بالعيون ترصد كل كبيرة وصغيرة فيها.

لم يكن معقولًا أن يستمر الحفار مبحرًا في المحيط لأبعد من ميناء بورت هاركوت في جنوب نيجيريا، فسعة القاطرة «چاكوب ڤان هيمو كيراك»، وحمولتها من الوقود، لا تكفي إلا لهذه المسافة... ولقد وردت الأنباء من أبيدچان تقول إن سارة جولد شتاين تتصرف بعصبية فائقة، وإن ديڤيد ليڤنجر لا يزال مختفيًا... وأرسل الباشا يقول إنه عاين الميناء معاينة كاملة، وإن هناك ثلاث نقط فقط تصلح للوثوب على الحفار لو أنه

دخل إلى الميناء بالرغم من كل ما يحيط به من حراسة... وإن هناك نقطة بعينها، خارج الميناء، وتعتبر مثالية للقيام بالعملية... وإن المتفجرات في أمان.

وجاءت برقية أخرى تقول: إن زكريا أجرى اتصالًا مثمرًا للغاية مع لونا بايرن، وإن القاطرة «آلبي» لم تبحر كما كان مقدرًا... قال طاهر لزميليه:

ـ يبقى الحفار حايدخل أبيدچان ميه في الميه.

كانت المدة الكافية لوصوله قد انقضت منذ ما يقرب من أربعة أيام فلم يناقشه زميلاه، أوحى إليه صمتهما بأنهما يتركان الحلبة بالكامل لتقديره، فهو وحده الآن صاحب القرار... ولقد طال الصمت كثيرًا وبدا على طاهر أنه يفكر بعمق بالغ... ولقد كان بالفعل في تلك اللحظة، في سبيله لاتخاذ قرار خطير.

ـ تقدر تسافر إمتى يا نديم؟

ـ دلوقت... بس أسافر فين؟

ـ أبيدچان.

وقبل أن يتلقى جوابًا التفت نحو عزت:

ـ الرجالة يجهزوا للسفر بعد بكره.

ثم التفت إلى نديم:

ـ وانت حاتسافر بكرة.

لم يرد نديم، فاستطرد طاهر وهو يعود إلى مقعده خلف المكتب:

ـ بس المرة دي حاتاخد معاك ديناميت.

هتف عزت:

ـ الديناميت وصل أبيدچان من زمان.

ـ المرة دي حايسافر ست رجالة مش أربعة بس.

قالها طاهر من بين أسنانه، كان يعلم أن لعبة الذكاء أو حرب العقول تصل في تلك اللحظة إلى ذروة تحتاج إلى الحسم... وهكذا بدأت العجلة تدور في عنف.

* * *

في الساعة الواحدة من صباح يوم ٣ مارس عام ١٩٧٠، وصلت إلى مكتب طاهر رسمي رسالة مطولة من رجل الأعمال التركي عصمت كارجي، جاء في الرسالة:

«خرجت في رحلة بحرية بصحبة ليليان في أحد الزوارق عصر اليوم، أغدقت على صاحب الزورق فغادرنا الميناء إلى عرض البحر بعد أن شرب كمية لا بأس بها من الروم القوي... على بعد عشرين ميلًا رأيت الحفار يرسو مع القاطرة في عرض المحيط، علمت من القبطان أن الحفار يرسو في هذا المكان منذ يوم ٢٨ فبراير، في انتظار تعليمات جديدة».

* * *

اجتاحت الرجال فرحة عارمة جعلت الدماء تزغرد في عروقهم، لكن أكثرهم فرحة كان طاهر رسمي بالطبع، كان يشعر بزهو شديد، فلقد دفع الحفار دفعًا إلى أبيدچان، ولن يفلت منه هذه المرة.

الفصل الثاني عشر
تدمير الحفار

«لا توجد كلمة مستحيل

إلا في قاموس الضعفاء».

«نابليون»

راحت الأحداث تتلاحق بسرعة شديدة، ولم تكن هناك قوة على الأرض تستطيع الآن إيقافها. تدحرجت كرة النار من فوق الجبل وهي تندفع نحو الهدف آكلة في طريقها كل عقبة... ترك إفلات الحفار من دكار في نفوس الرجال رغبة جارفة في التنفيذ مهما كانت العقبات... وكان رجال الضفادع البشرية قد عادوا إلى مأواهم السري فوق جبل المقطم منذ عودتهم من دكار، لزموا تلك الڤيلًا المهجورة لا يبرحونها، ينتظرون نديم قلب الأسد في كل ليلة ليتحدثوا معه في كل أمور الدنيا لساعة وبعض الساعة دون أن يذكر أحدهم الحفار أو يسأل عنه.. كانوا قد عرفوا مهمتهم، لكنهم لم يعرفوا بعد أين سيقفزون على الحفار ليدمروه... شيء واحد أضيف إلى حياتهم التي كانت تمضي رتيبة إلا من بعض التمرينات الرياضية التي كانوا يمارسونها كل يوم، هذا الشيء هو أنهم كانوا يتبادلون الحديث بأسمائهم الكودية التي لقنوا إياها قبل سفرهم إلى دكار، كانوا ينادون بعضهم البعض بتلك الأسماء الجديدة، ويتحدثون عن حيواتهم الجديدة، بل إن البعض أتقن تلك اللهجة، التي يتميز بها موطنه الجديد... حتى كان مساء اليوم الثالث من مارس (آذار) لم يزرهم نديم كعادته، فأيقن كل منهم أن الأمر يقترب... ليلتها ظل المتدين يصلي ويقرأ القرآن حتى ساعة متأخرة من الليل، فإذا حان وقت صلاة الفجر، وقف في صالة الڤيلًا الخاوية وراح يؤذن للصلاة بصوت

خافت رخيم، وعندما نادى أن «الصلاة خير من النوم» كان الجميع قد استيقظوا على ترنيماته الخافتة وراحوا يتوضئون الواحد تلو الآخر وما لبثوا أن اصطفوا خلفه، فأقام الصلاة وصلى بهم، وكانت قلوبهم خاشعة.

* * *

في ذلك الوقت كان نديم يودع زميليه... كان الوداع هذه المرة يختلف، وكان الأسلوب أيضًا يختلف... فمع الحقيبتين اللتين تحويان ملابس الضفادع البشرية ومعداتهم، كانت هناك حقيبتان أخريان ـ هاندباج ـ يحملهما نديم هاشم في يده أو يعلقهما على كتفه، وكل حقيبة منهما تحوي عبوة ناسفة شديدة الانفجار، وقد أحيطت بمجموعة من الكتب التي تخفيها.

حملت الحقائب إلى التاكسي الذي كان ينتظر في الفناء الخلفي لجهاز المخابرات المصري، وعندما شارفت الساعة على الخامسة صباحًا، انتهى نديم من فنجان قهوته الفرنسية التي صنعها له عزت بلال، فنهض ليصافح زميليه... ولقد صافح عزت أولًا وعندما استدار نحو طاهر كان هذا يتفحصه جيدًا للمرة الأخيرة، كان يتفحص البذلة والقميص ورباط العنق والحذاء، ضحك نديم وهو يكشف لطاهر عن جوربه، فنظر طاهر إلى الجورب واطمأن تمامًا... وما لبث أن فتح ذراعيه لصديقه وزميله هذا الذي كان يعرف أية مخاطر كان في طريقه إليها الآن، ضم الرجلان كل منهما الآخر دون كلمة، وغادر نديم الغرفة لا يلوي على شيء.

كان طاهر رسمي قد تلقى منذ ساعة واحدة برقية تقول: إن الحفار غادر المياه العميقة خارج ميناء أبيدچان. وإنه دخل إلى الميناء ورسا على الرصيف نفسه الذي ترسو عليه القاطرة «آلبي» بعد أن انفصلت عنه القاطرة «چاكوب ڤان هيمو كيراك».

ومنذ عرف نديم بأمر البرقية، وناقش مع طاهر كل الاحتمالات الممكنة، عكف على دراسة خريطة صغيرة كانت هي كل ما أتيح في ذلك الوقت لجهاز المخابرات المصري عن ميناء أبيدچان عاصمة ساحل العاج.

* * *

بدا واضحًا أشد ما يكون الوضوح في تلك الأيام التي سبقت زيارة رواد الفضاء الأمريكيين لـ «أبيدچان»، أن العاصمة العاجية خالية تمامًا من أي نشاط مصري... لم يكن هناك مصريون على الإطلاق سوى أعضاء البعثة الدبلوماسية وبعض العاملين في الشركات المصرية هناك وهم معروفون بالشكل والاسم... وكانت الظاهرة شديدة الوضوح، أنهم يمارسون حياتهم العملية والاجتماعية بشكل عادي للغاية لم يدخل فيه جديد بالمرة.

ومنذ أن التقى رجل الأعمال التركي عصمت كارجي بالصحفية الهولندية «لونا بايرن» ذلك اللقاء العاصف الذي انتهى بصفعة دوّت في البهو الرئيسي لفندق «لاڤوار» الإسرائيلي، والذي كان الآن يستعد لحفل الافتتاح واستقبال رواد الفضاء... منذ ذلك اليوم ولُونا بايرن تعيش حياتها في نشاط صحفي خالص... كانت قد تلقت في نفس الليلة، وبطريقة ما، رسالة مقتضبة تطلب منها أن تنسى الحفار تمامًا، وأن تتفرغ تفرغًا كاملًا لمهمتها الصحفية التي جاءت إلى ساحل العاج من أجلها... وأحست لونا أنها تخففت من حمل ثقيل، وتضاعفت سعادتها بانتظار زاكري الذي لم يظهر على المسرح في ذلك اليوم ولا اليوم الذي تلاه والذي قضت لونا نهاره في الانتظار بشوق دون جدوى... ولم تغفل عيناها تلك الحركة الغريبة التي كانت تتحركها الصحفية المغربية «ليلى

بو مسعود»، والتي تقربت منها وكانت تلقي عليها كلما التقت بها وابلًا من الأسئلة البريئة المظهر والتي أحست لونا أن وراءها خبثًا مسمومًا.

حتى إذا كانت الليلة التالية أصاب المدينة نشاط محموم، كان اليوم التالي هو موعد وصول رواد الفضاء الأمريكيين، وكان عليها أن تتناول عشاء خفيفًا وأن تأوي إلى فراشها مبكرًا استعدادًا لغد مشحون بالعمل... صعدت «لُونا» في تلك الليلة إلى غرفتها، فتحت الباب وخطت إلى الداخل وهي تضيء نور الغرفة فإذا يد ـ من خلف الباب ـ تنقض عليها لتكتم أنفاسها بعنف، همت بالمقاومة فسمعت صوت الباب وهو يغلق وأحست أنها تعرف الذراع وتأنس إلى صاحبها، التفتت فإذا بها وجهًا لوجه مع «زاكري»، همت بالصياح وقد انتابتها فرحة طاغية، فاشتدت قبضة زاكري على فمها حتى كاد يكتم أنفاسها، وأمام عينيها رفع يده الأخرى بورقة قرأت فيها بوضوح: لا تنطقي حرفًا... ففي الغرفة أجهزة للتنصت!

وقتها فقط أدركت لونا لم كف صديق زاكري ـ رجل طاهر رسمي في أبيدچان عن الاتصال بها... في هدوء رفع زاكري يده عن فمها فارتمت في أحضانه وكانت ترتجف بالشوق إليه... وكوفئت لونا بايرن في تلك الليلة مكافأة مجزية، عن كل الخدمات التي أدتها.

* * *

في التاسعة صباحًا كان نديم يقف في مطار روما وهو يحمل الحقيبتين الصغيرتين اللتين تحويان المتفجرات، كان أمامه الآن ـ حسب الخطة الموضوعة ـ ست ساعات كاملة حتى يحين موعد إقلاع طائرته الثانية إلى باريس.. وإذا كان مطار روما ذا طبيعة خاصة في تصميمه، إذ يبدو للمسافر مستطيلًا بشكل ما، فإن نديم كان يعرف إلى أين يخطو فخطا... عند نقطة بعينها توقف وأنزل الحقيبتين ثم ألقى بنظره إلى الناحية الأخرى فاطمأن قلبه... راح يتلفت حوله فأحس أن ثمة شيئًا في

الجو لا يرتاح إليه، أراد الاطمئنان أكثر، لا على ما يمكن أن يحدث في الساعات الست القادمة، ولكن على ما يمكن أن يحدث في باريس... وأتته الفكرة عفو الخاطر فبدت له جنونية، لكنه لم يتردد في التنفيذ، كان مسموحًا له أن يغادر المطار في هذه الساعات الست للتجوال في روما، تقدم من مكتب الشرطة في المطار وكان هناك اثنان من رجال الشرطة الإيطالية، في فرنسية سليمة تمامًا ألقى عليهما التحية ثم عرض عليهما أمرًا فلم يفهما... ابتسم في خجل وهو يسألهما في إيطالية ركيكة إن كان أحدهما يتحدث بالإنجليزية، فقال واحد منهما:

ـ ماذا نستطيع أن نقدم لك؟

قال نديم:

ـ إن علي أن أقضي ست ساعات في المطار حتى يحين موعد طائرتي المقلعة إلى باريس.

قال هذا وصمت، فسأله الشرطي الإيطالي مرة أخرى عما يستطيع أن يقدم له؟

ـ إني لم أر روما من قبل، وكم أتمنى أن أشاهد الكوليزيوم.

ـ وما الذي يمنعك، هناك ما يكفي من الوقت.

في أدب بالغ أومأ نديم نحو حقيبتيه الناسفتين قائلًا:

ـ هاتان الحقيبتان مليئتان بالكتب، وهما ثقيلتان، فهل أستطيع أن أتركهما هنا لساعتين أو ثلاث ريثما أقوم بجولتي الأولى في روما وأعود؟

نظر الشرطي إلى الحقيبتين فأسرع نديم ليجذب سوستة إحداهما هاتفًا:

ـ إنها مجموعة من الكتب.

برزت الكتب من الفتحة، فأشار رجل البوليس نحو أحد الأركان في لا مبالاة قائلًا:

ـ ضعهما هناك.

وشكره نديم وهو يحمل حقيبتيه الشديدتي الانفجار، ليضعهما أمانة لدى البوليس الإيطالي.

وقضى قلب الأسد ساعات ممتعة مع أحد أصدقائه في روما، وكان حريصًا على تناول ذلك الصنف من الشوربة الإيطالية التي كانت تمتلئ بلحم السمك الطازج، والتي اشتهرت في «ميلانو» باسم «سوبو دي بيتشي»، وعاد إلى المطار قبل موعد إقلاع الطائرة بساعة ونصف، ولكنه قبل أن يسترد حقيبتيه، تفحص المكان جيدًا، وقضى حوالي ثماني دقائق كانت كافية لأن يعلم أن كل شيء على ما يرام، فتقدم من رجلي البوليس، وشكرهما بحرارة، واسترد أمانته، وصعد إلى الطائرة.

* * *

وصل نديم إلى مطار شارل «ديجول» في باريس وكانت درجة الحرارة في عاصمة النور قد انخفضت عدة درجات تحت الصفر، كان عليه الانتظار ـ أيضًا ـ حتى قيام الطائرة المتجهة إلى أكرا في غانا عن طريق دكار في السنغال، ثم أبيدچان في ساحل العاج... وكان موعد إقلاع الطائرة في العاشرة والنصف مساء.

ورغم أن كل شيء بدا طبيعيًا تمامًا طوال تلك الساعات، فقد بدت لنديم مثل دهور بلا نهاية، كان التوتر لا يزال قائمًا وإن كانت حدته قد خفت بعض الشيء... في التاسعة مساءً بدأ تساقط الثلج في غزارة، وأعلن عن تأخر قيام الطائرة بسبب الثلوج المتراكمة، فبدأ القلق يستبد بنديم.

يا لهذه اللحظات المروعة التي تسحق أعصاب الرجال سحقًا، لا خوفًا على أنفسهم، ولكن خوفا من ألا يتمكنوا من خدمة وطنهم على الوجه الأكمل... مضت به الساعات كالواقف على أطراف أظافره، بعد منتصف الليل أعلن عن موعد قيام الطائرة في الواحدة، لم يجد هذه المرة من يطلب من الركاب التقاط حقائبهم كي تفتش قبل الصعود إلى الطائرة... كان الجو في المطار مكفهرًا والتوتر شديدًا، لكن الأمور سارت ـ على غير ما كان ينتظر ـ على ما يرام.

في الطائرة حاول أن ينام دون جدوى ، كان يحمل جواز سفر باسم «زكي متولي داكر»، وكانت مهنته «مدير عام» بإحدى شركات القطاع العام، أما تذكرته فكانت من القاهرة حتى أكرا عن طريق روما، باريس، دكار، أبيدچان... ولقد هبطت الطائرة في دكار قبل الفجر بقليل فلم يغادر مقعده... غادرها ركاب وصعد آخرون، وكان ضمن الصاعدين من دكار رجل الأعمال السوري الأصل «سليم أبو فودة» يصحبه المهندس «سليمان عبد البر محمود» الذي كان قد عاد إلى دكار من باريس منذ بضعة أيام فلم يهتم أحد بوصوله ولا لماذا أو كيف... فلقد كان الحفار قد رحل وعادت الأمور إلى سيرتها الطبيعية، وكان المهندس سليمان عبد البر محمود يصحب مخدومه السوري الأصل إلى أبيدچان في رحلة عمل للالتقاء بمندوب أحد التوكيلات الفرنسية، وليبرم مخدومه عدة صفقات كانت مصانعه في حاجة إليها... كان المهندس سليمان عبد البر محمود يرتدي نفس الملابس التي يرتديها نديم، وفي ذلك الوقت من الليل، ولأن نديم ظل قابعًا في مكانه، فإن أحدًا على الإطلاق لم يلحظ ذلك التشابه الشديد بين الرجلين، ولا ذلك التطابق الذي لا يمكن أن يكون مصادفة بين ملابس الرجلين حتى في لون الجورب وماركته، ولقد أقلعت الطائرة من دكار دون أن يغادر نديم مقعده... ولكن، قبل أن تصل

الطائرة إلى أبيدچان بنصف ساعة، وكانت الشمس قد أشرقت ونفذت أشعتها من نوافذ الطائرة، نهض نديم إلى الحمام، دخله وغاب فيه خمس دقائق، ويبدو أن رجل الأعمال السوري الأصل السنغالي الجنسية قد شعر برغبة هو الآخر في دخول الحمام فنهض ووقف ينتظر عند الباب، حتى إذا فتح، لم يوسع لنديم الطريق بقدر كاف كي يعبر ممر الطائرة الضيق، وتلامس جسدا الرجلين لحظة كانت كافية لأن يسلم كل منهما إلى الآخر جواز سفر يضم تذكرة بين صفحاته... بسرعة كان نديم يضع في جيبه جواز سفر باسم المهندس سليمان عبد البر محمود، وتذكرة من دكار إلى أبيدچان... وعندما عاد «سليم أبو فودة» إلى مقعده، دس في جيب المهندس سليمان الذي كان يجلس بجواره جواز سفر يحمل اسم «زكي متولي داكر» وتذكرة من القاهرة إلى أكرا.

وعندما كانت الطائرة تحلق فوق أبيدچان، كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحًا، وكان على الطيار أن يدور فوق المدينة دورة، ولقد حانت من نديم نظرة خلال النافذة، فإذا قلبه يخفق بعنف، كانت الخريطة الصغيرة التي أمضى ساعات في دراستها بمكتب طاهر رسمي بالقاهرة، منذ ما يزيد على الأربع والعشرين ساعة، حية أمامه... كانت الطائرة تدور فوق الميناء الذي بدا شديد الوضوح، وكان الحفار هناك، تحت عينيه، يقف إلى جوار القاطرة «آلبي» على الرصيف الذي كان نديم يعلم علم اليقين أنه وضع تحت حراسة مشددة... راح يمتص المشهد الذي يراه حتى حفر في ذهنه حفرًا... أهداه القدر أول «معاينة» لمكان الحفار، بدت له الميناء كخريطة حية شديدة الوضوح تحت شمس إفريقيا الساطعة.

في مطار أبيدچان، لم يكن هناك راكب واحد قادم من القاهرة، وكان مندوب التوكيل الفرنسي في انتظار السيد سليم أبو فودة وكبير مهندسيه الذي لم يكن سوى نديم قلب الأسد... لكن الغريب في الأمر، أن نديم غادر المطار دون حقيبتيه الناسفتين، واللتين كانتا قد غادرتا المطار قبل

دقائق بصحبة راكبين آخرين من ركاب الطائرة، وكان أحدهما فرنسي الجنسية.

أما الحقيبتان الكبيرتان اللتان تحويان ملابس الضفادع البشرية ومعداتهم، فلقد واصلتا الرحلة في أكرا وهناك تسلمهما المهندس سليمان، ثم عادتا إلى أبيدچان في نفس اليوم على طائرة أخرى، وكانتا بصحبة مندوب إحدى شركات السيارات الألمانية، والذي كان كثير التردد على مطارات غرب إفريقيا، وكان معروفًا، بشكل خاص، في مطار أبيدچان.

وهكذا... لم يحل مساء هذا اليوم، حتى كان نديم قلب الأسد مع حقائبه الأربع كاملة، في بيت آمن «Safe house» اختير هذه المرة في قلب الحي التجاري في المدينة التي كانت ترتدي ثوبًا قشيبًا، «وتشغي» بالحركة، استعدادًا لاستقبال رواد الفضاء.

* * *

في نيجيريا سافرت البعثة السينمائية المصرية إلى ميناء «بورت هاركوت»، وراحت تصور بعض المشاهد في قرى الصيادين بالفعل، لكنه لوحظ، أن أفراد البعثة، كانوا كثيري التردد على الميناء، والحديث إلى الموظفين والعمال فيها، وأنهم أقاموا علاقات حميمة مع أفراد من الشعب النيجيري الذي رحب بالمصريين ترحيبًا حارًا.

لكنه لوحظ ـ بشكل ما ـ أن الفنانة دلال شوقي كانت تميل إلى الانطواء، وقيل فيما قيل بعد ذلك، إن السبب في انطوائها هو الإرهاق الشديد في العمل، خاصة في تلك الأيام التي قضتها البعثة في لاجوس العاصمة.

* * *

بعد ساعات من وصول نديم هاشم إلى أبيدچان، التقى بالباشا في «البيت الآمن»... كان اللقاء بين الزميلين حارًا، وقال الباشا بأسلوبه

الساخر هذا إن المدينة تحولت في الأيام الأخيرة إلى ترسانة مسلحة، وإنه قد عاين الحفار عدة مرات كما أتيحت له معاينة الميناء، وكان رأيه أن التنفيذ في أبيدچان يعتبر مثاليًا برغم التواجد الكثيف لرجال المخابرات الإسرائيلية والأمريكية، وأن المصريين بالرغم من هذا ـ أو ربما لهذا السبب ـ يستطيعون الحركة في اطمئنان.

وعلى خريطة لميناء أبيدچان جلس الرجلان يدرسان إمكانية التنفيذ من مواقع ثلاثة حددها الباشا... كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهرًا، وفي الثالثة انتهى الرجلان مما كانا فيه وأصبح على الباشا أن يعود إلى الفندق حتى لا يثير غيابه أي نوع من أنواع التساؤل، وقبل أن ينصرف الباشا، اتفق الرجلان على اللقاء في المساء.

بعد ذلك بعشر دقائق، غادر نديم هاشم البيت الآمن، وكان يرتدي قميصًا أبيض اللون ليس نظيفًا بقدر كاف مفتوحًا حتى منتصف الصدر العاري، وبنطلونًا أزرق، وعلى رأسه كانت ثمة قبعة من تلك التي يرتديها البحارة، ثم أضاف إلى ملامحه شاربًا كثًا غليظًا.. كان المبنى الذي اختير فيه البيت الآمن يحتوي على عدد من مكاتب توكيلات السفن، ولذلك لم يستعمل نديم المصعد، إنما هبط دورين على السلم ثم نفذ إلى ممر، وهناك كان باب لأحد هذه التوكيلات حيث تجمع عدد من بحارة السفن من جنسيات مختلفة، كان المكتب مزدحمًا بالبحارة الذين غادروا سفنهم أو يبحثون عن عمل على سفينة أخرى، وكان المكان مختنقًا بدخان كثيف برغم المروحة الهائلة التي تدور في السقف، وبرغم التكييف المركزي في المبنى كله... اندس نديم فورًا وسط البحارة، أشعل سيجارة، ووقف ينتظر.

كان هناك حوار بين ثلاثة من البحارة ـ اثنان منهما أوربيان والثالث مكسيكي ـ وبين أحد موظفي المكتب، وانتهى الحوار بموعد في اليوم التالي... وما إن تحرك الثلاثة مغادرين المكان حتى انضم إليهم نديم...

وكان الغرض مما فعله نديم هو اختبار زيه الجديد وسط أصحاب الشأن فيه، ثم مغادرة المبنى إلى الطريق العام دون أن يتساءل أحد عمن يكون هذا الغريب... ولقد كانت حركة المرور في ذلك الوقت ضعيفة بعد أن ارتفعت درجة الحرارة... وبعد أقل من نصف ساعة، كان نديم داخل أسوار الميناء، يسعى حثيثًا، كمن يعرف وجهته تمامًا، نحو الرصيف الذي يرسو عليه الحفار.

تلكأ نديم بجوار أحد مخازن الميناء... كان الآن يتوسط موقعين حددهما له الباشا، وكان الموقعان يؤديان إلى الحفار الذي بدت له أبراجه واضحة كل الوضوح... كان الموقع الأول مثاليًا للانقضاض على الحفار، فهو لا يبعد عنه بأكثر من مائة وخمسين مترًا، أما الموقع الثاني، فكان يواجه بوابة الخروج من الميناء حيث تكثر الحركة ليلًا، وكان يبعد عن الحفار بحوالي مائتين وخمسين مترًا.

لم يستغرق الأمر من نديم أكثر من خمس دقائق.. فهذان الموقعان هما أنسب الأماكن لعمليات تخريب الحفار، وبالتأكيد، فالإسرائيليون لم يغفلوا عن هذا، ولم تغفل عين نديم بالقطع عن تلك الحراسة الخفية، التي بدت في مجموعة من البحارة تناثروا في المكان بحساب، وبحيث إذا فكر أحد في الاقتراب من الرصيف، من ناحية المياه أو اليابسة، وقع تحت نيرانهم بسهولة... وسرعان ما غادر نديم الميناء، وكانت الساعة الآن قد تجاوزت الرابعة ببضع دقائق.

* * *

عبر نديم الطريق وهو ينظر في ساعة يده الضخمة الرخيصة، ثم سار قرابة خمسين مترًا، وانحرف إلى اليسار، في طريق جانبي يؤدي إلى شارع تتناثر على جانبيه مجموعة من تلك البارات التي تكثر عادة حول الموانئ في العالم كله... خلع قبعته وراح يحك رأسه ناظرًا إلى

البارات حتى توقفت عيناه عند واحد بعينه. توقف أمام البار وما لبث أن خطا إلى الداخل وهو يدفع الباب، تلفت حوله فإذا المكان شبه خال، لم يكن هناك سوى عدد قليل من البحارة الذين كانوا يحتسون البيرة في صمت... وفي أنحاء متفرقة من البار كانت ثمة فتيات من جنسيات مختلفة يجلسن في كسل وانتظار وتراخي من يعلم أن هذا ليس وقت العمل... نظرت إليه فتاة زنجية ذات قوام ممشوق وراحت تتمعن فيه، ثم ما لبثت أن نهضت إليه هاتفة:

ـ هالو چاك.

التفت نحوها نديم، مال برأسه يمنة ويسرة كمن يختبر قوامها، وما لبث أن تقدم منها واضعًا يده تحت ذقنها متمتمًا:

ـ إن اسمي چيمي.

ابتسمت الفتاة عن أسنان شديدة البياض. تأبطت ذراعه وهي تصيح في الجرسون الزنجي أن يأتيها بزجاجة كاملة... قادت نديم إلى باب جانبي وهي تتمايل، دفع نديم الباب بقدمه ودلف مع الفتاة إلى ممر طويل على جانبيه عدد من الغرف التي كان بعضها مغلقًا والبعض مفتوحًا.. وكانت آخر الغرف في الممر تجاور بابًا خلفيًا للبار، ما إن دلفا إلى هذه الغرفة حتى أغلقت الباب بسرعة وهي تهمس:

ـ تستطيع الآن أن تستبدل ملابسك.

كانت الجملة التي استقبلته بها الفتاة والجملة التي رد بها عليها، هما كلمتي السر التي اتفق عليها مشفوعة بحركة يده تحت ذقنها... راح نديم في سرعة يستبدل ملابسه، وعندما جاء الساقي بالزجاجة كان يقف خلف الباب وقد تغيرت هيئته، فلقد أصبح يرتدي الآن قميصًا أنيقًا ورابطة عنق غالية وبنطلونًا بني اللون، خلع القبعة وصفف شعره بسرعة

ووضع على عينيه نظارة طبية من ماركة شهيرة، امتدت يده إلى حقيبة أوراق كانت موضوعة تحت الفراش، انصرف الساقي بعد أن تناولت منه الفتاة الزجاجة من فتحة الباب الضيقة، ران السكون على الممر بعد أن تلاشت خطوات الساقي فأومأ نديم للفتاة برأسه، فتحت الباب وأطلت على الممر وسرعان ما أشارت إليه وهي تجذب الباب الخلفي للبار في رفق وبلا صوت، نفذ نديم من باب الغرفة إلى الخارج مباشرة وكانت سيارة زرقاء اللون في انتظاره، دلف إلى السيارة التي انطلقت به، وكان آخر ما سمعه من الفتاة قولها:

ـ لا تتأخر عن ساعة وإلا تضاعف السعر.

وهكذا راحت السيارة الثالثة تنهب به الأرض نهبًا نحو الموقع الثالث الذي يبعد عن الميناء بحوالي اثنين وعشرين كيلو مترًا... وإذا كانت الميناء تتكون من مجموعة من البحيرات التي تفصل بينها أرصفة تمتد كالأصابع، فإن السيارة كان عليها، في منطقة معينة من الطريق الرئيسي، أن تنحرف إلى طريق جانبي غير ممهد، يمتد إلى حوالي سبعة كيلو مترات، ويمر بمناطق ريفية وسط غابة كثيفة الأشجار يخترقها نهر صغير... وكان هذا النهر، يصب عند المنطقة التي وقع عليها الاختيار للوثوب على الحفار.

عندما مرت السيارة بإحدى القرى، قال السائق إن اسمها «لوكودوجو» وإن أهلها يعملون، بخلاف الزراعة، في نقل خشب الأشجار عبر النهر الصغير إلى الميناء حيث يشحن في السفن... وعندما مرت السيارة بالقرية الثانية سأل نديم:

ـ متى ينام سكان القرى؟

رد السائق:

ـ من العاشرة مساء حتى السادسة صباحا، عندما يدق جرس الكنيسة القريبة.

وكان برج الكنيسة الآن قد بدا لعين نديم الذي راح يتفحص المكان بعينين نهمتين... توقفت السيارة وسط الغابة وانحرفت عن الطريق حتى اختفت بين الأشجار، غادرها نديم وراح يخترق طريقه على مهل وهو يتفحص كل ما حوله بعناية شديدة، حتى إذا شارف أطراف الغابة بدا الحفار أمامه مباشرة.

هناك، على بعد يتراوح ما بين خمسمائة وستمائة متر راح نديم يتأمل الحفار.

كان السكون مخيما تمامًا. من خلفه سمع صوت أوتوبيس يمر بالطريق المترب، وكان قد عرف أن أوتوبيسًا يمر بين القرى كل ساعة تقريبًا... وكانت مساحة المياه التي تفصل الموقع عن الحفار مليئة بسيقان الأشجار التي قطعت ودفعت في النهر فتراكمت عند مصبه في انتظار الشحن في سفن تحملها إلى الخارج... رغم بعد المسافة كان الموقع مثاليًا تمامًا، خفق قلب نديم وهو ينظر في ساعته الأنيقة التي استبدل بها ساعة البحارة الرخيصة، وكان عليه أن يعود إلى السيارة حتى يبلغ البار في موعد مناسب.

* * *

في الساعة العاشرة من مساء يوم ٥ مارس عام ١٩٧٠ وصلت إلى طاهر رسمي برقية من نديم قلب الأسد، يطلب فيها إرسال الرجال إلى أبيدچان، بأسرع ما يمكن.

* * *

هتف الباشا:

ـ طب مش تستني لما تعمل استطلاع كمان؟

رد نديم:

ـ إسمع يا شوكت، أنا عاوز أحط نفسي قدام الأمر الواقع.

ـ ونويت إمتى إن شاء الله.

ولم يرد نديم على الفور، كان ما يدور في عقله الآن نوعًا من الجنون أو الخيال، دار هذا الحديث بين الرجلين في صباح الجمعة ٦ مارس، وكان نديم قد زار المكان في المساء مرة أخرى، وهو يعلم أن التنفيذ سوف يتم في الظلام وقبل طلوع الشمس، صحبه في المساء شاب أبيدچاني اسمه «مامادو» أي محمد ـ وكان سعيدًا كل السعادة لأنه يؤدي خدمة لمسلم مثله، في المرة الثانية كان نديم متحررًا من كل شيء حتى معرفة أصدقائه بمكانه، راح يعاين كل شبر في الموقع وينظر في شغف إلى الحفار الذي بدا في الليل أشد وضوحًا منه في النهار، فلقد كان ـ على بعد ـ غارقًا في الضوء الذي غمره من كل ناحية... كان شوكت يرقب صمت زميله في قلق، ها هو قلب الأسد يخرج من مكمنه فما الذي ينتويه هذا الرجل... سار نديم إلى النافذة المطلة على الطريق التجاري المزدحم، كان معجبًا أشد الإعجاب لاختيار الباشا لهذا «البيت الآمن» الذي يقع حيث لا يمكن أن يتصور أحد... تذكر قولًا لمحمود شوكت أن اللقاء في السر أكثر عرضة للكشف من اللقاء تحت أنف العدو، أخيرًا قال نديم لشوكت:

ـ الرائد خليفة جودت حايوصل الليلة في نص الليل.

ـ بس إنت قلت إن طاهر حايبعت المرة دي ست رجالة.

ابتسم نديم وهو يرد:

ـ يبقى حايبعتهم على فوجين.

كان هذا أمرًا طبيعيًا، فما الذي يدفع نديم إلى ترديده، هتف الباشا:

ـ إيه حكايتك يا نديم؟!

ـ الفوج الأول مش ممكن يوصل قبل أربعة وعشرين ساعة.

كمن أمسك بما غمض عليه سأله الباشا:

ـ ناوي تضرب إمتى؟

كان اليوم التالي هو يوم السبت ٧ مارس، وهو يوم الاحتفال برواد الفضاء، ولسوف يمتد الاحتفال حتى ساعات الصباح الأولى دون شك، ولسوف يتركز أمن السلطات المحلية، مع رجال المخابرات الأمريكية حول الرواد بالقطع، وهكذا سيفقد الإسرائيليون ثلثي الحراسة التي يحمون الحفار وراءها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن يوم الأحد ـ وهو اليوم التالي للاحتفال ـ هو يوم إجازة.. فهل ينوي نديم أن يضرب ضربته بنصف الرجال فقط؟!

كانت المشكلة التي يعاني منها نديم الآن هي خروج الرجال من أبيدچان بعد إتمام العملية... وإذا كان تنظيف الموقع بأقصى سرعة، كفيل بإيقاع الإسرائيليين في ارتباك شديد، فإن الدراسات التي أجراها نديم قالت: إن خروج الرجال عن طريق البر يكاد يكون مستحيلًا، كان هناك طريق بري واحد يصل ما بين أبيدچان وأكرا عاصمة غانا، وهو طريق طوله ثمانمائة كيلو مترات منها ثلاثمائة كيلو مترات داخل الحدود العاجية نصفها غير ممهد، وكان معنى هذا أن خروج الرجال يستلزم ما بين ثلاث وست ساعات، وهو وقت كاف للعثور عليهم، ثم هناك طريق السكة الحديدية الذي يصل أبيدچان بعاصمة ڤولتا العليا وأجادوجو، وهو طريق يخترق فيه القطار ساحل العاج من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، وهي وسيلة تضع الرجال تحت أيدي الشرطة العاجية بسهولة

بالغة... لم يكن أمامه إذن سوى الطيران، وهكذا، ودون أن يفصح عما ينتويه، راح الرجلان يدرسان حركة الطيران ابتداء من مساء السبت، حتى ظهر الأحد ٨ مارس عام ١٩٧٠.

* * *

كانت الخطة التي وضعها طاهر رسمي لوصول الرجال السبعة إلى أبيدچان، خطة شديدة التركيب، ولقد صح توقع نديم هاشم، ففي ظهر يوم الجمعة وصلت برقية من طاهر يقول فيها إن الرائد خليفة جودت قائد الضفادع البشرية سوف يصل في منتصف ليلة ٦/ ٧ مارس، وإن ثلاثة من الرجال هم: العريف والملازم والقرش سوف يصلون قبل انتصاف ليلة ٧/ ٨ مارس تباعًا وعلى خطين مختلفين للطيران، وإن المتدين سوف يصل في صباح الأحد ٨ مارس... أما الرجلان الباقيان، فسوف يصلان على إحدى طائرات الخطوط الجوية الفرنسية في تمام التاسعة والنصف من نفس اليوم.

ولقد عاد خليفة جودت من المطار في موعده، وتوجه إلى أحد الفنادق مباشرة، لكنه ما كاد يستقر في الفندق حتى غادره ـ بطريقة ما ـ ليلتقي بنديم على بعد عشرة كيلو مترات خارج أبيدچان... وما لبث الرجلان أن استقلا سيارة أخرى إلى حيث وقع اختيار نديم على منطقة الوثوب تلك الواقعة داخل الغابة وبين القرى العاجية.

وما إن التقى خليفة بنديم حتى أخرج ورقة صغيرة قدمها إليه.. على ضوء مصباح صغير في السيارة التي كانت الآن تقطع المسافة الباقية حتى الموقع، قرأ نديم الرسالة التي كانت تطلب منه عدم التصرف أو الحركة قبل أن يبلغ القاهرة بخطوته القادمة، ومهما كانت الظروف... قرأ نديم الرسالة وراح يمزق الورقة إلى قطع شديدة الصغر، كان يلقي قطعة وراء قطعة من السيارة المسرعة.

في تلك البقعة الغارقة في الصمت، على آخر حدود ميناء أبيدچان،

وقف الرجلان ينظران معًا إلى الحفار، وكان المشهد بديعًا... الظلام والسكون والوحشة وصوت المياه تدغدغ الشاطئ في رفق، وضوء القمر الذي كان يكتمل الآن بدرًا يغمر مساحة المياه الممتدة، والمليئة بسيقان الأشجار المقطوعة والعائمة في انتظار التصدير، وها هو الحفار يقف غارقًا في هالة شديدة من ضوء باهر أحاطه من كل مكان... جلس الرجلان على الأرض وراحا يتأملان المشهد الفريد، دار الحوار بينهما خافتًا كالهمس أو أشد خفوتًا.. قال خليفة: إن الموقع ممتاز برغم بعد المسافة، فقال نديم إن الملازم والعريف والقرش سيصلون قبل منتصف الليلة القادمة بقليل، فرد خليفة: إن المهم أن تكتمل المجموعة، فالتفت إليه نديم متسائلًا:

ـ وليه ما ننفذش بتلاتة بس؟

التفت إليه خليفة في دهشة:

ـ الثلاث عبوات ممكن يدمروا ثلاث قواعد بس... ستة أضمن.

ـ وإذا قدرنا نحط شحنة تحت البريمة نبقى خلصنا على الحفار وده المطلوب.

بدا خليفة ساهمًا وهو يغمغم:

ـ وليه ما نحطش تحتها شحنتين؟!

لم يفهم نديم بالضبط ماذا يريد خليفة أن يقول، غير أنه قبل أن يسأل جاءه صوت خليفة:

ـ إنت شايف إن التنفيذ بكره أفضل؟

ـ من كل الوجوه.

ـ على بركة الله.

* * *

.... ولم تشهد أبيدچان ليلة كتلك الليلة التالية، كان استقبال رواد الفضاء رائعًا، وكان افتتاح فندق «لاڤوار» ـ احتفالًا بوصول الرواد ـ مثل أسطورة، رقصت لونا بايرن في تلك الليلة كما لم ترقص من قبل. وشربت كما لم تشرب في حياتها... ولقد قالت فيما بعد إن وصول «زاكري» وإعفاءها من جمع المعلومات عن الحفار بل نسيانه تمامًا قد رفع عن كاهلها عبئًا رهيبًا كما أنه أعطاها هذا الإحساس الغامر بالأمان والسعادة معًا... لكن الغريب، الذي لفت نظر لونا وغيرها من الصحفيين الذين حضروا الحفل، هو اختفاء الصحفية المغربية «ليلى بو مسعود» في تلك الليلة وفي هذا الاحتفال الذي جاءت من بلادها خصيصًا لتحضره وتكتب عنه... أما الباشا فلقد قيل إنه شعر بوعكة منذ بداية اليوم ألزمته الفندق وإن لم تلزمه الفراش، وفي المساء حضر الاحتفال بعد أن وجهت له إدارة الفندق دعوة مع صديقته مدموازيل هيجو، وكان مرحًا كعادته، رقص وشرب وضحك، لكنه عندما انتصف الليل ووصل الاحتفال إلى ذروته أصابته موجة من الوقار ألزمته مقعده فراح يدخن السيجار في هدوء، وترك ليليان تراقص من تشاء، وظل هكذا حتى عاد، مع خيوط الفجر الأولى، إلى غرفته.

كانت ليلة هائلة، أريقت فيها زجاجات الخمر بلا حساب، وشرب المدعوون من المسؤولين والضيوف أنخابًا بلا حصر... لكنه لوحظ أن الحراسة شددت حول مداخل الميناء بعنف لم تشهده المدينة من قبل، وفوق الحفار ومن حوله جاءت الأنباء تقول إن ثمة دوريات من رجال مسلحين لم يغمض لهم جفن حتى مطلع النهار، ظلت تجوب الرصيف جيئة وذهابًا.

وهكذا قضت المدينة ليلة هادئة سعيدة..

ولكن قلبها كان يغلي بما فيه من أحداث، ففي تمام الساعة الثالثة

والنصف من فجر يوم الأحد ٨ مارس، كان الرائد خليفة جودت قد جهز كل شيء في البيت الآمن: ملابس الضفادع، العبوات الناسفة، أقلام التفجير التي اختيرت من النوع الذي يحدد وقت التفجير بعد ثلاث ساعات.. قال نديم لخليفة وهما يتحاوران إن اليوم التالي سيكون يوم أحد، وإنه بفرض أن أجهزة الأمن في أبيدچان تتمتع بأقصى درجات اللياقة والانضباط، فإنه يلزمها عندما يحدث التفجير، من ثلاث إلى خمس ساعات حتى تبدأ الحركة في البحث عن الرجال الذين سيكونون، في تلك الساعات، قد غادروا أبيدچان تمامًا... بل إن بعضهم سيكون في عواصم إفريقية أخرى، والبعض الآخر سيكون في طريقه إلى القاهرة.

التفت إليه خليفة في إعجاب لم يخفه لكنه تساءل:

ـ والفوج الثاني؟

ـ مش حايدخل أبيدچان أصلًا.

وقبل أن يسأل خليفة، عاجله نديم قائلًا في ثقة:

ـ حايفضل في المطار ترانزيت، ويستمر في الرحلة لدكار، وبالشكل ده محدش يقدر يهوب ناحيتهم ولا يشك فيهم ولا يقول لهم كلمة.

* * *

في الساعة الثالثة وأربعين دقيقة غادرت الشحنات الناسفة والمعدات البيت الآمن من باب خلفي للمبنى واستقرت في الحقيبة الخلفية لإحدى السيارات التي أقلت نديم والرائد خليفة... وكان الملازم الآن بصحبة القرش والعريف ـ وكان الثلاثة قد وصلوا في مواعيدهم بالضبط وذهبوا إلى فندقهم ثم غادروه بحثًا عن ليلة صاخبة ـ كانوا في ذلك الوقت من فجر يوم الأحد المشهود يجوبون الشوارع الخلفية للميناء، والمليئة بالبارات والفتيات، وهم يصنعون صخبًا وضجيجًا لا يصنعه سوى السكارى...

وفي الثالثة وخمسين دقيقة، وعند نقطة بعينها، مرت إحدى سيارات

الأجرة فأشاروا لها فتوقفت، وسألوا سؤالًا وجاءهم الرد فصعدوا إلى السيارة التي انطلقت بهم نحو ذلك الطريق خارج أبيدچان... بعد بضعة كيلو مترات، وعندما اطمأن الركاب الثلاثة إلى أنهم غير متبوعين، هدأت السيارة من سرعتها، ثم توقفت عند بداية طريق جانبي ليهبط الرجال الثلاثة، وتعود السيارة من حيث جاءت، حتى إذا اختفت تمامًا عن الأنظار كانت سيارة أخرى تخرج من منعطف في الطريق، وسرعان ما فتحت الأبواب، ودلف الرجال إليها وانطلقت لا تلوي على شيء.

يا لهذه اللحظات المروعة التي تحفرها الأحداث في صفحة العمر فلا تنمحي مهما طال وتكاثفت أحداثه... وها هم الرجال وقد جاوزت الساعة الرابعة صباحًا قد ارتدوا ملابس الضفادع البشرية فتحولوا في ذلك الظلام الدامس إلى أشباح تلقي الرعب في القلوب... أخذ خليفة يتمم على ملابسهم وأسطوانات الأوكسچين على ظهورهم ويختبر الأقنعة والمصابيح والعبوات والأقلام للمرة الأخيرة، بدت حركة الجميع وسط الغابة كسباحة في الفضاء لا صوت لها، حتى عندما راح خليفة يحدد لكل منهم هدفه من الحفار بالضبط كان صوته همسًا لا يسمع... وعندما أصر الملازم على أن يحمل شحنتين ناسفتين كي يضعهما تحت البريمة فيضمن تلف الحفار إلى الأبد، وعندما دار الحوار بينه وبين خليفة حول المخاطر، كان رده إنه سوف يتخلص من إحدى الشحنتين لو واجهته أية صعوبة، فأفحم قائده وأصبح الرجال في دقائق جاهزين.

همس نديم متسائلًا:

ـ تمام؟

وقال خليفة:

ـ يلّا يا رجالة.

في هدوء نزل الرجال إلى المياه، واحدًا تلو الآخر، وما لبثوا أن

اختفوا بين سيقان الأشجار العائمة وتحت سطح المياه... وبقي خليفة ونديم وحدهما في الانتظار.

* * *

قال نديم قلب الأسد فيما بعد، إنه عندما اجتمع مع الرجال بعد وصولهم من القاهرة مباشرة، لم يقل كلامًا كثيرًا، وعندما أراد أن يتكلم لم يجد ما يقوله.. فسألهم أسئلة تقليدية حول ما إذا كان كل منهم قد عرف بالضبط مهمته وما عليه أن يفعل قبلها وبعدها حتى يغادروا أبيدچان... وعندما أجابوا جميعًا بالإيجاب ساد الصمت طويلًا، كان نديم يشعر أنه يجب أن يقول شيئًا، ثمة ما يغلي في وجدانه لكنه لا يعرف كنهه، عندما أعياه التفكير زفر قائلًا في انفعال:

ـ الحفار هرب مننا في دكار يا رجالة.

فرد الملازم بحزم من انتوى أمرًا لا رجعة فيه:

ـ ومش حايهرب المرة دي يا فندم.

أغناه الملازم بجملته عن كل قول، فالتفت إليه باسمًا وقد تذكر نفس هذا الموقف في دكار منذ أيام ليست كثيرة العدد، فقال:

ـ تحيا مصر.

فردد الجميع في صوت خافت، لكنه بدا كهدير قنابل تنفجر في الأعماق:

ـ تحيا مصر.

كان الوقت المقدر لوصول الرجال إلى الحفار، وتثبيت العبوات في أماكنها، ثم العودة إلى الشاطئ، قد قدر فيما بين خمس وخمسين وخمس وستين دقيقة... ما إن اختفى الرجال عن الأنظار حتى افترق خليفة ونديم... كان كل منهما يحمل مع سلاحه جهازًا لاسلكيًا صغيرًا

كانا يتصلان عن طريقه كل عشر دقائق للاطمئنان... كان المكان موحشًا والهدوء مخيفًا، والسكون عميقًا، والقمر بدرًا، ونديم يبعد عن خليفة بما يقرب من ستين مترًا، كل منهما يرقب الموقع من مخبئه في حذر الفهود، وكل منهما يحصي دقات قلبه مع كل ثانية تمضي.

يا للدقائق عندما تبدو للبشر وكأنها دهور بطيئة الخطو تسعى في الزمن بتثاقل بليد، مضت الساعة كقرن من العذاب، كان نديم قد جلس على الشاطئ ووضع قدميه ـ بالحذاء ـ في المياه لعل برودتها تسري إلى جسده المنهك بلا نوم لأيام فتنعشه... بدأت أضواء النهار تكشف الدنيا دون أن يظهر الرجال فإذا الدقائق البليدة الخطو تسرع نحو الخطر والقلق بجنون، عاد نديم إلى خليفة وقد جاوزت الساعة الخامسة بدقائق، قال خليفة وعيناه مثبتتان على سطح المياه كمسمارين لا ينخلعان إنه لا يحق لهما القلق إلا بعد عشر دقائق أخرى... حل موعد عودة السيارة فاندفع نديم إلى المكان المتفق عليه وطلب من السائق أن يعود بعد ربع ساعة، في طريق عودته إلى خليفة كانت أصوات الفلاحين قد بدأت تتصاعد من القرية القريبة... قيل له إن جرس الكنيسة لا يدق قبل السادسة، ولكن ها هي دقات الجرس تسبح في فضاء الغابة لتوقظ النيام من أهل القرى، ما إن وصل إلى خليفة حتى وجده جامدًا في مكانه محملقًا في سطح المياه بإمعان:

ـ شايف حاجة يا خليفة؟

ـ بص كده.

أشار خليفة إلى بقعة بعينها، وعلى بعد عشرين مترًا كان ثمة شيء يلمع، اقترب الرجلان كل منهما من الآخر استعدادًا لالتقاط الرجال... بعد الشبح الأول ظهر شبح آخر. وعلى بعد أمتار منه بين سيقان الأشجار كان الشبح الثالث... ها هم الرجال عائدون فهل قاموا بالمهمة؟! نزل خليفة إلى المياه وكان الشبح الأول قد اقترب عندما وصل إلى سمعه

صوت خطوات تقترب، التفت نحو مصدر الخطوات فإذا ضوء مصباح صغير يتحرك نحوهما حثيثًا، همس نديم في عنف من استشعر الخطر:

ـ خليفة.

مال خليفة إلى الأمام وزعق هامسًا نحو المياه:

ـ ارجع.. ارجع.

وسرعان ما اختفت الرؤوس الثلاث تحت سطح المياه وقفز خليفة ونديم استعدادًا للقادم دون موعد... كان القادم يقترب وضوء مصباحه يكشف أمامه الطريق، حتى إذا حاذى شجرة بعينها قفز خليفة من خلفها، انقض عليه وكتم أنفاسه وغرس نصل خنجر في رقبته فأصيب الرجل بالشلل وقد سقط المصباح من يده... في بساطة من يحمل طفلًا حمله خليفة بعيدًا عن الموقع وقد التقط نديم المصباح وسدده إلى وجه الرجل... كان فلاحًا عاجيًا أطاع واستسلم دون كلمة... أجلسه خليفة تحت جذع شجرة وسدد نديم ضوء المصباح إلى وجهه، نظر الرجل إلى نصل الخنجر في رعب، ومن خلال شعاع الضوء برزت له فوهة مسدس نديم وقد ركب عليها جهاز كاتم للصوت... تركه خليفة لنديم وعاد أدراجه إلى الشاطئ لالتقاط الرجال فلقد بدأت أصوات الفلاحين في الاقتراب... وضع نديم المصباح فوق الأرض مسددًا شعاعه إلى وجه الرجل، بجوار المصباح وضع مصباحًا آخر فغمر الضوء وجه الرجل في دائرة لا تخطئها عين مهما بعدت بين الأشجار... مر سنجاب بالقرب من نديم فصوب هذا إليه مسدسه وأطلق طلقة بلا صوت، طار السنجاب في الهواء ثم هوى إلى الأرض بلا حراك، برزت عينا الرجل في رعب طاغ وهما تحملقان في جثة السنجاب الهامدة.. اندفع نديم بعدها يستقبل الرجال مع خليفة، وكان آخر من وصل منهم إلى الشاطئ

هو الملازم الذي كانت سعادته تفوق كل شيء... صاح وهو يخلع أنبوبة الأوكسچين بمساعدة خليفة إنه ثبت العبوتين تحت البريمة وإن...

لكن نديم قاطعه ناهرًا إياه:

ـ اسكت.

مضى الركب في الطريق إلى السيارة التي كانت قد عادت لكن خليفة جمد في مكانه وهو يحملق في المياه بفزع... كان الرجال يبتعدون ويبتعد معهم حفيف خطواتهم، لكن نديم توقف ملتفتًا نحو قائد الضفادع البشرية الجامد في مكانه كتمثال لا حياة فيه... عاد إليه مهرولًا:

ـ ما لك يا خليفة؟

أشار خليفة دون كلمة إلى سطح المياه، وبين سيقان الأشجار السابحة رأى نديم ما جعل الدماء تجمد في عروقه... أمام عينيه، وفي ضوء النهار الخافت، رأى تمساحين يتحركان في مقدمة سرب صغير من التماسيح، التفت بسرعة نحو مصب النهر فإذا التماسيح الساكنة بين الأشجار تبدأ رحلتها مع أول النهار... التفت نحو خليفة ولم يكن هناك ما يقال، فلقد وقعت معجزة في زمن بلا معجزات.

❊ ❊ ❊

في الحقيبة الخلفية للسيارة، كانت هناك حقيبة مثقلة بسبائك من الرصاص والحديد، وضعت فيها ملابس الضفادع البشرية، والمعدات وأنابيب الأوكسچين، وما تبقى من عبوات ناسفة، ثم أغلقت جيدًا... كان الرجال قد بدلوا ملابسهم ودلفوا إلى السيارة التي انطلقت في الطريق المترب لا تلوي على شيء حتى إذا عبرت ذلك الجسر الصغير فوق النهر الذي يشطر الغابة ويصب في الميناء، توقفت السيارة وهبط نديم وخليفة، فتحا الحقيبة الخلفية وحملا الحقيبة المثقلة بالمهمات،

وألقيا بها في النهر فغاصت حتى الأعماق... عادا إلى السيارة التي راحت الآن تنهب الطريق نهبًا... في كلمات سريعة أدلى كل رجل بتقرير عن مهمته... أجمع الثلاثة أن الوصول إلى قاع الحفار ومغادرته كان صعبًا فالإضاءة فوقه ومن حوله قوية بحيث تكشف كل من يقترب منه مما دفعهم إلى الغوص إلى أقصى ما كان يستطيع الواحد منهم، لكن المهمة كللت برغم كل شيء بالنجاح، وثبتت العبوات الأربع في مكانها، وما هي إلا ساعتان وبعض الساعة حتى تنفجر العبوات تحت بطن الحفار كي تبقره بقرًا... ولكن الرجال فوجئوا بالتعليمات الجديدة يلقيها عليهم نديم في سرعة وترتيب ودقة من درس وحفظ كل خطوة عن ظهر قلب... وإذا كان أحدهم لم ينم منذ أربع وعشرين ساعة، فلا وقت الآن للنوم وعليهم أن يرحلوا فورًا عن أبيدچان، وقبل أن تمضي على وصولهم اثنتا عشرة ساعة... سيعودون إلى الفندق ويتظاهرون بالسكر الشديد، على كل منهم أن يخطئ في دفع الحساب وأن يدفع أكثر حتى يسكت كل من تسول له نفسه أن يسأل، عليهم أن يطمئنوا تمامًا فثمة سياج شديد من الأمن من حولهم، سيحملون حقائبهم إلى المطار، وهذه هي جوازات سفرهم وتذاكرهم وموعد إقلاع الطائرة الأولى إلى لاجوس في نيجيريا في الثامنة والنصف صباحًا، والطائرة الثانية إلى واجا دوجو في فولتا العليا وموعدها في التاسعة وخمس وخمسين دقيقة... في المطار قد يلتقون بزملائهم ـ المتدين وزميليه ـ القادمين من القاهرة، فحذار أن تبدو من واحد منهم بادرة توحي أنهم يعرفون بعضهم بعضًا مهما حدث... لن يدخل زملاؤهم ساحل العاج ولن يغادروا المطار وستستمر رحلتهم عائدين إلى القاهرة.. في منتصف الطريق إلى العاصمة سيفترقون، وعليهم أن ينفذوا التعليمات بكل دقة، وسيكون كل شيء على ما يرام.

* * *

كان على نديم أن ينظف المسرح تمامًا قبل عودته إلى الفندق، عاد إلى البيت الآمن واطمأن تمامًا، ثم غادر المبنى وسار على قدميه حتى بلغ فندقه... قبل أن يصل إليه بحوالي مائتي متر، كانت ثمة سيارة تقف في أحد الأركان، ما إن حاذى السيارة حتى فتح الباب وهبط من السيارة رجل الأعمال السوري الأصل سليم أبو فودة... سار الرجلان جنبًا إلى جنب في تثاقل من شرب كثيرًا.. دار الحوار فيما بينهما خافتًا... سأله سليم: «كيف الأحوال؟»، فرد نديم بأن كل شيء على ما يرام... دلفا إلى الفندق وكانت الساعة تشير إلى السابعة وخمس عشرة دقيقة بالضبط، بدا عليهما السكر فابتسم موظف الفندق وهم يتبادلون النظرات... افترقا أمام غرفة نديم وكان سليم يقول إنه في حاجة إلى أن ينام عامًا بأكمله. فطلب منه نديم أن ينام ملء جفنيه وألا يغادر غرفته، مهما حدث ومهما سمع، قبل أن يأخذ كفايته من النوم والراحة... لكن نديم عندما دخل غرفته أحس برغبة قاتلة في النوم.. هرول إلى الحمام ووقف تحت الدش وترك المياه الباردة تغسل تعب ليال وأيام مضت بلا لحظة من نوم أو راحة... لف جسده بفوطة كبيرة وخرج من الحمام مترقبًا، نظر في ساعته وكانت قد تجاوزت السابعة بخمس وثلاثين دقيقة، كان الفندق يبعد عن الميناء بسبعة كيلو مترات لكنه كان موقنًا أن صوت الانفجارات سوف يصل إليه بوضوح خاصة في صباح يوم أحد تموت فيه حركة المرور في الصباح.

عادت الدقائق تسير في تثاقل يبعث القلق والفكر إلى الرأس المكدود... ماذا لو فسدت العبوات أو فسد بعضها؟! ماذا لو اكتشف الإسرائيليون الأمر قبل أن تنفجر الشحنات الناسفة؟! ماذا لو أن الرجل الذي تركه جالسًا تحت الشجرة يحملق في السنجاب القتيل أبلغ عما حدث، فخمن البعض ما حدث؟! ماذا عن... ماذا عن... وعن... و......

وانتفض جسد نديم في مكانه فقفز واقفًا مع صوت انفجار يأتيه من بعيد، نظر في ساعته فإذا هي الساعة السابعة وخمسون دقيقة، خفق قلبه خفقانًا شديدًا وراح يرقب عقرب الثواني وهو يدور في ساعته ببطء مميت، أمام النافذة كان يروح ويجيء مطمئنًا أن أحدًا لن يراه من خلال النافذة المبطنة بشبكة من السلك الرقيق ليمنع الناموس عن الغرفة... في الثامنة وسبع وخمسين دقيقة دوى الانفجار الثاني فاهتز حتى الأعماق... سرى صوت نعيق سيارات الإطفاء في شوارع أبيدچان، لقد أفلح الرجال، انفجرت عبوتان ولم تبق سوى الثالثة التي ستنفجر معها العبوة الرابعة تحت البريمة... وهو لا يريد سواهما، تلكما العبوتين اللتين حملهما الملازم ووضعهما تحت البريمة لتفجيرها وإتلافها وإتلاف الحفار معها إلى الأبد... لو أنه... لو أنه فقط استطاع ذات يوم أن يصف هذه الـ.................

توقف عقله عن التفكير، توقف الزمن، اهتز في وقفته مع اهتزاز الجدران والنوافذ والأبواب في الفندق الذي يبعد عن الحفار بسبعة كيلو مترات كاملة، كانت الساعة تشير إلى الثامنة وخمس دقائق بالضبط، حاول نديم قلب الأسد أن يتحرك، حاول... حاول أن يشعر بشيء، أن يفرح، أن يصرخ، أن يضحك، أن يصيح، أن يبكي... حاول، حاول، ولا شيء، لا شيء سوى ذلك الإحساس الهائل بالراحة تفيض على نفسه كطوفان يدفعه إلى المقعد المواجه للنافذة والجلوس عليه، مدد ساقيه في استرخاء، ثم... ومع تتالي صراخ سيارات الإطفاء والإسعاف التي كانت تقطع شوارع المدينة صارخة توقظ النيام الذين كانوا بالأمس يحتفلون احتفالًا صاخبًا، عادت الدنيا إلى عينيه كما كانت في الأيام الخوالي، بالألوان الطبيعية.

و... ولم يكن هناك وقت للاسترخاء أو الراحة، كان عليه أن يخطو

تلك الخطوة الأخيرة التي كان عليه أن يخطوها، نهض غير متثاقل، عاد إلى الحمام فحلق ذقنه ووقف تحت الدش مرة أخرى وتعطر وارتدى أفخر ما معه من ثياب ثم هبط إلى حديقة الفندق حيث تناثر النزلاء لتناول طعام الإفطار في الهواء الطلق، سار نديم مخترقًا الحديقة حتى مائدة بعينها، اختطفت عيناه نظرة من باب جانبي للحديقة يؤدي إلى موقف للسيارات، ألقى بنفسه فوق مقعد وهو يلتقط التوقيت من ساعة يده، طلب إفطارًا دسمًا راح يتناوله بشهية فقدها منذ أسابيع، انتهى من إفطاره وراحت عيناه تختطفان نظرة تلو الأخرى من ذلك الباب الجانبي، طلب فنجانًا من القهوة وراح يدخن في استمتاع من حرم من التدخين لأسابيع، كان يعلم أن أمامه دقائق قد تطول فألقى برأسه إلى الوراء وأغمض عينيه، لكن اليقظة كانت هي كل ما يشعر به، فتح عينيه فاعتدل في مكانه وكادت الفرحة تقفز به من مكانه إلى السماء السابعة... من عند ذلك الباب الجانبي جاءه البشير بأسرع مما تصور، ظل جالسًا في مكانه بعد أن وضع نظارته الشمسية على عينيه حتى لا يفضح أحد اتجاه نظراته، عاد البشير مرة أخرى يؤكد له، بإشارة حاسمة لا تقبل التأويل: إن كل شيء على ما يرام، وإن الحفار قد دمر.

نهض نديم من مكانه وغادر الحديقة في لحظة كان موقنا أن أحدًا لن يراه فيها، سار في الشوارع متسكعًا وكان يعرف طريقه جيدًا، مرت به سيارة إطفاء، يبدو أنها استدعيت من مكان بعيد؛ فإذا قلبه يبتسم، توقف أمام إحدى الفترينات واطمأن إلى أن أحدًا لا يتبعه، عاد إلى السير حتى شارف المدخل الرئيسي للميناء، كان ثمة محل لبيع الملابس الفاخرة، وقف أمام فترينة عرض ونظر في ساعته وكانت تشير الآن إلى العاشرة... اخترقت عيناه الزجاج فإذا الباشا هناك عند النافذة المقابلة للمحل المغلق، بجواره وقفت ليليان وكانت تثرثر مشيرة إلى ثوب وطني زاهي اللون، أخرج الباشا سيجارًا وقص نهايته بأسلوب من تعود أن يفعل

ذلك طوال العمر، سافر الرجال في الموعد إذن وأصبحت المدينة نظيفة تمامًا، دس الباشا السيجار بين أسنانه وأخرج ولاعة ذهبية أشعلها مرة دون أن يشعل السيجار ثم أطفأها وهو يميل على ليليان متحدثًا إليها، وكان معنى هذا أن الفوج الثاني وصل ولم يغادر المطار لكنه لا يزال في الترانزيت، أعطاه الباشا ظهره فتحرك منصرفًا نحو بوابة الميناء وكان الزحام هناك شديدًا، لم يكن في حاجة إلى الاقتراب فسيارات الإطفاء تملأ المكان وسيارات الإسعاف تقف على استعداد والناس يتجمهرون في محاولة لمعرفة ما حدث، ورجال الشرطة يحيطون المكان بسياج منيع... من مكانه البعيد رأى أبراج الحفار مائلة ميلًا شديدًا حتى لتكاد في ميلها تلامس الرصيف، استدار نحو بناية من الناحية الأخرى من الطريق، رفع عينيه نحو النافذة الثالثة في الطابق الرابع، كانت ثمة فتاة أوربية ترتدي بلوزة خضراء اللون وحول عنقها «إيشارب» أبيض في لون اللبن... قال نديم بصوت مسموع وهو يعبر الطريق: «الحمد لله»... كان معنى «الإيشارب» الأبيض، أن إصابة واحدة لم تحدث، وأن نقطة دم واحدة لم ترق، وأن العملية كانت «بيضاء».

ظل نديم يسير ويسير، من شارع إلى شارع، ومن طريق إلى طريق... لم يكن يريد أن يكف عن السير، كان الخدر يسري في جسده حتى توقف في شارع هادئ، توقف مستديرًا فإذا بسيارة أجرة تأتي من بعيد، أشار إلى السائق فتوقف، دلف إلى السيارة وهو يهتف بالعنوان.

حملته السيارة إلى إحدى الضواحي، عند مشارف الضاحية غادرها وعاد يسير على قدميه حتى اطمأن تمامًا... عاد إلى السير حتى مر بسور حديدي لمبنى مكون من طابقين، ما إن حاذى الباب حتى خطا إلى الحديقة الصغيرة، كان المبنى هو مقر القنصلية المصرية في أبيدچان، وكان القنصل صديقًا قديمًا له، عندما سأل عنه قيل له إن اليوم إجازة وما زال القنصل في مسكنه بالطابق العلوي، طلب من الموظف الذي

التقى به أن يبلغ القنصل أن هناك من يريد أن يراه... كان كل همه الآن أن يرسل برقية إلى القاهرة... ولقد أرسلت البرقية بالشفرة في تمام الساعة العاشرة والنصف من صباح الأحد ٨ مارس عام ١٩٧٠، وكانت تحمل كلمة واحدة، رغم سطورها العديدة، هذه الكلمة هي «مبروك».

الأعمال الكاملة
للمؤلف

أ ـ من ملف المخابرات المصرية

قصص واقعية للصراع مع المخابرات الإسرائيلية:

١ ـ كنت جاسوسًا في إسرائيل (رأفت الهجان).

٢ ـ سامية فهمي.

٣ ـ دموع في عيون وقحة.

ب ـ روايات ومجموعات قصصية:

١ ـ زقاق السيد البلطي.

٢ ـ الكداب.

٣ ـ حب للبيع.

٤ ـ السجين.

جـ ـ من أدب رحلات البحر:

١ ـ البحّار مندي وقصص من البحر.

٢ ـ البحر.

د ـ حوارات:

ليلى مراد.